الرجل المسحور

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

المشروع الوطني للترجمة

الرواية العالمية

الرجل المسحور

رواية

تأليف : حسن خادم

ترجمة : ميسم العلي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢١م

العنوان الأصلي للكتاب:

مرد طلسم شده

الكاتب: حسن خادم

الناشر: تكا، ٢٠٠٩

المترجم: ميسم العلي

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(**بالضرورةِ**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها**.**

-١-

بدأ كل شيء بهجوم النمل على ذرات السكر والحلوى حتى إبداع السماء والأرض ومخلوقاتها التي لا تعد ولا تحصى.

يهبّ هذا الكلام المرموز كالنسيم في الفضاء، ومن هنا سأبدأ قصتي الغريبة المدهشة.

أظن بلا شك أنه في تلك اللحظة ومن ذلك المكان بدأ الحدث، وظهر نسياني وجهلي جلياً واضحاً.

كان الصبح فيما أظن وربما بعد طلوع الشمس بساعة أيضاً، عدت نحو النافذة لأضع كمية من السكر في سكريتي الفضية، وبينما كنت أفتح قبضتي خطفت عقلي سواحل السماء الزرقاء والأشجار الخضراء التي كانت أمام عيني.

رأيت بأم عيني بعد ساعتين تقريباً هجوم النمل المفاجئ على الحافة النافذة الحجرية. اعتقدت تماماً في هذه اللحظة أنني أغرق في هاوية الجهل والحماقة ولا أعلم لماذا ابتسمت بلا سبب بعد أن هزني هذا المشهد. كان بدا لي أنه بقيت ساعات لغروب الشمس وفي هذا الوقت نجحت بأن أراقب عن كثب قدرة الله العجيبة، وتماماً في هذه اللحظات سوف يرى البعض هذه الحكاية عادية في حين أنني أتوه داخل حكاية غريبة ونادرة.

لا أعلم لماذا احترفت الصبر خلال مدة طويلة من أجل ما أريد كتابته؛ هل بداية حدوث أي عمل يجب أن تتم في ظروف خاصة بها؟ أو أن الإرادة وحدها تكفي لإنجاز هذا العمل؟ منذ سنتين تقريباً قررت أن أكتب هذا الحدث العجيب لكن لم يحدث.

ما رغبت بكتابته لم يكن حكاية مبتذلة ولن يكون. بلا شك الحقيقة مذهلة وربما راقبت هذا الحدث في مكان ما. بحق من هو الذي أشعر أنه بقي جانبي لمدة ليست بطويلة، والآن كما لو قد اختفى وزال.

هذا الإحساس ليس رؤية أو خيالاً وحتى الآن يتلاطم موجه في روحي، ويجري نحو الموت في عروقي كجريان الدم، ويسوقني نحو مجهولاته. هل حقاً لم ألقَ ذلك الموجود المدهش في مكان ما من هذه الأرض الشاسعة؟ أُلَمْ أُسِرتُ معه ليالِيً وأياماً معزولةً عن هذا الزمن المنسيُ في أعماق مظاهر الوجود.

لم أجنِ شيئاً حتى اليوم من سعيي ودأبي. أعتقد أنه لا يوجد أي قوة قادرة أن توصلني إلى ذلك الذي أشعر به. فيما أذكر كان وجوده مملوءاً بالسكينة والهدوء والعشق، كان يبدو مثل وحي وإلهام مملوءِ بالشوق والحيوية والجنون السماوي الذي ينهض كصاعقة من بين التراب وكما لو كان موجوداً يشكل جزءاً من داخلي. أما ذلك الذي فقد اليوم يبدو لي أنه في حال التبدل إلى سراب بعيد وحلم صعب المنال.

على الرغم من هذا أعلم ما الحكاية التي أنا في صدد كتابتها، وإذا لم يساعدني القضاء والقدر فربما سحر القلم والأسرار التي تترشح من رأسه السحري سيردد لي هذه الحقيقة الضائعة. لا يمكن اعتباره مصادفةً أو حدثاً

عادياً، ويجب ألا أتصوره كذلك على الأقل، يجب ألا أخدع نفسي؛ قد أتضح لي مرات وبالتجربة أنه عندما يستيقظ تفكير الإنسان من نوم ثقيل ولامبالٍ وصامت -وكما يقال نوم قتيل- يضع قدمه في دنيا ملأتها الأسرار غير القابلة حتى للبوح والتي لا يمكن الإفصاح عنها، هذه الدنيا التي تبدو كأنها قد جُمِعَت فيها كل مجهولات وعجائب السماء والأرض، وكل هذه المخلوقات أطلق لها العنان في الحد بين الوجود والعدم. الدنيا التي كما لو تتمثل أمام أعيننا بواسطة رأس قلم سحري يعرض صوراً وحقائق محيرة.

"قصتي حكاية رجل سُحر بواسطة قوة سرية. في الحقيقة غرق في وسط قوة جاذبة تفوق تصور البشر، ولا أحد لديه علم بأحواله، ويعتري الغموض وجوده برمته وفي الواقع ذهلت عيناه بعظمة السماء والوجود المحيط به.

تقبل هذه الحقيقة الجنونية بالنسبة إليه أمرٌ غير ممكن، وأقاربه ومعارفه يئنون بسبب مرضه المزمن هذا، وحقاً لا يستطيع أحد إعادته إلى الدنيا التي نعرفها، وهذه هي الحكاية التي أتصور أنني قرأتها في مكان ما أو بطريقة ما تتعلق بي.

مضت سنتان، وحتى الآن لم أتحرر من وسواس كتابة هذا الحدث المدهش، لأنه لطالما نبهني ذلك الإحساس والخيال على الصلة بين هذه القصة وقدري.

يعتريني اليأس من جديد وبالرغم من أنني عالم بسحر القلم وأسراره لكن لا أعلم لماذا أتمنع عن كتابة هذه الحقيقة التي أسعى لمعرفتها، وأظن أن المحيطين بي مُطلعون على الحقيقة التي أسعى خلفها، ولكن لا يريدون أن

أواجهها، لا أعلم لربما كان مفتاح هذا اللغز بيد أبي أو أمي التي تئن دائماً من وجع رأس مزمن، أو لربما بيد أختي سميرة التي تحاول أن تفر من قبضة أسئلتي وفضولي دون أن تتركني فتقف لتصلي، وبهذا الأسلوب تجبرني على السكوت. أختي لها شخصية جذابة، فهي فتاة قليلة الكلام، وتحب في الغالب أن تتكلم على الله والملائكة، وتستعين بالسبيل المعروف فقط، وهو الدعاء والصلاة حتى تستطيع أن تربط بينها وبين ذلك الذي تبحث عنه. في بعض الأحيان تقول كلاماً غريباً؛ مثلاً تقول: إنها صادقت منذ مدة ملاكاً جميلاً وقد أوصاها أن تنام بعد الصلاة والدعاء ليستطيع رؤيتها أكثر.

إذا سمعت أمي شيئاً من هذا الكلام ستنعتها بالحمقاء والواهمة، وبالرغم من أنها تؤمن بوجود الله، لا تعتقد مطلقاً بما نؤمن به أنا وأبي وسميرة، وتعتقد أنه لا يوجد دنيا وآخرة، وكل ما هو موجود هو موجود في هذه الدنيا نفسها؛ فالعذاب والمشقة جهنم والراحة والعافية والنعمة جنة، أمي متمسكة جدّاً باعتقادها هذا لدرجة تحير الإنسان، وليس معلوماً من أين تسلل هذا الكلام إلى رأسها وكيف سيطر عليها؛ فما أعرفه من أبي أن والديها كانا متدينين جدّاً ومؤمنين بأصول وقوانين القرآن والإسلام، لكن أمي لا تؤدي صلاتها اليومية أصلاً.

ومع هذا لا تمانع صلاة أبي أو أختي لكن لو انشغلت أختي أكثر من الحد بالدعاء والصلاة بحضورها يبدأ صوت أمي بالارتفاع استهزاء شيئاً فشيئاً، وسميرة أيضا تدرك جيداً أخلاق أمي ولا تقدم على فعل ما يؤذيها ويزعجها، فعندما تنزعج أمي من شيء ما أو يضغط على أعصابها كلام أو حادثة ما، أو إذا ابتليت بوسواس، يصيبها ألم شديد في الرأس يشتد شيئاً

فشيئاً، وتضطر أن تتحمل هذا الألم القاتل عدة ساعات. وسميرة أيضاً عندما تختلي بغرفتها، وتكون أمي نائمة تنشغل بالدعاء والصلاة، أمي تعرف أخلاق سميرة جيداً، وتعلم ما تفعله سميرة عندما تذهب إلى النوم أو تخرج من المنزل لأمر ما. مع هذا كله فقد اعتادت سلوك ابنتها، ويكفيها أنها لا تفعل هذه الأعمال أمامها. من المؤكد أيضاً أنها توكل إلى سميرة أعمالاً تعلم أنها ستشغلها مدة، وبهذا لن تضطر سميرة أن تعمل شيئاً من وجهة نظرها لا فائدة منه.

كلما أتيحت لها الفرصة تنتقد سميرة؛ مثلا تشتكي لفترة من نومها لكن بلا أن يظهر أثر للملاك، ثم يسحبها ألم رأسها المخيف والشيطاني معه إلى قبوها البارد والمأساوي.

وأما أبي إذا لم يكن مستغرقاً في نفسه فهو أصعب وأشد من أمي، قضى عمره وهو يأمل دائماً الحياة في السهل والمزرعة، أحياناً يتكلم في منامه على حوض مملوء بالأسماك الحمراء، ويتحدث عن بساتين وأشجار تبدو مألوفة بالنسبة إلي، لكن في منزلنا لا يوجد شيء من هذه البساتين والأشجار فليس لدينا سوى حوض سمك صغير في إحدى زاويا فناء المنزل.

ذات مرة أخبرت أبي عما يقوله وهو نائم، فتعجب لكن لم يقل شيئاً ولكني أحسست أنه يريد أن يخفي شيئاً.

لدي أيضاً أخ قد تزوج مؤخراً وهو يشتكي دائماً لأمي سوء وضعه المالي رغم أني عندما أرى زوجته لا يبدو لي أن وضعهم سيّىء، ويمكن تخمين ذلك من زينتها ولباسها وأسوارها الذهبية التي في يديها؛ فكلما وقع نظري على يدها اليسرى سحرتني خواتمها المضيئة واللامعة ومجموعة

الأسوار التي تتوهج كالشمس، علاوة على ما سبق فإن القرطين المعلقين بأذنيها يبدوان وكأنهما يتكلمان مع الإنسان يدعوانه إلى مأدبة فخمة.

سميرة لا تهتم كثيراً بهذه المرأة زوجة الأخ؛ وذلك لأنها بعيدة كل البعد عن الصلاة والدعاء، ولهذا تفر سميرة منها دائماً، لا يمكن فهم تصرف سميرة بسهولة؛ فهي تتصرف بطريقة لا يستطيع من خلالها أحد أن يدرك عدم محبتها لها. باعتقادي حتى هذه المرأة التي تدعى نرجس تريد أن تخفي عني أمراً ما، ومن خلال سلوك أخي يوسف أيضاً يمكنني التخمين تماماً أنه لربما قد أخفت حادثة ترتبط بي، ومتأكد أكثر من الجميع أن أمي ليست تعلم هذه الحادثة فحسب، بل إنها تتحمل ألماً وعذاباً بسببها، ومع أنها اختارت السكوت، أقرأ هذا المضمون في لمعة عينيها.

إلى جانب هؤلاء تسللت إلى حياتي فتاة أخرى تسمى رُخساره، وقررت بتوصية من عمي أن نتزوج العام المقبل بعد أن تنتهي من الدرس والتدريب. أنا لا أفكر بها كثيراً وهي من يلاحقني في الغالب وأحياناً يطرح عليها هذا السؤال: لماذا أنا غارق في التفكير والخيال، وذات مرة قالت لي: يبدو لي أنك أضعت شيئاً، أنت حائر؟ هكذا تفكر؟ بماذا تفكر؟ عمّ تبحث؟

أنا نفسي لا أعلم، لكن من لحن صوتها يمكنني الحدس أنها تسعى أيضاً لتخفي عني حقيقة ما. أراها أحياناً هي وسميرة جنباً إلى جنب مشغولتين بالتحدث ولكن عندما أقترب منهما لا أعلم لماذا أشعر أنهما تغيران الحديث.

هل حقاً قد أصبت بالوهم والخيال؟

هؤلاء هم تقريباً كل الأشخاص المؤثرين والمرتبطين بحياتي، هم الأشخاص الموجودون وأيضاً كأنهم غير موجودين، أفكر بعلاقتي بذلك

الرجل المسحور أكثر من أي شيء آخر، وأحاول قدر الإمكان ألا يفهم هؤلاء ما أفكر به؛ لا أريد أن يفكروا أنني أبحث عن الحقيقة التي ربما هم أنفسهم مطلعون عليها. ولأصل أسرع إلى النتيجة قررت ألا أتحدث معهم حول هذا الموضوع، وإن قررت يوماً ما أن أتحدث حول هذا الموضوع مع شخص ما فهذا الشخص لن يكون رُخساره أو أمي بل هو سميرة. صحيح أنها تختلف عني؛ فأنا من باب العادة أصلي، ولكن لا أستلذ من فعلي هذا. أشعر أحياناً أن سميرة ترغب أن تطلعني على الحقيقة، لكن لا أعلم لماذا لا تفعل وكأنه قد هددها شخص ما أو أنني فعلاً يجب ألا أطلع على هذا السر الغريب أبداً، وبعد هذه اللحظات تعود إلى الصلاة والدعاء. في يوم ما يشبه الأيام الماضية تقريباً قالت كلاماً غريباً بعد أن تأكدت أن لا أحد يسمع صوتها؛ قالت: يونس، ألا تعلم أن الملاك الذي أصبح صديقي يعرفك جيداً؟

تعجبت من كلامها: حقا تقولين؟ كيف؟

أقول الصدق يونس، صدقني هي تعرفك؛ تقول نحن نعرف أخاك يونس أفضل مما يعرف هو نفسه.

بعد هذا الكلام الغريب بدلاً من أن توضح أكثر. كانت تتكلم على أشياء لا علاقة لها بالله والملائكة أو الصلاة والدعاء، وهذا ما جعلني أتعجب فأنا كنت أعلم أنها تفكر دائماً بهذه الموضوعات، وبالرغم من أن هذا الكلام الغريب قد سلبني كل حواسي، لم أستفسر منها أكثر من ذلك، وبعد هذا وكي أريها أن هذا الموضوع لا يعنيني استمعت إلى كلامها المتأكد أنه لا قيمة له عندها أبداً، وتسلينا معاً مدة على هذا النحو؛ تكلمت قليلاً

على أساور نرجس الجميلة أو على قرطيها اللذين قد باعتهما حديثاً، وعلقت في أذنيها قرطين أجمل منهما.

أنا متأكد أنها تحاول أن تفهمني الحقيقة، لكن يبدو أن شيئاً قد أخافها، نظرتها المذهلة والجميلة مطلعة على سر ما، وأحياناً أستطيع أن أراقب في لمعتها العجيبة تلك الحقيقة البعيدة والصعبة المنال. في يوم ما كان هذا الخيال والتفكير يدفعني إلى الجنون؛ ذهبت باتجاه سميرة كانت هناك قوة ما تجبرني على التحدث معها عن ذلك الرجل المسحور، ولهذا ذهبت باتجاهها، كانت تقف جانب النافذة وتتأمل الفناء، ناديتها فالتفتت ونظرت إلى، ولا أعلم لماذا بدلاً من أن أتحدث عن ذلك الرجل القديس والمذهول قلت: رُخساره لم تأتِ بعد لا أعلم لماذا تأخرت.

جلست هناك أمام النافذة وتعجبت بصمت من الجملة التي قلتها بلا قصد، جاءت سميرة وجلست أمامي وقالت: لن تأتي اليوم؛ أمها متعبة وحالها سيّىء، وتابعت وكأنها تنظر باتجاه شخص آخر غيري: أمي تنتظر نهاية دراسة رُخساره حتى تتزوجا.

ثم ابتسمت وكأن ليلة عرسي أنا ورُخساره تمثلت أمام عينيها، في هذا الوقت نادتها أمي بشكل فهمت أن ألم الرأس قد أصابها مجدداً وبعدها علا صوت أبي: سميرة! سميرة! تعالي أعطي أمك حبة الدواء.

عندما كانت خارجة من الغرفة قالت: مسكينة أمي متى تُشفى من ألم رأسها هذا؟

في تلك اللحظة بدلاً من أن أتعاطف مع أمي وسميرة كنت في أفكر بذلك الرجل المذهل كيف مر من أمام أفكاري كالنسيم وأجبرني على السكوت.

حقاً من هذا الرجل؟ هل هو من صنع خيالي؟ أو أنه حقيقة غير قابلة للإنكار؟ في أي مكان من هذه الأرض وهذه المدينة قابلته؟ هل قابلته بالفعل؟ هل لم أرَ ذاك الرجل ذا الصفات الغريبة والمدهشة في حلمي الأزرق؟ ولماذا أعتقد دون شك أو تردد أنني قابلته في مكان ما؟ عندما أريد أن أشرح قصته يمتنع قلمي عن الكتابة؟ ربما لأنني أفضل أن أدرك علاقة هذا الرجل بي قبل أن أشرح هذه الحكاية، لكن يضعف، ويفقد هذا الاحتمال قوته أحياناً لأني أتذكر جيداً أنه في ليلة ما أردت أن أكتب هذه الحكاية، وفجأة أشتد ألم رأس أمي لدرجة أجبرتنا أنا وأبي أن نوصلها إلى المستوصف القريب من المنزل.

في تلك الليلة كنا جميعنا مستيقظين؛ أخي وسميرة في المنزل وأنا وأبي وأمي في المستوصف. تلك الليلة على خلاف العادة كنت أسمع جيداً أنين أمي التي كانت من شدة الألم تنتزع حجارة جدار غرفة الحقن. لا يتذكر أحد منا أن ألم رأس أمي قد اشتد إلى درجة أن نضطر لأخذها إلى المستوصف. أدى هذا الحادث إلى ألا أفكر بذاك الرجل القديس عدة أيام.

أشعر أحيانا أن ذاك الرجل القديس هو نفسه من يحول دون كتابة هذه الحكاية، يبدو لي هذا الموقف جلياً واضحاً عندما لا يوجد أي عقبة في طريقي. الرجل المسحور يتكئ على حائط بارد ومشهد السماء التي لا حد لها ولا حضور لأحد فيها غير الله الجبار أمام عينيه. في هذه الأثناء تفتح نافذة خيالي وتفكيري الغامض، ولكن قبل أن يوضح سحر القلم نفسه على الورقة يلتجئ الرجل القديس فجأة إلى زاوية مخفية في وجودي، يحيط خيالي للحظات إحساس عدم الرغبة باكتشاف رجل الله ذاك، وحينئذٍ يبدل مكانه

بأفكار ملأى بالآمال الدنيوية وأنا أشعر بالسكينة قليلاً فقط لأنني مطمئن أنه ما يزال يعيش في كياني ولم يتركني في هذه الأوقات التي تحيط فيها الدنيا بي بكل مظاهرها الخداعة والفاتنة، وأنا كالبقية أنشغل بإمضاء الحياة العادية وبصورة أدق مثل واحد من جمع النمل ذاك الذي كان قد هجم على ذرات السكر الحلو أستلذ بنعم الحياة.

-٢-

منذ سنتين بالضبط قال لي أبي كلاماً لا يمكن أن أنساه أبداً، وعلى الرغم من شعوري بأنني قد أودعت الكثير من حوادث وأحاديث حياتي الماضية في ذاكرة النسيان، قد بقي كلام أبي هذا في ذاكرتي وخاطري كآية إلهية وسماوية. أذكر تلك الليلة بدقة؛ كنت مشغولاً بكتابة قصة خصصت لسردها ليالي وأياماً كثيرة من وقتي، كانت القصة حول رجل نجح بطريقة سحرية وسرية أن يبعد الموت عنه، ويحصل على الحياة الخالدة. انتابتني رغبة جامحة غير قابلة للوصف عند كتابة هذه القصة، نمت كل فروع وأوراق وجزئيات هذا الحدث الخيالي في فكري، وبعد مدة من التفكير وصلت إلى هذه النتيجة، بأنه لا بد من وجود شخص قادر على طرد الموت والحصول على الحياة الخالدة، تحققت هذه القناعة الأولية بعد ساعات وأيام من التفكير والحوار مع عقلي الحالم، وفي النهاية بنيت أساسات هذه القصة لكن الكلام الذي قاله أبي أدى أن أنسى إلى الأبد فكرة كتابة هذه القصة. قال أبي بعد أن فهم ما هو موضوع القصة: طالما لم تجرب شيئاً أو لم تكن ناظراً للحدث أو متأكداً من أنه واقعي لا تتحدث عنه، بهذه المزاعم تخدع نفسك فقط، منذ آلاف السنين يتحدث الناس عن آمالهم، كل ما تراه اليوم هو صورة ممزقة لآمال الناس خلال سنوات طوال، تحب الحياة؟ ولأجل هذا تفر من الموت؟! الموت حق على الجميع.

بعد أن رأى أنني انصرفت عن الكتابة وأنصتّ إلى كلامه تابع: لا يوجد أي إنسان في مكانه الواقعي، الجميع يتظاهر، لا أحد يمثل ذاته، كل شخص تعلق بشيء ما، كل مكان في الدنيا على هذا النحو؛ نفسك أنت مثلاً تفكر أنها رغبتك أن آتي أنا إلى هنا وأزعجك؟ لا. أو مثلا أنا؛ تفكر لماذا يجب علي أن أتحمل هذا الوضع؟ صحيح، أنا مجبر؛ فأمك تريد أن تحيا وتموت في المدينة التي ولدت بها، لو لم أكن مجبراً لكنت الآن أعمل لنفسي في المزرعة وأجوب السهل والصحراء وأستمتع بالحياة، البقاء هنا لا يفيدني بشيء؟ لا شيء. أنا يجب أن أتعفن في هذا المنزل؛ فقط لأن أمك تريد ذلك. وكأننا مجبرون على إنجاز أي عمل أو بخلاف ما نهوى نؤدي عملاً آخر...

وعند الذهاب طرق على رأسي بآخر كلامه: ما الفائدة من أن تكتب عن رجل لا بد أن يموت أيضاً في النهاية!

أعتقد أن هذا الكلام نفسه أدى إلى أن أنصرف عن كتابة هذه القصة، ومن بعدها ألا أتواجه أبداً مع هذا الرجل الخالد. في الماضي لم يكن أبي يعارض أبداً حينما كان يرى أنني منشغل بالكتابة أحياناً، كان فضوله يثار فقط حتى يفهم حول أي شيء أكتب؟ كأن المهم كثيراً بالنسبة إليه هو معرفة الموضوع، وعادة بعد شرحي له لا يتكلم ويتريث قليلاً، وبعدها يبتعد بهدوء عني وهو يهز برأسه، هز رأسه لم يكن علامة موافقته على عملي؛ من باب العادة كان يفعل هذا العمل، بخلاف أمي التي تنظر إلى عملي هذا بعين الشك والتردد، تفكر دائماً على نحو أن هذه الكتابة فيها أذية لي، لكن ما يبدو بنظري غريباً أنه منذ سنتين تقريباً قد تغير سلوك أبي أيضاً، لا أعلم ربما تحت تأثير أمي قد اتخذ هذا السلوك، من بعدها كلما كان يرى أنني مشغول بالكتابة بعد التريث لحظة كان يكرر دائماً هذا الكلام.

- ماذا أنت فاعل! ماذا تكتب مرة أخرى؟

- لا شيء، أكتب كالعادة.

- لا ثمرة لهذا العمل... اذهب واهتم بنفسك.

فقط سميرة كانت تستمتع لكتابتي. لكن إن كان أبي وأمي حاضرين تحاول أن تبديَ بنظرتها وسلوكها أنها غير معجبة أيضاً بالعمل الذي أفعله، حتى أخي أيضاً حينما يزورنا يحاول أن يجسم بأقصر الجمل أفضل ملذات الحياة أمام عيني، ويسحبني أكثر من قبل إلى دنيا أمثاله، دنيا كلها شهوة ومتعة.

ويثار فضولي أكثر لأنهم يسعون جميعاً أن يسحبوني إلى اتجاه محدد، برغم أني قد اعتدت هذه الحياة العادية، لكن هذا النوع من الاحتكاكات في حياتي يدفعني لأفكر بدقة أكثر بما حولي.

لو أنهم يخفون حقيقة أو سراً عني، هل من الممكن أن ذاك السر يرتبط بالرجل المسحور؟

في بعض الأوقات أفقد صبري، وأقرر أن أتحدث مع من حولي بهذا الخصوص، لكن يصرفني تصور أن هذا الأمر قد يؤدي إلى عدم توضيحهم لي الحقيقة أبداً؛ ربما لو فهموا أنني أحاول فهم هذا السر لتكتموا عليه أكثر من ذي قبل.

الآن أشعر أنه حان وقت التكلم على سر آخر، لكن لن أدع يد أمي أو أبي أو أي شخص آخر تقع على هذه الكتابات، لأنني أعتقد أن بين هذا السر وذاك الرجل المقدس علاقة خفية.

بدأت الحكاية منذ سنة، يوماً ما في الصباح الباكر عندما كنت عائداً من زيارة قبر عمي، على مسافة ليست ببعيدة عن قبر عمي بعد ثلاثة صفوف بالضبط سقطت عيني فجأة على صورة أرعبتني، كانت قد بهرت عيني الذاهلة على وجهي بإطار صورة قديمة تعتلي قبراً قديماً! نسيت للحظة أن أتنفس وضغطت الحيرة على جسدي وروحي حتى اشتعلت النار في جسدي من قمة رأسي حتى أخمص قدمي، وسال العرق على جبيني، وبلعت ريقي عدة مرات، وبقيت حائراً وساكناً على النحو نفسه، ثم تلفتّ حولي بهدوء ومن شدة الدهشة لم يبقَ إلا القليل لأدعو الناس البعيدة والقريبة لمشاهدة هذه الحقيقة المذهلة، وحتى عندما رأيت رجلاً على بعد عدة أقدام مر من جانبي دون وعي فتحت فمي بصرخة عالية، لكن كأن صمت المقبرة وصوت الطيور الخافت قدّما لي دعوة للسكوت.

تحركت واقتربت أكثر من القبر القديم وذاك الوجه المذهول، كأني أقترب من نفسي، كنت في حالة أعجز عن وصفها، كنت وكأني قد علقت في رؤية لا يمكن الخلاص منها، أبعدت الأعشاب الطويلة واليابسة لربما وجدت علامة اختلاف في وجهه الحائر المندهش وأكدت لعيني خطأهما. لكن لا! كأني كنت أقترب من مرآة باهتة وخافتة، كنت أنا نفسي، هو كان نفسه، كان وجهاً شبيهاً لوجهي الحائر إلى حد الجنون والدهشة والذهول الاستثنائي....

كان قد حبس النفس في صدري، لم أكن منتبهاً قطّ، متى ابتلعت هواء الموتى؟ أذكر جيداً فقط لحظة الجلوس أمام ذاك الوجه الغريب، كان قد حدق بحركاتي، كأنه كان مطلعاً على حيرتي، ودهشتي فقد كانت نظرته غريبة جدّاً.

انحنيت سريعاً، وقربت وجهي من إطار تلك الصورة القديمة والمغبرة، وبدا لي أنني لم أحدق بوجهي بهذا الشكل الدقيق من قبل ثم التفت حولي، أردت أن أرى هل يوجد شخص منتبه لسلوكي هذا أم لا؟ لم أكن أريد أن يذهل شخص غيري بهذه اللعبة الغريبة، لا لم يمر أي أحد سوى النسيم العليل والطيور من فوق رأسي، تنقلت حول القبر ومسحت بكف يدي الغبار والتراب عن إطار الصورة، لم يتغير كثيراً، ظننت أني قد أزلت الغبار عن مرآة عكرة، ورأيت نفسي في مرآة الحياة والموت، تمتمت لاإرادياً باسم الله عدة مرات، ما كان هذا السر الذي كنت أطلع عليه؟

فجأة انتبهت لشاهدة القبر، فتنحيت وأخرجت سريعاً منديلي من جيب البنطلون ومسحتها، يبدو أن صاحب القبر لا أهل له أو أنهم لا يعلمون بوجوده في هذه المقبرة؛ فقد تراكم غبار سنة سنتين على الأقل على شاهدة القبر، لم يكن لهذا العمل نتيجة جيدة، وكأن الكتابة كانت قد محيت وتلاشت بمرور الزمن.

نهضت وسارعت إلى قبر عمي، المسافة ليست بعيدة؛ عدة صفوف إلى أعلى الجهة اليمنى عن مكان قبر ذاك الشاب. كنت أعبر من صف القبور وكنت أحاول ألا أدوس الموتى، خجلت من حضورهم.

عندما وصلت انحنيت سريعاً وحررت وعاء الماء الذي ربط بخيط قوي على قضبان إطار صورة عمي، ثم سارعت إلى ساقية الماء التي كانت جارية تحت قبره بعدة خطوات.

ملأت الوعاء بالماء وبينما يحدق عمي بي سارعت نحو قبر الشاب، كنت أعبر من بين القبور بحذر، كانت الأعشاب اليابسة تصدر صوتاً،

وكان الطير يغرد أحياناً والريح تلطم وجهي، كنت متأكداً أني جئت من الطريق الصحيح، كان يستقر أسفل قبر عمي بثلاثة أو أربعة صفوف على مسافة عشرة أمتار تقريباً، لكنه كان شيئاً غريباً كما لو أن القبر قد تلاشى، يمكنني القول بجرأة وثقة: إنني كنت أقف تماماً في المكان الذي يجب أن يوجد فيه القبر.

تريثت خمس دقائق، لكن لم أرَ شيئاً، دققت النظر حولي حائراً ومندهشاً، كان وعاء الماء مثقوباً بثقب صغير، تبللت يدي ولأني كنت قد أضعت القبر أغلقت الثقب برأس أصبعي حتى لا يهدر الماء أكثر من ذلك، انطلقت في طريقي، كان علي أن أبحث، وضعت الحذر جانباً هذه المرة وكنت أدوس القبور واحداً تلو الآخر باستغراب وحماس لا يوصف، كنت أرفع نظري عن الوجوه التي كانت تنظر إلى بإحساس عالٍ وأنظر إلى وجه آخر، في كل مرة كنت أدور كانت تتسع الحلقة أكثر، وعلى هذا الشكل درت ثلاث أو أربع مرات كاملة، وفي النهاية توقفت عن الحركة يائساً فاقداً الأمل.

ألقيت نظرة على وعاء الماء، ورأيت نفسي مرة أخرى، وضعت قبضتي في وعاء الماء لأشعر ببرودته، كنت قد تعبت وكنت في أفكر باختفاء ذاك القبر. هل حقا أصبت بالهلوسة والوهم؟ فكرت مع نفسي كثيراً للعثور على ذلك القبر، الأفضل أن أبدأ من قبر عمي، يجب أن أنطلق من المكان نفسه كأول مرة، لا؛ ذاك القبر موجود في هذه الأنحاء على وجه الدقة.

بعد هذه الأفكار انطلقت لكن عند أول خطوة علق بنطلوني في حافة إطار صورة وضعت على قبر، وبسبب هذا المصادفة أحسست بحرق في قدمي، حررت البنطلون، كان قد تمزق، انحنيت ورأيت خدشاً من شق

البنطلون، فجأة غطى خيط من الدم الخدش الأحمر والمتورم، تهيأت لأستمر في طريقي، لكن لم أفهم لماذا نظرت باتجاه ذاك القبر كما لو أنني أردت من خلال هذه النظرة أن أعترض على صاحب القبر، أحاطت نار بكل كياني بشكل جعلتني أنسى ألم قدمي، كان نفسه، كان ينظر لي بتلك العينين المذهولتين والحائرتين. تقدمت ولست على يقين أنني وجدته، ما يزال منديلي المغطى بالتراب ملقىً عند القبر، جلست على الفور قربه، ومسحت بيدي على زجاج الصورة مرة ثانية، ومن ثَم لفت انتباهي شاهدة القبر، وحينئذٍ سكبت وعاء الماء عليه، وبدأت بعدها بفرك شاهدة القبر، الكتابات تتضح، اقتربت من أسفل القبر لأستطيع أن أقرأ بشكل أفضل، أعملت كل حواسي لأقرأ ما كُتِبَ على شاهدة القبر، لكن للأسف تأسفت فظني كان في مكانه وأكثر الكتابات تلاشت وتآكلت بمرور السنين، وفقط هذه الكلمات كانت قابلة للقراءة:

الله الرحيم...الشاب الخائب...المصادف مع...على إثر...سارع.

روحه الآن مع الملائكة...رأيت ما فعل بي القدر...الحياة من جديد... الخلود!

ثم قلت لنفسي: ما أهمية معرفة اسم صاحب القبر أو على إثر أي ألم أو مشقة قد خسر روحه! المهم أنني قد وجدته، بعدها في المكان نفسه الذي كنت قد جلست عليه قرأت له الفاتحة. كم أحببت أن أبقى جالساً بقربه حتى أفهم لماذا يجب أن يكون شبيهاً بي إلى هذا الحد، يبدو أنهم كانوا قد وضعوا عن طريق الخطأ صورتي في ذاك الإطار القديم.

جلست قرب قبره ما يقارب ساعة كاملة، لكن لا أعلم لماذا جاءني الرجل المسحور في تلك المدة عدة مرات؛ أحياناً كنت أحدق بوجهه، وفي ذلك الوقت الذي كنت أغرق في أفكاري كان شيء غريب يحدث؛ عينا ذلك الشاب الخائب كانتا تتكلمان على علاقته العميقة بذلك الرجل المسحور! هل من الممكن أن هذا المعنى الغامض كان من صنع بنات أفكاري وخيالي؟ وذلك فقط لأنه كان يشبهني؟

غرقت مرة أخرى في التفكير العميق، حينئذٍ افترضت فقط أن مشابهته لي سببت أن أشعر بالعلاقة بين هذه الصورة وذاك الرجل القديس، وصلت في ذلك الوقت إلى مرحلة اليقين بحدسي هذا، لأنه لم أكن أريد أن أعثر على وجوده الذي يعني لي الكثير في وجود هذه الجثة المجهولة الهوية.

عند المغادرة وكي لا أضيع قبره ثانية قررت أن أضع علامة، ولهذا نفضت منديلي المغطى بالتراب وربطته بإحكام على أعلى حافة الإطار.

فكرت: هذا علامة جيدة، منديلي الأزرق والمتسخ أصبح العلامة الوحيدة حتى لا أضيع ثانية، ومن ثم دون أن أعيد وعاء الماء إلى مكانه ذهبت باتجاه المنزل.

بعد ساعة وصلت إلى المنزل، مرة أخرى حل بقلبي حزن عميق؛ داخل الغرفة كانت قد زحفت أمي من شدة الألم إلى زاوية فراش النوم، وكانت قد ضمت وسادة إلى صدرها وضغطت عليها بقبضتيها الاثنتين، وكانت قد جلست سميرة قربها قلقة ومترددة.

في هذا الحال لم يُنسِني ألمُ رأس أمي حادثة المقبرة فقلت ما لدي، سميرة فقط استغربت قليلاً، لكنها لم تقل شيئاً. ألقت أمي نظرة عليّ ومرة

أخرى بدأت كالسابق تهز برأسها وكل بدنها كما لو أنني لم أكن قد تكلمت أبداً حول هذا الموضوع؛ كان واضحاً أنها تتحمل ألماً شديداً، لم تعتد على الإطلاق أن تئنَّ حين يصيبها ألم في الرأس ما لم يصبح هذا الألم شديداً جدّاً.

سميرة بعد لحظة استغراب وتعجب انشغلت بها مجدداً.

قررت مجدداً منذ تلك الليلة؛ فكرت في نفسي ولأنني حتى الآن لم أتأكد بشكل كامل هل يوجد علاقة بين تلك الجثة والرجل المسحور أم لا، الأفضل ألا أتحدث مجدداً حول اكتشافي الجديد.

قلت في نفسي: هذا هو الأفضل ألاّ ينتبهوا، ربما لم يفهموا ما أعنيه فهماً صحيحاً، لا أعلم.

-٣-

تمر سنة على تلك الحادثة الغريبة وحتى الآن لم تتحدث أمي ولا سميرة عن أي شي حول مشابهة ذلك الرجل لي؛ يبدو أنه في هذه الفترة لم تكونا قد سمعتا شيئاً. لقد أراح هذا المعنى خيالي، لكن لم أنسَه، ففي أي وقت كنت أزور ضريح عمي كنت أذهب إليه أيضاً، ما أزال أرى منديلي كعلامة على إطار صورته، لا حاجة له أبداً؛ الآن أعرف الطريق جيداً لدرجة أنه يمكنني أن أمشي إليه مغمض العينين من قرب قبر عمي، في الحقيقة زيارة قبر عمي ليست أكثر من حجة؛ أذهب الآن إلى القبر برغبة أكبر لأرى تلك الصورة الغريبة. حتى هذه المدة لم أرَ شخصاً يمر من قرب قبر ذاك الشاب الغريب، فكيف أحصل على علامة عن أقاربه ومعارفه، قد انتظرت كثيراً قرب قبره، لكن لم يظهر أي شخص يذكره مرة واحدة قرب قبره.

مع مرور الأيام تغير تفكيري؛ أنا الآن مطمئن من أنه توجد علاقة بين ذلك الرجل النائم في القبر والرجل المسحور، وبين كلاهما وبيني، أشعر بهذا المعنى الغامض بكل كياني؛ الإحساس الذي يسري في كل روحي ويخيفني من حقيقته.

قد مضت ثلاث ساعات منذ الظهر تقريباً، جاءت رُخساره لرؤيتي، أسأل عن حال أمها وأسعى بكل وسيلة لأدفع عنها الإزعاج الذي أشعر أنه قد خرق قلبها، أنجح من العناية التي أظهرتها أن أرى لمعة الفرح في عينيها.

بعد ساعة خرجنا معاً من المنزل؛ مشينا ساعات مع بعض في خلوة. هي جميلة وسعيدة ولطيفة، تأملتها كثيراً؛ شعرت رويداً رويداً أني أحتاج إليها أيضاً، وهي في حديثها كل مدة السير معاً تتمنى عدة مرات أن تنتهي دراستها بوقت قريب.

كم هي متململة وأكثر سعادة ورضا. نتعشى خلال مسيرنا في مكان مريح، ثم أرافقها حتى منزلها.

ليلاً حين أصبح وحيداً أشعر بحاجتي إلى وجود رُخساره أكثر.

أفكر في نفسي، أحب حياتي مع كل الأشياء التي ترتبط بي، حتى أستطيع من خلال الكتابة أن أملأ وحدتي وخلوتي وساعات شرودي وحيرتي، أفكر أنه ليس في حياتي أي شي مخيب للأمل، الغموض الوحيد الذي يشغل تفكيري أحياناً هو وجود الرجل المسحور المملوء بالسر الذي أظنه يحمل معه حقيقة ثقيلة وسراً قيماً، لو يتضح لي هذا السر أستطيع أن أعيش ببال مرتاح بعدها وأهتم بحياتي.

غداة تلك الليلة قررت في المكتبة حيث أعمل أن أختم للأبد حكاية ذلك الرجل المسحور. مالك مكان عملي رجل عجوز لا يتطفل كثيراً، وليس حساساً لأي شيء، إلا حين يؤخر الزبون. كما أنه شارد الذهن وسمعه ثقيل أيضاً. كل هذه الأسباب أدت إلى احتياجه لوجودي. فكرت في نفسي مكان عملي هو المكان الأفضل الذي أستطيع فيه إنهاء حكاية الرجل المسحور؛ هناك لا أحد يزعجني ومالك العمل لا يتطفل أيضاً.

إذن الأفضل أن أكتب على الفور أحداث هذه الحكاية الغريبة، ربما أتحرر من هذا القيد الثقيل.

يمضي اليوم الأول مع هذا القرار فقط.

ليلاً يأتينا أخي بصحبة نرجس زوجته ونتاول العشاء معاً، ليلة سعيدة؛ أمي لا تعاني ألم الرأس، موجودون جنباً إلى جنب. وأنا أشعر بالسعادة والراحة كثيراً، ولاسيما مع القرار الذي قد اتخذته، كما لو أن الرجل المسحور قد فقد قوته، حتى أبي في تلك الليلة أيضاً قد خرج من فكر السهل والمزرعة، اتحدت أجسادنا وأرواحنا، وأسمع أبي يدعو أن تستقيم حياتي سريعاً. حتى أمي تقول: لماذا تريد رُخساره أن تدرس؟ ما الفائدة من دراستها؟ في النهاية عليها أن تتزوج، إذن لماذا التأجيل؟ هي تريد مني أن أقنع رُخساره أن تترك الدراسة والتدريب لنبدأ حياتنا الزوجية عاجلاً، وأنا سررت.

الغريب أن سميرة ليست مشغولة بالدعاء والصلاة على خلاف العادة؛ التحقت بنا بعد صلاة المغرب والعشاء فوراً، وأنا شاهد أنها جالستنا إلى وقت متأخر دون أن تفارقنا لحظة وكما لو أنها قد نسيت على الإطلاق أن الملاك ينتظرها، نفس الموجود الذي يعرفني أكثر مما أعرف نفسي!

في منتصف الليل تجول رُخساره بغنج وسحر لمدة في رؤيايي، أنا أختلي بها ساعة على هذا الحال. أقول لنفسي فكرة أمي جيدة؛ حقاً ما أهمية الدراسة والتدريب لرُخساره إذا كان الاتفاق أن تصبح زوجتي بعد الدراسة؟ من الأفضل أن تترك الدراسة الآن لنتزوج، حقا لماذا نصبر؟ كلنا يشعر بحاجة للاتحاد، ومتأكد أن رُخساره ستوافق أيضاً على اقتراحي.

منتصف الليل ورُخساره لا تدعني وشأني، والغريب أنه كلما تحل بي رُخساره أو أي نعمة من نعم هذه الأرض يختفي الرجل المسحور أكثر في زوايا وجودي، أشعر أنه قد أتعبني مع كل قداسته!

الأغرب تزامنه مع قراري واقتراح أمي وأيضاً شوقي للزواج برُخساره.

ما الذي حدث؟ حتى بضعة أيام ماضية فقط كان أقل ما كنت أفكر به هو رُخساره؛ كان أكثر ما يشغل تفكيري هو حياة مرفهة نسبياً.

تلك الليلة تأكدت أنني قد اتخذت قراراً صائباً، ولاسيما حين لا أفكر بذاك الرجل المقدس، يرتاح بالي أكثر. لكن لأنني لا أستطيع أن أرتاح للأبد من فكره وخياله، اتخذت قراراً أن أنهي قصته بسرعة، هذا ليس بمتسع يدي كما لو أنه خارج عن سيطرتي؛ نعم أعترف أنني لست قادراً أن أتحرر من جاذبيته إلا إذا كتبت حكايته؛ حينئذٍ أغرق بالحياة مع رُخساره. اتسع هذان الطريقان أمامي وأنا جاهز لعبور الطريق الأول سريعاً، وحينئذٍ أغرق في أحضان رُخساره فارغ البال سعيداً.

ليس أملي أن أدون هذه الحادثة؛ هذا قرار عقلي الباطن، وأنا عبد تابع لأوامره، الآن يجبرني ضميري أن أودع وجود الرجل المقدس للأبد في ذاكرة النسيان.

لم أدرك حتى الآن علاقة الرجل المسحور بي، ومع ذلك اتخذت قرار كتابة قصته، وحتى الآن لم تتضح لي حقيقة تلك الصورة التي أتخيلها "أظن أن من حولي يخفون عني شيئاً". لكن قد اتخذت قراراً لمرة أن أتحرر إلى الأبد من هذه الرغبة، لأني أشعر أن الحياة والسعادة وكل دنياي تسير نحو الحيرة والتساؤل، الآن أفكر كم كان اجتماعنا متجانبين جميلاً تلك الليلة.

هذه كانت مشيئة القدر حتى أخطط لمستقبلي وسعادتي بمساعدة أمي وأرواح الحاضرين السعيدة؛ حقا سعادتي في أن أتخلص عاجلاً من هذه

الأفكار الملحة والعنيدة وأودع كل روحي وكياني ليد العشق. رُخساره! رُخساره! متأكد أنها لن تخذلني، الآن أشعر شيئاً فشيئاً أن كل أملي أنت؛ لا الرجل المسحور ولا حتى ذلك الشاب الخائب، لا يجب أن يمنعني أي أحد من الحصول عليك وعلى حياتي وسعادتي، لا يجب أن يمنعني هؤلاء من أن أغرق وأنا في أول الحياة في مأزق الانهيار والضياع.

حقا، كم الإنسان غريب! وجوده ملآن بالأسرار المجهولة، اليوم يقرر قراراً، وغدا ينسى ما كان يلاحقه. حتى بضعة أيام ماضية كنت مصمماً ألا أكتب أبداً حتى تتضح لي حقيقة الرجل المسحور، حتى الآن أذكر كم امتلكت من الحماس والشوق لاكتشف السر والحقيقة التي أظن أن من حولي قد أخفوها عني.

مع أنه حتى الآن لم يتضح لي شيء، لكن كما لو أنني قد أقلعت عن رغباتي وآمالي. ربما أيضاً قد أتعبتني هذه الألغاز، مع هذا كله أخاف دائماً من أن يأتي الغد، وأعود مرة أخرى أيضا إلى قراري السابق.

آه كم الإنسان غريب ومتنكر! هل يجب ألا يخيفني هذا المعنى حقاً؟

هل تسمعون صوت سميرة؟ الآن ليلاً تتقدم نحو تلافيفها، حتى الآن مشغولة بالصلاة والدعاء؛ ليست تلك التي كانت جالسة قربي على المأدبة وكانت تنصت إلى كلامنا وتضحك أحياناً. لكن كم هي حنونة وطاهرة! في كل عمري وحتى الآن لم أرَ بنتاً بطهارتها وصدقها، قلبها صافٍ كالمرآة؛ ويبدو أنها لا تتوق لأي سر لا يتضح لها حقيقته، أقول في نفسي: كم هي بنت غريبة! الشيء الوحيد الذي لم تتطرق إليه حتى الآن هو موضوع

الزواج والآمال الدنيوية. سعادتها وفرحها هو أن تنشغل بالصلاة والدعاء، أن تذهب للنوم بين الفينة والفينة، حتى ترى ملاكها ومؤنسها في الحلم. الآن أسمع صوتها بوضوح، كم له جاذبية! يرفعني من مكاني. أذهب نحو الباب لأفتحه وصوتها يصل إلى أذني من الغرفة المقابلة، الباب مفتوح نصف فتحة، أفتحه بهدوء، كانت قد نامت قرب أمي، وكنت أظن أنها مشغولة بالدعاء والصلاة. بالتأكيد قد خلت بملاكها المفضل.

أسمع كلامها:

هل يوجد دعاء بقراءته ألف مرة يخفف ألم رأس أمي؟ أنت أيضاً تضرع إلى الله أن تقبل أمي أن نذهب إلى السهل والمزرعة، أن نذهب للعيش هناك، أنا لا أستطيع أن أرى أبي حزيناً... أين تأخذني؟ أنا أخاف... لماذا؟ كم جميل هذا! كم أنت حسن! من؟ يونس؟ ذاك المكان نفسه. إنه صحيح، قد نسي...

حين سمعت سميرة وذلك الملاك يتحدثان عني في الحلم، يبست في مكاني وتمنيت أن تطول لساعات هذه المحادثة الأرضية السماوية. لم أكن أريد ولا أستطيع على الإطلاق أن أنسى كلامها رغم أنه لم تتضح لي حقيقته.

يتلاطم صوت سميرة اللطيف في فضاء الغرفة، ويتسلل إلى أعماق وجودي:

لماذا؟... واو، كما هو جميل هنا! كم أنت حسن! من؟ يونس؟ ذاك المكان نفسه. لا يستطيع، لا. أنا أحبه. أكثر من الجميع. يجب أن يذهب إلى أين؟ لا. لا يستطيع. واو، كم هو ممتع! أمي كادت تجن؛ كانت تقول: هذا

ليس ابني. أتقولين الحق؟ يعني رأت الملائكة؟ كيف؟... لا. أنتم أيضاً تعلمون؟ إلى أين يأخذون يونس؟ لا، لو تعلم أمي ستنزعج. هذا سر؟ نصيبه؟ آه لماذا؟ إذا أردتِ أن يتحقق ادعي. قل ما اسم الدواء؟ كم عدد النجوم هنا! جميل جدّاً! أين تذهب؟ عد! أنا أيضاً أريد أن أذهب معك. لا تذهب! أحبك. أرجوك خذني معك.

غداة تلك الليلة لا تتذكر سميرة الكلام الذي كانت قد نطقت به؛ حتى إنها قالت: تلك الليلة لم أقابل الملاك على الإطلاق!

-٤-

غداً صباحاً أذهب أبكر إلى مكان عملي. من شدة الفرح أشعر بالشبع. المفتاح كالعادة معي؛ ولهذا اتخذت قراراً أن أقوم بكتابة تلك الحكاية في الساعات الأولى بذهن أكثر راحة. لدي إحساس جيد، وأحسب اللحظات لبدء بالعمل. لا أظن بعد هذا القرار يمكن أن يعيقني شيء عن هدفي، لكن حالما أدخل مكان عملي، تسقط عيني فجأة على مالك العمل الذي كالعادة يجلس خلف طاولته وكما لو أنه ينتظرني!

أستغرب لأنه لم يسبق له قطّ أن أتى إلى مكان عمله في هذا الوقت من الصباح؛ دائماً أنا من يفتح المحل وبعد ساعة أو ساعتين يدخل المكتبة بهدوء، وبعد السؤال عن الحال والأحوال يذهب لعمله، وحتى الظهر لا يتكلم معي ولو كلمة. يبدو لي غريباً ألا يسألني عن سبب مجيئي المبكر؛ أثناء انتظاري لمثل هذا السؤال أسلم وأدخل، أصابني الفضول لأعلم ما هو العمل الذي دفعه أن يحضر إلى مكان عمله في وقت الصباح هذا، لكن ما إن تحركت لأذهب نحوه منعني شيء لا أعلم ما هو؟ كما لو أن قوة داخل رأسي دفعتني للتوقف والصمت. غريب! كما لو أن شخصاً داخل رأسي خاطبني أن: "أصبر"، وأنا بدون ترديد، أستسلم بلا أي مقاومة، ومن ثم أعود وأجلس بهدوء خلف طاولتي.

أنظر إليه لتسقط عيناه عليّ فتسقط، لكنه لا يتكلم؛ مرة أخرى ينشغل بعمله، في حين أنني ما زلت أفكر بالرجل المسحور.

على الفور أخرز عدة أوراق ببعض وأحمل قلمي، وأكتب عنوان الحكاية في أعلى الصفحة في الجهة اليمنى: "الرجل المسحور" أتنفس نَفَس راحة حتى تتفتح في صمت مكان عملي أبواب الخيال والفكر بهدوء واحداً واحداً. أحرك قبضتي حركة وأضغط على القلم، لكن لا أفهم لماذا تدور عيني بلا إرادة نحو مالك العمل.

في حال النظر إلى يبدو لي أنه تدور في رأسه فكرة وهو يفكر بها، يبدو أسعد حالاً منذ اليوم السابق تقريباً، أعيد نظري إليه، وأحاول مرة أخرى أن يسمح لي الرجل المقدس بدخول دنياه الغريبة، لكن اسمع صوت خطوات أقدام تقترب مني، أرفع رأسي للأعلى وتلتقي عيني عينه، مالك عملي يأتي نحوي مع عدد من الصحف القديمة، أترك القلم على الورقة، يقول: أجلس. أرتح.

لكن أقف ليقول كلامه، يقف أمام طاولتي وينظر إلى الصحف نظرة وبصوت خافت يقول: تعال خذهم. إذا ليس لديك عمل، أبدأ العمل حالاً.

ينتظر حتى آخذ الصحف من يده. أقول بصوت عال: ماذا أفعل بهم؟

تصحف الأوراق لتصل إلى صفحة الحوادث، في أي مكان ترى أنه قد وقعت حادثة، اكتبها...في هذه الحوادث من المؤكد أنه قد قتل شخص أو أشخاص!... فقط اشرح الحادثة، لكن ليس كتوضيح الصحيفة؛ أريد أن أعد وأهيئ من هذه الحوادث كتاباً ممتازاً، من المؤكد أن أسجل اسمك عليه.

أرمي عليك بحمل، يجب أن ترى خيره على أي حال. أقدر لك عملك هذا بشكل رائع وجيد. فهمت جيدا؟ اتضح أم لا؟

- فهمت. لكن لا أعلم كم حاجتك؟
- كلما كان أكثر أفضل، واضح أم لا؟ كثير. قدر ما تستطيع اكتب لي عن هذه النوع من الحوادث، عندما تنهي هذا العدد، أعطيك غيره، سجل تاريخه أيضاً. هذه الحوادث ليست مخترعة؛ كلها أحداث واقعية.

أسرع إذن! ابدأ العمل، ولا تغفل عن الزبائن أثناء ذلك.

اليوم كان حالي جيداً؛ نهضت وجئت إلى المحل. حسناً فعلت جئت باكراً.

ابدأ في الحال، الآن أنت فارغ البال. أنا سأعود حالاً.

يذهب وأنا على الحال نفسها، ساكن في مكاني قد ذهلت بباب المحل المفتوح إلى النصف.

لا أفكر بأي شيء لفترة؛ بقيت حائراً، ثم أقول لنفسي: هل هذا حدث عادي؟ لماذا خلال هاتين السنتين اللتين عملت خلالهما عنده لم يطلب إليَّ أي طلب؟ كما لو أنه قد أطلع على قراري وهو أيضاً مسخر ليمنعني من إنجاز هذا العمل! لا أريد أن أفكر بهذا الشكل.

فقط هذا التزامن يدفعني أن أفكر بهذا؛ وكم هو غريب أنه في نفس لحظة بدء الحكاية الغريبة فجأة صوت أقدامه يغلق أبواب فكري وخيالي ويقف أمامي بطلبه الغريب!

أجلس مستاء المزاج، وأسحب أوراق القش التي خيطت ببعض من تحت كومة الصحف وأحدق مرة ثانية بعنوان الحكاية، الرجل المقدس يبتعد

بهدوء، كما لو أنه يدعوني بنظرته العجيبة إلى نحوه. فجأة كما لو أن الكهرباء أمسكتني، أحمل القلم بيدي وأشطب على "الرجل المسحور" بخط أسود وأكتب تحته: مأدبة الموت.

لا أريد في هذه اللحظات أن أفكر أكثر بهذا القدر، لذلك بدأت فوراً بالبحث عن الحوادث التي يعتريها الموت بوضوح وبلا رحمة.

أتصفح على نفس المنوال؛ "إعدام خمسة مهربين" "القبض على سائق مقطورة بتهمة قتل معلم" "شاب في الثامنة عشرة من عمره قتل بسبب مزاح" "وجدت جثة رجل مجهول الهوية قرب النهر" "عُلقت مشنقة عشرين مهرب" "فقدت امرأة حياتها إثر حادثة الحافلة" "وصل عدد قتلى سقوط الحافلة عن جسر قزوين إلى تسعة عشر" "وجدت جثة شاب في شمال المدينة" "غرق موظفي شركة السماء في النهر".

أتصفح بالطريقة نفسها؛ مرة ثانية ألمح صفحة حوادث أخرى..."إعدام مخرب في زابل" "لقي شاب مصرعه إثر تعرضه لصعق كهربائي" "شرح سارق مسلح كيفية قتل ستة أشخاص وتفاصيل سرقاته" "المرأة التي أحرقت زوجها" "جرح رجل ثلاثة أشخاص من عائلة واحدة بالفأس".

لا، هذا لا... "غرق ثلاثون شخصاً في نهر في الهند." "اختفى عشرون شخصاً في العاصفة الرملية...".

أشرع بعدها بشرح هذه الحوادث مع ذكر التاريخ، بالطريقة نفسها التي قد وقعت فيها مع قليل من الإضافات فقط، أرفع قلمي ودون أي رغبة في كتابة هذه الأحداث يجول مجبراً في مأدبة الموت، ويتناول غذاء الموتى.

عندما حل الليل أغلقت مأدبة الموت وسرت باتجاه المنزل، أفكر خلال الطريق أنه بالرغم من وجود شيء يمنع كتابة هذه الحكاية لكن مع هذا لا يريد أن أنساها؛ ما الشيء الذي يسعى لأن يحافظ على رابطتي بتلك الحكاية، ولكن ينهاني عنها؟ هذا التضاد والازدواجية المدوخة، لديه القدرة أن يشغل فكري به بين الفينة والفينة، مع هذا قد اتخذت قراري، وفرش هذه السفرة المحزنة لا يمكن أن يضع عقبة في بداية طريقي.

ليلاً حين وقت العشاء وصلني خبر سارّ سعدت لسماعه كثيراً؛ والد رُخساره أبلى بلاء حسناً، وارتهن منزل صغيراً لثلاث سنوات، وأراحنا من هم التفكير بالاستئجار، يشعر كل أهل المنزل بالسرور بسبب سماع هذا الخبر؛ يُرَى بريق الرضا في عيني أبي بوضوح.

لكن أمي قلقة حتى الآن، ربما لن تقبل رُخساره بطلبي، تسأل عن أحوالها؛ لكني لا أعلم، سميرة التي لا تتكلم أبداً على العشاء تقول: اليوم رأيتها، بل هي رأتني، كانت عائدة من المدرسة.

ألقى أبي بنظرة على سميرة، استغرب قليلاً، وغالباً لهذا السبب نطقت على العشاء خلاف العادة، بعدها نظر إلي نظرة ومن ثم انشغل بالأكل.

تقول أمي: رُخساره محبة للدراسة والتمرين، ربما لا تقبل.

لكن أبي يجيبها: من المؤكد أنها قد قبلت، وإلا لم يخبرنا أبوها بخبر كهذا؟

ثم، يلتفت إلي ويتابع: أنت تحدثت مع رُخساره؟

- قلت: لا، لا أعرف عنها شيئاً.

تقول أمي: كيف إذن؟ متى تنتهي دراستها؟

قد ارتحت من هم السكن وتكاليف تحضيره. يأمر أبي ليعبر عن تقديره لوالد رُخساره أن ندعوهم آخر الأسبوع على العشاء، ترحب أمي بهذا الاقتراح، تبتسم سميرة كذلك، ويتابع أبي:

- الآن أنت مجبر أن تدعو له عمراً، لو تعلم من أي مصيبة نجوت، طالما أنت حي عليك أن تشكره، هذه أفضل هدية زواج، لا يوجد أفضل منها؛ تهيئة المنزل أصعب من اقتلاع الروح، وذلك لأجلك أنت فلا صبر لك لتهيئته، لو لم يتلطف بك كان عليك أن تدخر كماً كبيراً من النقود لتهيئة المنزل، لكن الآن لا يتوجب عليك حتى أن تفكر به، أذهب أشكر الله!

عندما تسمع سميرة اسم الله، كما لو أنها تذكرت شيئاً، يبدو أنها شعرت بالشبع فجأة فتشكر الله، ثم ترفع صحنها وتذهب.

تفكر أمي بتصرفها، ثم تنظر إلى أبي نظرة لكنها لم تقل شيئاً، ثلاثتنا ننشغل بالأكل مرة أخرى.

بعد العشاء عندما أذهب إلى غرفتي يسحبني صوت أمي بلا إرادة فجأة نحوها هي وسميرة التي يبدو أنها تخاطبها، غرفة سميرة كانت يوماً ما تتعلق بأخي، مقابل غرفتي تقريباً، أقترب بهدوء من غرفتي قاصداً الذهاب، أعبر من شق الباب، لكني أتوقف خلفه، في صمت الليل والممر البارد نسبياً أسمع أمي تقول لسميرة: كل عمل له وقت، قلت لك مئة مرة لا تتظاهري أمام يونس إلى هذا الحد، لماذا لا تسمعين؟ نسيتِ ماذا حل بنا؟ بدء من هذه الأعمال، هكذا نهضتِ وذهبتِ، كما لو أن شخصا أرسل خلفكِ، كفى سميرة! صليت كثيراً، على ماذا حصلت؟ صليت صلاتك اليومية، يكفي هذا، أنت تثيرينه، في النهاية بعملك هذا تعجلين بموتي.

تقول سميرة بصوت مرتجف: هذا ليس عملاً سيئاً، البنات يجلسن ويغتبن، إذا لم أقم بهذا العمل أضطر أن أغتاب الآخرين.

حينئذٍ غضبت أمي وخرج صوتها فجأة من خلال شق الباب:

- تغتابين أفضل من أن تتظاهري.
- أنا لا أتظاهر.
- إذن ماذا تفعلين؟ كلما رأيتك إما تصلين وإما تدعين، أصبحت كسولة أيضاً؛ أتحفرين جبلاً حتى تنامي كل هذا النوم؟ بالنهاية ستجعلينني أجن... نسيت ما حل بنا؟

يطول صمتها وأنا أضطرب داخل غرفتي، أغلق الباب بهدوء وصدري مملوء بهواء غامض ومخيف. هل ما قد سمعته صحيحا؟ علامَ تتكلم أمي؟ ما الذي حل بهم؟ لماذا عبادة وخلوة سميرة تزعجها؟ أنا أؤمن أن سميرة لا تتظاهر، لكن أمي تتحدث عن التظاهر والرياء؛ كلمات شيطانية لم يتلوث بهم قلب سميرة على الإطلاق. الغريب أنني لم أتضايق قطّ من دعاء وعبادة سميرة، بالرغم من أنني لا أرى أيضاً في نفسي رغبة كبيرة في هذا العمل، لا أعلم لماذا تريد أمي منها ألا تتظاهر أمامي؛ هل تظن أن صلاة ودعاء سميرة يضايقني؟

كم كانت ليلة البارحة صعبة؛ مضت كلها في أفكار وأوهام وغموض ممل. قد ابتليت مرة أخرى بمشقة فكرة غير مفيدة؛ لأن تلك الصورة المخفية التي كانت قد عُرِضت في قالب الحقيقة قد سخرت تفكيري مجدداً، قلت في نفسي: لما أنا لا أذكر من الماضي حادثة أو مغامرة؟ أنا أعرف أبي، كذلك أمي، أخي وسميرة. أعتقد أنهم قد كانوا دائماً في قربي، لكن لا أذكر

شيئاً عن الماضي. هل من الممكن أنه لم تقع أي حادثة جديرة بالذكر في تلك السنين البعيدة؟ حتى مذكراتي لا تستطيع أن تساعدني في هذا الأمر؛ فقد بدأت كتابة خواطري منذ سنتين تقريباً.

قطعة الغيم السوداء تسحب ستارتها الداكنة أمام القمر المضيء، عندها أراجع أفكاري ثانية: من الرجل المقدس ولماذا لا يتركني؟ هل من الممكن أن علاقة نشأت بينه وبين ذلك الشاب الخائب الذي يشبهني؟ ربما كان أخي التوءَم. لو هذه حقيقة، إذن كيف نسيتها؟

ما الحقيقة التي قد أخفاها هؤلاء عني؟ وهل في الأصل قد صيغت من قبل حكاية "مأدبة الموت" أو أنها قد كانت مصادفة لا أكثر؟ حقا هل أنا قادر أن أمتلك حياة سعيدة مع رُخساره بوجود هذه الأفكار الغامضة والملأى بالأسرار؟

لكن القدر المسلّم به هو أنه ينبغي لي سريعاً أن أتحرر من هذه الأفكار المعذبة، لهذا قررت أن أتحرر سريعاً من شر حكاية الرجل المقدس، وإذا لم تتضح لي حقيقة هذه الأفكار يوماً ما فالأفضل أن أنساهم.

أعتقد أحياناً أنني إذا لم أفكر كثيراً بالموضوع، أنساه رويداً رويداً ثم لا أذكره أبداً. يوماً ما سألت صاحب عملي عن هذا المعنى، لكنه استغرب كلامي هذا، فهو يتذكر أدق تفاصيل أحداث حياته من سنين طويلة؛ وحاول أن يفهمني أن ذاكرته قد ضعفت حتى لا أتضايق، فأنا لست قادراً أن أحفظ في ذاكرتي موضوعاً لوقت طويل.

تتحدث سميرة أيضاً أحياناً عن ذكريات طفولتها، لكنني لا أذكر تلك المرحلة بالرغم من أنني أشعر بلا شك أو تردد أننا قد قضينا تلك

الأيام والسنين جنباً إلى جنب، لو يمكن ألا أفكر بهذه المواضيع على الأقل كم سيكون أمراً جيداً، حينئذٍ تنسى هذه المواضيع بسهولة، ولا تخطر على بالي مطلقاً. لكن لا يمكن؛ تخطر كما لو أن كل واحدة من هذه الأفكار لها روح مستقلة، ويعملن بدعوة من شعورهن، كل واحدة من هذه التصورات والأفكار تشغل فكري في وقت محدد دون أن أريد ذلك، وبعد أن تترك أثرها في نفسي، تزحف إلى زاوية في داخلي لوقت محدد آخر.

قد جربت هذا المعنى الغريب مراراً السنتين الأخيرتين؛ يذهب هذا التفكير العنيد، ويتقدم ذاك الآخر المملوء بالأسرار، لكن لا يوجد أي شخص حتى يهدني نحو حقيقتهم!

تحاول سميرة منذ تلك الليلة فصاعداً أن تتعبد الله بعيداً عن عيني؛ كما لو أن الله لا يتعلق بي وليس له أي علاقة بي أو أن رؤية هذه المشاهد مضرة لي.

أذكر أنه غداة تلك الليلة كانت سميرة مشغولة بتعبد الله، القبلة في منزلنا باتجاه النافذة والسماء مليئة بالنجوم، هي كانت مستغرقة، لكن ومع هذا صوت الباب جعلها تنتبه إلى، وفجأة نهضت مسرعة من مكانها وجمعت سجادتها وقالت: نسيت مطلقاً. أمي تريدني.

فتحت الباب أكثر ومرت من قربي كالظل، ذهبت وجلست قرب أبي وأمي اللذين كانا يفكران بحياتي، سميرة كانت تراقبني حتى من خلال شق باب غرفة الجلوس، حينئذ أغلقت الباب بهدوء، وحل الصمت مرة أخرى في الممر.

-٥-

ثلاثة أيام كاملة لم أفتح مأدبة الموت؛ لأنه من الضروري أن يُزَال الغبار من بين الأقفاص والكتب. صاحب العمل لا يتحسس من الغبار ولذلك لا يشدد على هذا العمل؛ يُنجَزُ هذا العمل بمزاج عالٍ؛ لأنني أريد أن أقتل الوقت اليوم أيضاً، فلا مزاج لي على الإطلاق لإنجاز توصية صاحب العمل. اتجهت كل حواسي إلى ليلة الجمعة. أَعُدّ اللحظات لسماع كلام أبيها وأمها ورؤية رُخساره، أظن أنهم في تلك الليلة سيقولون آخر كلامهم.

حلت في النهاية ليلة الجمعة، دُعِيَ والد رُخساره مع زوجته وأبنائه الأربعة (بنتان وصبيان)، جميعنا جنباً إلى جنب.

والدة رُخساره أحضرت هدية لأمي قطعة قماش موردة جميلة، وبعد عدة أيام هي أيضا تعطيها إلى زوجة ابنها نرجس لأنها لم تعجب برسمها ولون أرضيتها، ونرجس تقبل الهدية بكل سرور وبرغبة عارمة.

حتى بعد تناول العشاء لا أحد يتكلم حول تاريخ الزواج والمسائل المرتبطة به، لكن نظراتنا أنا ورُخساره تتحدث الأحاديث التي نتكلم حولها دائماً في خلوتنا، سميرة تراقبني من باب الفضول لا من باب الرغبة والآمال الشيطانية.

الليلة أكثر من الليالي السابقة قد أصبحت مطيعة لأمي؛ كل ما تقوله أمي تنجزه على الفور. ورُخساره تسرع أيضاً لمساعدتها، لكن عندما ينهي أبوها شرب كأس الشاي الأول تذهب أمي مباشرة إلى رُخساره وبلا مقدمات تبرز كرهها لدراسة الفتيات، ورُخساره تحدق بي في هذه الأوقات الصعبة وقد أخذت على خاطرها، لكنها صمتت ليقرر أبوها بدلاً منها، ثم يحين دور أبي ليحاول من خلال كلامه أن يفهم والد رُخساره وأمها أنه لا يجب أن نتأخر أكثر من هذا، ولا سبب لنصبر أربعة أو خمسة أشهر أخرى.

أنا ألتزم الصمت، فأنا أؤيد نظر والدي. عندما تراني أمي تقول:

- الكلام الأخير هو أنه من الأفضل أن نضع يده بيدها خلال هذا الشهر ليرتاح بالنا جميعاً.

يقول أبي أيضاً: هذا صحيح؛ الآنسة رُخساره تريد أن تترك دراستها وتدريبها بعد خمسة أشهر، وتصبح عروساً، لماذا لا تفعل هذا الآن؟ أليس أفضل؟

تلتفت أمي إلى رُخساره وتقول: ما الفائدة لتتحملي كل هذه المشقة؟ تؤذين عينيك؟ هل حصلت على روحك من هذا الطريق؟ أيضاً؟ في النهاية ما العاقبة؟ درست كل هذا، هل حصلت على فائدة؟ لا شيء. فقط تتعبين نفسك؟

بعد أن نشكر أنا وأبي والد رُخساره عدة مرات لأنه حل مشكلة المسكن، تنتهي جلستنا أخيراً، لكن رُخساره تفضل بعناد وإلحاح أن تنهي دراستها، ورأي أبيها وأمها تقريباً كذلك مع اختلاف أن والد رُخساره يحاول حين المغادرة أن يرى البسمة على شفاهنا جميعاً.

وهذا ما يحصل أيضاً، لكن أمي تضحك مجبرة، وفي مقابل ذلك بعد أن يذهبوا تتذمر ساعتين كاملتين حتى يصيبها الصداع، وتحضن الوسادة مجبرة، وتحرك نفسها وهي متضايقة لأن التخطيط لم يعط نتيجة.

لكن تقول لنا بعد وقت ليس بقليل: إذا نجحت تلك الليلة أن تنام ساعتين أو ثلاث ساعات فبسبب والد رُخساره الذي أراح بالها بفعله الحسن، وتعترف كلما أصابها الصداع أو غضبت تقلل فكرة أن ابنها لا يعاني أبداً مشكلة تهيئة المسكن من ألم رأسها أو تودع غضبها إلى السكينة المؤقتة.

على أي حال حقيقة أنا متضايق أيضاً وإلى آخر الليل وبعد محاولتي أن أودع ألم رأس أمي إلى ذاكرة النسيان، أذكر رُخساره حزيناً. ومع هذا لن يؤدي هذا الموضوع إلى نقصان رغبتي التي تزداد يوماً بعد يوم برُخساره. أفكر في كل حال كيف يمكنني رؤية رُخساره بلباس العرس مرتاح البال طالما لم أكتب حكاية الرجل المسحور؟

كم هو مثير للدهشة! ففي كل مرة يحدث أمر يتعلق بي أفكر بحساب القدر الدقيق كيف يُنجز كل عمل في وقته. كما لو أن القدر قد سجل ألا يتم هذا الزواج طالما لم أتحرر من هذه الأفكار المتشابكة، وأنا أفكر أن انتهاء دراسة رُخساره ليست أكثر من حجة؛ فالقدر كان قد تكلم بلسان رُخساره.

يمضي يوم الجمعة أيضاً ومن غداة هذا اليوم الممل تفرش مجدداً مأدبة الموت بأمر من صاحب عملي لتظهر الأرواح المسلوبة مرة أخرى. يأخذ صاحب العمل ما كتبت حول هذا الموضوع منذ لحظة دخوله وبلا أي كلام يجلس خلف طاولة عمله ويطالعهم. أحياناً أسترق النظر إليه لأرى هل هو

راضٍ عما كتبت أم لا. لكني لا أرى أي تغيير في وجهه ونظرته. فقط يحرك رأسه تبعاً لملاحقة عيناه السطور سطراً سطراً، ويكرر مرة أخرى حركته من جديد، وأنا أسير وأتجول في برزخ الحوادث ومرج الموت هذا: "توفي واختفى ثمانية أشخاص بسبب انهيار الجليد"، "لقي ثمانية وستون راكباً حتفهم إثر سقوط طائرة"، " كشف سر جريمة"، "إعدام قاتلين"، "توفي مئة وثمانية أشخاص إثر موجة البرد"، "أودى الفيضان بحياة سبعة وخمسين شخصاً"، "أودى انهيار الجدار بحياة ستة أطفال"، "قتل رجل في الخامسة والأربعين من عمره نفسه"، "لقي خمسة ركاب مصرعهم غرقاً إثر سقوط سيارة في نهر كر فارس"، "كلاب مفترسة تعود ملكيتها لشخص ثري تنقض على عامل وتمزقه إرباً"، "وجدت جثة رجل مجهول الهوية في قلعة هاشم آباد"، "عوقب قاتل بجريمة قتل صديقه في مكان ارتكاب الجريمة"، "في النهاية كشف سر جريمة مخيفة"، " أصيب سبعة عشر شخصاً بحريق"، "خلّف حريق في سفينة هندية خمسين قتيلاً"، "التهمت ثمانية عشر كلباً جائعاً صاحبها الذي كان في الثمانين من عمره".

غريب جدّاً! دون رغبة مني أكتب للمرة الثالثة هذه الجملة المخيفة. لكن قلمي قد علق في الجاذبية القاتلة لهذا الموت المثير للحزن، يدي ترتجف دون رغبة وأنا أحدق في صف الكتب حائراً من فعل هذه الكلاب الوقحة. أظن لو أنه من المفروض أن نتأسف على ميت فهذا الرجل العجوز يستحق الشفقة أكثر من غيره؛ كلاب جشعة وخائنة كيف قبلت أن تُجلس ولي نعمتها على مأدبة الموت، وتتناول جسده الهزيل لحماً وعظماً؟؟ هل أصيبت الكلاب بالجنون المؤقت، أو من باب الغضب أرادت أن تنتقم من الرجل

العجوز بسبب سلوكه العنيف؟ يا له من موت مثير للحزن! هل فكر ذلك الرجل العجوز للحظة في كل سنين عمره الطويلة أن تبتلع الكلاب كل وجوده بهذه الطريقة المذلة والمؤسفة؟ أي لحظة وأي لغة كانت قادرة أن تفهمه هذه الحقيقة المؤكدة؟ قد تذوقوا هذا المصير اللاذع والعنيف لمدة مديدة إلى أن حل وقته، وحقاً كيف كان الرجل العجوز ينام تلك الليالي فارغ البال؟ حتى انتظره هكذا مصير؟

لا، لا أستطيع أن أتخلص بسهولة من التفكير بهذا الموت المثير للرحمة؛ أذهب خلفه ثانية حتى أرى لماذا سلبت الكلاب حياة مالكها، أتصفح وأجد تلك الصفحة الكريهة والمحزنة، ومن نظرة أولى أفهم خطأي؛ ذاك الشخص الذي أُكِلَ من قبل الكلاب كان امرأة عجوزاً، وليس رجلاً.

جاء في الخبر: قلق الجيران من غياب هذه المرأة العجوز التي كانت تدعى ماريان وأعلموا الشرطة بالموضوع، والشرطة حين تجدها لا يكون قد تبقى من جثتها إلا القليل من العظام؛ ابتلع الكلاب المرأة العجوز في مطبخها، المكان نفسه الذي كانت تطبخ فيه العجوز كائنات أخرى لسنين عديدة وتأكل وتحضر لكلابها العزيزة عليها الطعام.

في النهاية تشير التحريات إلى أن الكلاب منذ فترة سابقة قد أصيبت بسوء التغذية وقد رضخت في النهاية لالتهام صاحبتها!

لا يتحرر تفكيري من هذه الحكاية المؤلمة حتى يأتي صاحب عملي باتجاهي حاملاً شيئاً في يده، أنهض وأقف، أرى كتاباتي على ورق كرتون في يده، يضع الكرتون على الطاولة ويعطيني الكتابات ويقول لي: تعال، جيد، تابع بالطريقة نفسها، جيد جدّاً.

ثم مسح بيده على العلبة وهكذا تابع: أنهيت تلك الصحف، استفد من هذه.

- يوجد أيضاً.
- لا. لماذا؟
- لا شيء أسأل فقط.
- الآن وإلى أجل غير مسمى لديك عمل يستغرق الكثير، لو أردت إنهاءه ربما يستغرق عدة أشهر، من الممكن أن تكون هذه الكمية كافية، وربما لا أيضاً، لا تفكر به؛ فقط تابع عملك بالطريقة نفسها...أعجبني!

وأنا أرى الكلاب المفترسة قد هجمت على المرأة العجوز، أحمل قلمي مرة ثانية وأذهب خلف موت آخر.

تنفصل أفكاري عن بعضها وكل واحدة تشغل فكري بطريقة خاصة بها؛ أنا أعيش في حلم الحصول على حياة سعيدة، لكن لم أفهم لماذا لم أستوعب تفاصيل موت الناس الذين ربما لم تقع قطّ أعيننا على بعضهم ولو لمرة واحدة؟ لماذا يجب أن أجلس وأشرح كيفية موت ناس لم أرَ فرحهم ولا ألمهم ولا مشقتهم؟ وذلك أيضاً بأمر من شخص يبدو لي أن الشيء الوحيد الذي لم يفكر به هو الموت؟ هل يمكن عدم التفكير بهذه المعاني الغريبة التي تشبه الأسرار؟ هل كان من المقدر أن تشرح كيفية موت الناس الغرباء عن بعضهم البعض بواسطة قلمي وتفكيري؟ الشفقة على تلك العجوز المسكينة، أو ذاك الشاب العامل الذي كان قد قطع إرباً بواسطة كلاب مفترسة تعود ملكيتها لشخص ثري، أو أولئك العاجزين الذين قد لقوا حتفهم إثر موجة البرد، أي تأثير يمكن أن يتركوه في تفكيري؟ هل من الضروري أن يرتسم موتهم في ذهني؟

نعم. الانشغال بموت وعاقبة الآخرين الحزينة قد وضح لي حقيقة أخرى؛ تصورت قبل هذا أن هذا النوع من الأمور يبعدني عن هدفي، لكني الآن تأكدت من أن الجلوس على مأدبة الموت هذه أدى إلى أن أرغب أكثر برُخساره! قد اشتدت محبتي لها أكثر من قبل، منذ وقت ليس ببعيد كنت لا أفكر بها كثيراً، كنت أعلم أنه من المفروض أن أتزوج بها يوماً ما، لكن الآن ارتبط وجودي بمفهوم عشقها، لا أعلم قد يغافلني الموت فجأة أنا أو هي، وهذا ما أدى إلى أن أتعجل عشقها، لكن هل أستطيع أنا أن أعبر عن عشقي؟ كيف أستطيع أن أقنع أبي وأمي أنني أقلق عليها؟ من ناحية أخرى ما أزال عالقاً في فخ الرجل المسحور والأغرب أن عشقي لرُخساره والغرق في حكايات موت الآخرين كلاهما لم يستطع أن يبعد الرجل المقدس عن تفكيري وخيالي؛ قد أصبح بلا شك جزءاً من روحي، قد ارتبط فكري وخيالي بذكره ووجوده المملوء بالأسرار ارتباطاً عميقاً ومتيناً. أنا أشعر هذا المعنى بشكل جيد. إلى جانب ذكر رُخساره قد رغبت أكثر بأن أكتب المصير المحير لذلك الرجل الغريب والنادر.

-٦-

تجولت في حقل موت أشخاص مجهولين شهراً كاملاً، الآن أضع قدمي على ساحل الحياة مرة أخرى، نتج عن هذا العمل الشاق كومة كتابات. في اليوم الذي تحررت من هذه الهواجس القاتلة، يأتي صاحب عملي خلفي ويقول: انتهيت مبكراً! أصبح كثيراً أيضاً! كل هذا كتبت؟ يلمس الكتابات ويزنها بيده، ثم جعلها بصعوبة داخل حقيبة يده، وأغلق الحقيبة. الآن أستطيع أن أرى جيداً بريق الرضا والفرح في عينيه.

- وجد شخصاً مستعداً أن يعطي مقابل هذه الكتابات مالاً جيداً.
- جيد! لكن كان من المقرر أن تطبعه أنت.

يجلس أمامي:

- هذا أفضل. ربحه أكثر أيضاً.
- لا تعلم ماذا يريد أن يفعل به؟
- هل يفيد بشيء غير المطالعة؟ ربما يرغب أن يطبعه هو، لكن ليس مهماً، لا علاقة لنا.

ثم يضع يده في جيبه ويخرج قبضة من العملة الورقية ويقول: بالتأكيد تعبت كثيراً، لكنك أنجزت عملاً استثنائياً، تعال، خذ هذا حتى وقت لاحق، كل ما يصلني من رفيقي نأخذه مناصفة، جيد؟

أخذت المال بحماس وبهجة وشكرته، وبينما كنت أفكر في كلامه كرره ثانية:

- كل ما آخذه مقابل هذا العمل نأخذه مناصفة، جيد؟ هل أنت موافق أم لا؟

- إذن ما هذا؟ أليس هذا المال هو أجرة عملي هذا؟

- نعم، لكن هذا قسم من أجرتك، قد عرض رفيقي رقماً كبيراً؛ مئة ألف تومان. حساب المال الذي أعطيتك إياه موجود لدي، هذه عشرون ألف تومان، عدها جيداً إلى أن يصلك الباقي.

يغرق في التفكير لحظة ثم يحدق بي ويقول: هل كنت تفكر أن تنجز عملاً كهذا يوما ما؟ دنيا غريبة. هؤلاء من كانوا حتى ماتوا وذهبوا، لكن الآن أنا وأنت نستفيد منهم؟!

بعدها يقول كلاماً أغرب، يقف كي يذهب، لكن يبتسم ويقول: حكاية تلك المرأة التي أحرقت زوجها؟ تذكرها؟ أو أولئك الذين غرقوا في النهر؟ أو الشاب الذي أصبح عاشقاً لكن لأنهم لم يعطوه الفتاة قتل نفسه، انظر؟ أتذكر؟

- نعم أذكر.

- نعم، لكن اعلم، لو لم يكن هؤلاء ماتوا بهذا الشكل، ما كنا استفدنا من مقابلتهم قطّ! المساكين لم يكن أحد منهم يعلم أي مصير ينتظره؛ ماتوا وذهبوا كلهم. من كان يفكر أن نستفيد أنا وأنت يوماً ما من تعاسة هؤلاء؟ لكن لا عليك أن تتضايق؛ ما ارتكبنا ذنباً لأجل هذا ولسنا سبب موتهم، أخذنا فقط أجرة ذكائنا ليس أكثر.

يجب أن أسلم رفيقي الكتابات، لو تعلم كم هو متلهف لها، لن تصدق. حسنا الآن، انتبه! سأعود بسرعة.

عندما يبتعد صاحب العمل عن المحل، أبدأ بعد العملة الورقية؛ عشرون ألف تومان نقداً، أضعهم في جيب معطفي.

يخرج التعب من جسدي، أستنشق نفساً مريحاً، لكني مع هذا ما أزال قلقاً أن يوكل لي هذا العمل مرة أخرى، لا قدر الله، لا مزاج لي؛ فعشق رُخساره والتفكير حول الرجل المسحور لا يدعانني وشأني.

عند الغروب أدخل محل صياغة وأشتري سواراً من الذهب لرُخساره.

أعد اللحظات لرؤيتها مرة أخرى، لن أدع أمي تعرف شيئاً عن فعلي هذا؛ لأني أعتقد أن النساء غيورات، وقد تنزعج أمي من فعلي هذا. مع أنه أعلم أن محبتي لرُخساره قد أسعدتها.

غداً عصراً أذهب إلى منزلهم وأقدم لها علبة السوار، تبتسم فتسلب العقل من رأسي وتتحمس مرة أخرى فتفتحها وتنظر إلى بطريقة أستطيع أنا من خلالها أن أقرأ العشق في عينيها، تلبس السوار في يدها. أتمنى أن تعود عن قرارها وتقبل الزواج هذا الشهر، لكنها تقول: يونس! تأكد عندما تنتهي دراستي، لن أصبر حتى أسبوعاً واحداً!

بعد هذا الكلام، أنظر إلى عينيها وشفتيها الضاحكتين، تشتعل نار عشقها في قلبي أكثر. أمها خلف رأسها كما لو أنها تراقبنا، تتقدم فجأة وترحب بي، أريد أن أذهب لكن لا أستطيع، هي أيضاً فهمت أن علاقتي بها قد ترسخت؛ تدرك شعوري بشكل جيد، لهذا تحول دون ذهابي وأنا الذي كنت أتمنى أن أبقى جانبها، في النهاية بطلب من أبيها أتناول العشاء معهم.

ما هذا العشاء؟ تفوح منه رائحة رُخساره! عيناي في عينيها، ومع البسمة نضع اللقمة في الفم. هذه الليلة عظيمة بالنسبة إليها، لكني أحترق من عشقها ولا أتكلم.

أنفصل عنها بصعوبة آخر الليل، وأطوي الطريق كله مشياً وأنا أتذكرها، يفوح كل شيء برائحتها؛ الأزقة، الشوارع، الساحات، وأفكر كيف وصل فجأة هذا العشق دون أن أريد ذلك والآن قد سخر لنفسه كل فكري وخيالي. لكن لو يسمح الرجل المسحور، لاستطعت أن أغرق في ذكر رُخساره ساعات، وأشعر في كل كياني بمعنى العشق.

ذلك الرجل المقدس المتعلق بالله ولا يغفل عنه لحظة، ماذا يريد مني؟ ما هذا الإحساس الذي يفهمني أنه يجب أن أكتب حكايته؟ هل إذا فعلت هذا ينكسر هذا السحر الغريب؟

-٧-

لا يوجد شخص غير سميرة يفهم كلامي جيدا. هي لا تفشي سري أبداً. نحن نفهم بعضنا جيداً والكلام الذي لا ينبغي أن يصل إلى آذان الآخرين يناقشه بعضنا مع بعض، لكن بالرغم من هذا أشعر أنها قد أخفت حقيقة ما أعني؛ أقرأ هذا المعنى في بريق عينيها السوداوين، لكن هذا لا يمنعني عن أن أتحدث معها عن علاقتي المتينة برُخساره؛ فأشرح لها شعوري حتى أقول: إنه بالمال الذي جنيته اشتريت لأجلها سواراً.

- بالتأكيد جميل جدّاً.
- كنت أعلم أنك لن تنزعجي، لكن أعدك أن أشتري لكِ أيضاً.
- لا، أنا لا أريد. أنت الآن عليك أن تفكر برُخساره. بعد مدة سوف تتزوجان. أمي تنتظر هذا، اشتد صداعها. تقول: أخاف ألا يتم هذا العرس.
- لماذا؟
- لا أعلم. دائماً قلقة. تقول: في النهاية سيحدث شيء ما. قد تندم رُخساره أيضاً.
- لا، تخطئ. نحن يحبّ بعضنا بعضاً. لا شيء يمكن أن يمنع عرسنا. تأكدي.
- أعلم. لكن ليس بيدها. ما إن تشم رائحة حتى تتخيل وتفكر ويصيبها الصداع. ليلة ما قبل ليلة البارحة، كانت تتناول المسكّن مراراً، لكن كما لو أنها لم تكن تتناول. كانت تقول: "يفوح من جسد يونس رائحة غريبة" كان قد آلمها رأسها من هذه الرائحة حتى الصباح.

- ماذا فعلت؟ كنت قد وضعت عطراً؟
- لا. أي رائحة؟ لم أضع شيئاً على نفسي. كنت ككل ليلة.
- بالتأكيد الرائحة كانت من مكان آخر. لا أعلم. أنا تعبت. حين تصاب بالصداع، أنا أيضاً لا أستطيع أن أنام. يجب أن أجالسها لحظة بلحظة، حتى يصمت صداعها. بعض الليالي نبقى مستيقظتين حتى الصباح.
- ما إن تتكلم سميرة على النوم حتى أفكر بالملاك الذي تقابله أغلب الليالي في الحلم. أقول: سميرة! اسألي صديقتك ماذا يجب أن أفعل؟
- من صديقتي؟
- تلك الملاك التي ترينها في النوم.
- ماذا أسألها؟
- اسأليها، ماذا ينبغي لي أن أفعل؟ كم يجب أن أصبر؟
- تصبر لماذا؟ من أجل العرس؟
- نعم.
- جيد، واضح؛ عندما تنتهي دراسة رُخساره تتزوجان.
- أعلم. لكن أرغب أن تسألي؟
- لا أعلم تجيب أم لا. لكن لا تتكلم أبداً على الأسئلة التي جوابها واضح. سألتها ذات مرة: "من الممكن أن تحمل أمي مرة أخرى؟" قالت: "أنت تعلمين." أعتقد أنها تضايقت قليلاً من كلامي. يجب أن أسألها أسئلة لا نعلم جوابها، مثلاً كم ولداً يرزق الله يوسف ونرجس؟ أو مثلاً متى يهطل المطر؟ أو السنة القادمة من يموت ومن يبقى حياً؟

مهما تشرح، أكرر كلامي مجدداً. تقبل سميرة مضطرة أيضاً. وتخاف فقط من أن تزعج منها الملاك وألا تعود أبداً.

ما كنت أريد أن أقول نيتي الحقيقية، لكن متأكد أن الملاك سوف تفهم جيداً المعنى الواقعي والخفي لكلامي. على حد قول سميرة هم يعرفوننا أكثر ما نعرف أنفسنا.

أرغب أن تمحو وتخفي الملاك الغيبية بالجملة التي تقولها كل المجهولات التي تقيد تفكيري أو توضح سرهم. بالرغم من أن سميرة كتومة جدّاً، لا أنوي أن أتحدث صراحة معها حول بعض الأشياء، أصر على أن أصل إلى حقائق ما حولي دون أن ألفت نظرها. لا. في الحال الحاضر لا أستطيع أن أتحدث مع سميرة حول الرجل المسحور. علي أيّ حال الزمن لديه ألاعيب كثيرة.

إذا نجحت بكتابة هذه الحكاية الغريبة سأنساه، لا حاجة بعدها أبداً لأن أتكلم على هذا الموضوع مع أحد. ثانياً ما الذي يشير إلى أن هناك علاقة بين عائلتي وذلك الرجل المسحور؟ هذا خيالي فقط؛ وأظن أنه يرتبط بي أكثر من أي شيء آخر.

من ناحية أخرى لماذا يجب أن أتصور أن ما يخفيه أهل المنزل عني يتعلق بذلك الرجل؟ لا. الأفضل أن أفكر بطريقة أخرى. ربما أدت هذه التصورات والأفكار غير المنطقية إلى ألا أنجح حتى الآن في اكتشاف الحقيقة. مع هذا سميرة سندي الأخير والأكثر أمانة. حتى لو رأيت يوماً ما أنه من الضروري أن أتكلم معها حول أي شيء، متأكد أنها لن تفشيَ سري أبداً.

مضت ساعة بعد نصف الليل وأنا إلى الآن مستيقظ. القوة السحرية والجاذبة للنوم التي تخطفني منذ أوائل الليل، الليلة فقدت تأثيرها؛ وكما لو

أنها نسيت أن تسكب الخميرة السحرية في روحي. الليلة غريبة؛ لأنه في الغرفة المقابلة قد خلت سميرة في دنياها الخيالية بملاكها الغيبي الذي على حد قولها يشبه السماء والبحر الأزرق. هل الملاك مطلع على أسرار حياتي، هل سيجيبني؟ هل من الممكن أن تنساني سميرة؟

كم هو مثير للحيرة؟ في ساعات نصف الليل هذا أفكر في الأشياء التي تبدو لي من ناحية أنها ترتبط بي، ومن ناحية أخرى ليس أي منها في متناول يدي، رُخساره التي قد أصبحت كل حياتي والرجل المسحور الذي يحيى في زاوية خفية في وجودي، وخلوة سميرة المقدسة مع الملاك في هذه الليلة الممطرة.

لو أني حقاً فقدت قوة ذاكرتي، قد أنسى يوماً ما رُخساره والرجل المجهول أيضاً، لكن في حياتي لا يوجد شيء حي أكثر من هذين الشخصين مع صوت الرعد الذي يهز كياني يسكن الخوف روحي. أنهض وأفتح النافذة، يهطل المطر بغزارة. مرة أخرى يُظهر لي البرق الطائر، الجدران والمنازل كأشباح أمام عيني، أفكر في نفسي، في أي مكان في هذه السماء وهذه الأرض الغارقة بالمطر العارم تقابل سميرة ملاكها الغيبية؟

لا يصل تفكيري إلى نتيجة؛ أراوح في مكاني حائراً، ماذا سيحدث غداً؟ هل أشرع بحكاية ذلك الرجل المقدس، أو يجب أن أصبر عدة أيام أيضاً حتى يرتاح بالي من ناحية صاحب عملي. أخاف دائماً من هذا. لا أريد عندما أبدأ العمل أن أجد عقبة في بداية طريقي.

هذه الصورة تزعجني، لو لم تكن قصة الرجل المسحور كعقبة مزعجة في بداية طريقي -أقول بجرأة- لكنت قبلت بكل سرور بأي عمل كان يقترحه؛ لأنه لا يوجد أي سبب لأصرف النظر عن منفعته المادية.

على الأخص رُخساره تسخر كل حياتي لها، وأرغب أن أزينها بكل حلي الدنيا بالمال الذي أجنيه حتى أمتلك قلبها وروحها بالكامل.

منذ عدة لحظات وصل إلى مسامعي صوت من الفناء، لا أعلم لماذا أشعر أن هذا الصوت الخافت يرتبط بي بطريقة ما كما لو أن شخصاً قد نادني.

أنهض مع أني مطمئن من أنه ليس سارقاً، لكن لا أعلم لماذا أرتعب! أشعل الضوء، تنار الغرفة، أذهب باتجاه النافذة وأفتحها بهدوء، توقف المطر والغيم الرمادي يبتعد بسرعة، أنظر جيداً إلى زوايا الفناء وجوانبه، لا يوجد شيء وكأن الصوت قد وصل إلى مسامعي من خلف جدار منزلنا.

أتراجع وقبل أن أغلق النافذة يقع نظري على عدة نملات كانت تعبر بهدوء من أسفل النافذة، أنظر إليها بدهشة، أتابع مسيرها بعيني، حتى أجد ثقب عشها.

لم أرَ قطُّ من قبل نملة في حال العبور ليلاً، أتذكر هجوم النمل على كومة التراب وذرات السكر تلك، يؤدي هذا التصور إلى أن أترك النافذة مفتوحة وأفتح الدرج وآخذ من السكرية عدد من حبات السكر.

أقترب مرة أخرى من النافذة، أنحني قليلا ثم أذرّ حبات السكر بهدوء، وأضعها في جانب عش النمل، ودون انتظار أذهب وأطفئ الضوء، وأخلد إلى فراش النوم ثانية.

مرة أخرى يلطم نسيم بارد داخل من فتحة النافذة وجهي، وأذكر سميرة وملاكها الغيبية ثانية، رُخساره أيضا تركض بدلال فتان في خيالي، في ذلك الوقت يظهر الرجل المسحور أمام خيالي كشبح مندهش وهو في حال التحديق بالسماء الشاسعة والنجوم المذهلة...

-٨-

يوقظني صوت سميرة قبل طلوع الشمس، جسدي مخدر وعيناي مظلمتان، يرتسم وجهها المضطرب والقلق أمام عيني رويداً رويداً، أتذكر الملاك الغيبية، وفجأة يذهب سحر النوم، وتزول دوخته من عيني كما لو أنه طائر يرفرف ويطير من وسط جسدي وروحي.

تنهض سميرة ومن خلال الباب تنظر إلى الممر، وتعود مرة أخرى إلى جانبي.

- ماذا حدث؟ من أي شيء تخافين؟
- لا شيء، لا أريد أن تعلم أمي، تعدني ألا تتكلم؟
- أعدك؛ تعرفينني جيداً، إذن لماذا أنت قلقة؟
- لا. لست قلقة.

عادت مرة أخرى باتجاه الباب ثم قالت على عجلة: أنا تحدثت معها.

- حقا تقولين؟
- نعم. بصدق.
- جيد ماذا قلت لها؟
- قلت لها: إذا سألتك سؤالاً تجيبينني؟ نظرت إليّ قليلاً وقالت: "أسألي كل ما تريدين سؤاله، أنت حرة"، لم أفهم مبتغاها؛ لماذا أنا حرة؟
- جيد. قولي، أي سؤال تسألينه سأجيبك عنه.

- سألتها: متى يتزوج أخي يونس؟

حدقت بي سميرة وكأنها تسألني بنظرتها وصمتها: لماذا لم تقل لي الحقيقة؟

- جيد. قولي ماذا قالت؟
- قالت: يونس قد ذهب لكنه سيعود إلينا، لم يبقَ الكثير، قولي ليونس: لا تيأس. في النهاية سوف تجده.

مسحت بيدها على وجهها وتابعت:

- لم أفهم ماذا كانت تقول. أنصت إلى كل ما قالته، لم تقل شيئاً عن زواجك برُخساره. لا تقل لأمي!
- لا اطمئني. قولي، ماذا قالت أيضاً؟
- لا أذكر شيئاً آخر، كان هذا كل كلامها، أنا لم أفهم حول أي شيء تتحدث، ربما لم تفهم مبتغاي...

تنهض سميرة لتذهب، كنت في حال مراجعة كلام تلك الملاك الغيبية في عقلي، فجأة يعلو صوت الباب.

عندما أنظر أرى سميرة قد ذهبت وأغلقت الباب وراءها.

أفكر مرة أخرى بكلام الملاك الغيبية؛ هل صحيح ما سمعته سميرة؟ كم أستطيع أن أتكئ على هذه الجمل الغامضة والصامتة؟ مع هذا عندما أعود إلى ذاتي ومبتغاي الحقيقي أرى كلامها غير متعلق بسؤالي أيضاً! هل فهمت تلك الملاك الغيبية مبتغاي، وأرادت أن ترشدني من خلال تلك الجمل الغامضة وغير المفهومة؟ قد كان من حق سميرة أن تتعجب. الحق أن

هذا الجواب ليس له أي علاقة بسؤال سميرة، ولا يجب أن يرتبط، لأن سؤالي كان حول شيء آخر. ربما تكون قد فهمت تلك الملاك الغيبة مبتغاي، سوف يتضح لي بلا شك سر الرجل المسحور.

"قد ذهب يونس، لكنه سيعود إلينا" ما هذه الكلمات! قد دخل كلامها إلى قلبي؛ قالت كلاماً دقيقاً وعجيباً كما لو أنها تعلم أنني لا أريد أن تتطلع سميرة أيضا على سر قلبي؛ وهي أيضا لم تطرح سر قلبي حتى مع سميرة صديقتها. كم هي ملاك حافظ للأسرار حقاً!

أفكر كل اليوم بكلام تلك الملاك الملهمة في حال أن ذهاب عشق رُخساره يجعلني مضطرباً وقلقاً، لكن كما لو أنه ليس هناك معنى لهذا الإحساس لدى تلك الملاك الغيبية، وقد بينت تماماً الشيء الذي كنت طلبته.

يا له من كلام غريب! "يونس قد ذهب، لكنه سيعود إلينا، لم يبقَ الكثير، قولي ليونس لا تيأس..."

وفي اعتقادي أن هذه الكلمات تنبع من حقائق استقرت في كياني وضميري الخفي، لكنني أضعف من أن أضع يدي عليها، حتى ذاكرتي الضعيفة والناسية غير قادرة أن تعيد قول حقائق حياتي، قد فقدت قوتها في بداية الطريق، لا تستطيع أن تحتفظ بحادثة لمدة طويلة في نفسها. بلا شك يجب أن يكون كما أفكر؛ ففي غير هذا الحال يجب أن أتذكر أشياء ترتبط مباشرة بذكرياتي وماضي من هم حولي.

فقط فكرة واحدة تدفعني ألا أفكر كثيراً بهذا الموضوع وهو أني أشعر أنني منذ سنين طويلة أرى سميرة وكذلك أبا رُخساره وأمها ويوسف وعمي وزوجة عمي، وهذا بالضبط ما يمنعني من الوصول إلى الحقيقة التي

بلا شك خفية، ربما لهذا السبب لا أتذكر أي شيء، أخمن أنهم قد أخفوا عني سراً ما! لا أعلم، الملاك الغيبية لم تشر حتى إلى الرجل المسحور. هل أبدأ بحكايته أم لا؟ كما لو أنها أعطتني حرية القرار حول هذا العمل، كما لو أنني قد اتخذت قراراً صائباً؛ لأنه لو بدأت كتابة حكاية الرجل الغريب في الوقت الذي لم أدرك بعد علاقة ذلك الرجل المسحور بي سأواجه مشكلة ما.

بالتأكيد كانت إشارة الملاك الغيبية إلى هذا الموضوع، كأن كتابة هذه الحكاية في هذا الزمن ليس مؤثراً أو أن حادثة أخرى ستؤدي إلى أن أطلع على سر هذه العلاقة الغريبة.

عندما طلبت من سميرة أن تقول لتلك الملاك الغيبية "متى نتزوج؟" طلبت من الملاك الغيبية في ذهني أن تعيد لي قول حقيقة الرجل المسحور. لكن إذا اتخذت هذا القرار فمن أجل وجود رُخساره فقط؛ فلا أريد أن يشغل شيء تفكيري سوى وجودها.

الآن أطمئن بالي لأنني كنت قد سمعت كلام الملاك الغيبية على لسان سميرة، وهذا بالنسبة إلي له قيمة وقد حل في قلبي كإلهام سماوي.

سأجد أخيراً سر هذا الكلام الساحر الذي يلفت انتباهي بلا أي واسطة إلى الرجل المسحور، وهذا ما يمنحني السكينة والاطمئنان.

الآن يمكنني وأنا مرتاح البال أن أبدأ بتدوين هذا الحدث الغريب، وأن أعشق رُخساره بلا أي هاجس، يؤذيني شيء واحد فقط كالجذام، وهو أن يصل صاحب عملي ويجبرني على عمل لا أريده.

غريب، ما إن أذكره حتى يظهر؛ يدخل مباشرة المحل مع حقيبة يده ويقف أمامي وأحييه ويجيب عن تحيتي بسرور: سلام. يوم سعيد! كيف أنت؟ ما الأخبار؟

- لا جديد.
- لم يأتِ أحد للسؤال عني؟
- لا.
- لم تبع شيئاً؟
- كتاب واحد فقط.
- جيد، ليس مهماً. شربت الشاي؟
- لا انتظرت حتى تأتي.

ثم وهو ذاهب إلى جهة طاولة عمله، يتابع:

- إذن ضع الشاي لنتناوله معاً، الآن له طعم مميز، الجو بارد قليلاً في الخارج والرياح تهب باستمرار.

يجلس خلف طاولته، سعيد لأمر ما لا أعلم ما هو.

حينما أضع الإبريق على فرن الغاز يناديني صاحب عملي:

- تعال إلى هنا. أحتاج إليك.

حينما أقترب منه أنتظر أن أرى رزمة من الجرائد ستخرج فجأة من وسط طاولته، لكن عندما سحب يده وضع حزمة من العملة الورقية الجديدة أمام عيني.

يتسلل الفرح إلى أعماق قلبي، الذي خمنته كان صحيحاً:

- تعال. خذ، هذا باقي الحساب، كم أخذت مسبقاً؟
- عشرين ألف تومان.
- جيد. هذه تسعة آلاف تومان أيضاً. خذها وعدّها بشكل جيد، هكذا يصبح المبلغ تسعة وعشرين ألف تومان، انتهى.

أخذت حزمة العملة الورقية الجديدة من يده وشكرته وهو يقول: اذهب اجلس وعدها بشكل جيد. لكن لا تخرجهم.

- لا. فليطمئن بالك.
- هذا يرتبط بك؛ لكن سمعت أنك تريد أن تتزوج. أتبسم وهو يتابع:
- رأيت أباك، قال لي اعتني به، لم يتبقَ شيء كي يتزوج. حقاً يقول؟
- ثم يضحك بصوت مرتفع:
- مبارك إن شاء الله.
- الآن هناك الكثير حتى يوم الزفاف.
- ماذا يعني! يجب أن تتحضر منذ الآن. لا تبذر مالك.

أدعو أن تجد عملاً كهذا العمل؛ حينئذٍ سيزداد دخلك. لو أردت أن تنجز هذا العمل من أجلي لن يصل إلى يدك الكثير من المال؛ هذا من عند الله.

أعود نحو طاولتي. لكن أسأله: حقا! هل من المفروض أن أعمل مرة أخرى؟

- ماذا؟ تعني الحوادث؟
- نعم.
- الآن يكفي هذا، استرح قليلاً حتى يحين وقت العمل. أنا أخبرك. حقاً! يا له من اسم غريب اخترته لهذا العمل! كان قد اندهش رفيقي. سألت: "ماذا حل بك؟" قال: " مأدبة الموت، بالتأكيد مستوحى منه...".

- من أين أتيت بهذا الاسم؟ أخذته من الجرائد أو قرأته في كتاب ما؟
- لا. أنا صنعته.
- مميز جدّاً، وهذا سيؤدي إلى أن يأتي إلينا مرة أخرى! إذن أين الشاي؟
- لم يقل شيئاً آخر.
- سأل: "ما أسمه؟" قلت: "يونس"، فكر بك؛ قال: " أرغب أن أراه." كان يتحدث كثيراً عن كتابتك، أعجبته كثيراً، "إذا جاء في يومٍ ما إلى هنا اهتم به كثيراً".
- بالتأكيد.
- أذهب نحو طاولتي عملي، ثم أقول بصوت مرتفع: لم تسأل لماذا يريد هذه الكتابات؟
- لا. لا يخصنا! كان يقول: "هؤلاء الأشخاص لم يفكروا بهذا فجأة، يحصل أمر أو حادث ما ويموتون. هذا مميز وغريب جدّاً بالنسبة لي." في النتيجة أسعدناه وهو أيضا أسعدنا.

أضع حزمة العملة الورقية في أسفل درج طاولتي دون أن أعدها، وبشكل لا أرادي أردد عدة مرات اسم رُخساره.

مضت عدة ساعات من الظهر، وكما لو أن قوة مغناطيسية تجذبني نحو رُخساره؛ يطلبها كل كياني.

أدور حول منزلهم مدة لكن لا أستطيع معرفة شيء عنهم، لا أريد أن أقابلها داخل المنزل، لكن بعد مضي ساعة أضطر أن أطرق بابهم.

ومرة أخرى بطريقة مجنونة أطرق الباب، لكن لا أحد يفتح، أنطلق نحو منزلنا يأساً وحيداً وقلقاً. أذهب من خلال الأزقة عمداً كي يطول الطريق أكثر، أرغب أن أمشيَ فقط ربما أراها في زقاق ما.

في البداية أذهب إلى الأماكن التي أفترض أنني سأراها فيها، وعندما أيأس أبدأ المشي في الشوارع والأزقة الفرعية والمتداخلة، غريب! الآن للأزقة معنى آخر غير معنى مكان العبور والمرور؛ لهذه الأزقة رائحة العشق والحياة الأبدية.

تصل رائحة عطر رُخساره الجميلة الفواحة في الهواء إلى أنفي كما لو أنها قد مرت قبلي من هذه الأزقة، أحياناً أصدق أنها مرت من هذه الأزقة، ولهذا أسرع أكثر، لكن في المنعطف التالي يزول هذا الإحساس مع رائحتها العطرة، وتظهر أزقة أخرى من جديد توسع آفاق مفهومها الغريب في خيالي.

حينما أصل إلى المنزل أسمع صوت زوجة عمي من داخل الفناء تتحدث عن وحدتها، اسمها جميلة لكن ينادونها زليخا، معجب بها لا أعلم لماذا ربما لأنها غير منافقة، وتقول كل ما في قلبها دون خوف.

في لحظة دخولي ألقي التحية، زليخا زوجة عمي مشغولة بالتدخين، وحين تراني تبتسم، وتنظر إلى جيداً من أخمص قدمي حتى رأسي، وترحب بي. فجأة تنهض سميرة وتخرج من الغرفة كما لو أنها ليست نفس الفتاة التي أيقظتني من النوم في الصباح الباكر، وقرأت كلام الملاك السماوي في أذني.

أغلق الباب وأجلس بجانب أبي، أمي تصب لي كأس شاي، وتنهض على كلتا يديها لتوصله إليّ.

تقول زوجة عمي كلامها وهي ما تزال تنظر إليّ وتدخن:

ما شاء الله قد أصبح رجلاً. جيد. بالعافية.

تقول أمي: خادمك؛ يونس كابنك وهل من فرق! فأبتسم وأطأطئ رأسي.

يقول أبي: أنا أحب يونس أكثر من كل أبنائي وهو نفسه يعلم.

فجأة تغطي ستارة من الحزن والغم وجه زوجة عمي؛ حينئذٍ تلفتت إلى أبي وتقول: الله يرحم أخاك؛ أنا راضية عنه، الله يرضى عنه أيضاً.

رحمه الله هو أيضا كلما ذكرناكم كان يقول: "يونس شيء آخر، يونس يمتلك شيئاً لا يمتلكه يوسف وباقي الشباب. أنا أحبه كابني".

يمسح أبي دموعه وتتابع زوجة عمي:

- حسنا هل أنا أذكره الآن كي تبكي؟ هل يحي بالبكاء؟

يحمر وجه أمي أيضاً بسبب بكاء أبي لكن لا تتكلم وتخفض رأسها فقط، وتبدأ باقتلاع صوف السجادة، ثم تنفخ زوجة عمي نفخة في الغليون وتتابع:

يونس! صحيح أنني أريد كسب ودك كثيراً لكنني أريد أن أشكوك أيضاً.

- لماذا يا زوجة عمي؟
- ماذا تريد أن يكون غير هذا؟ حين كان عمك حياً رحمه الله كنت تزورنا مرة في الأسبوع، الآن ليس موجوداً، فهل أضعت طريق منزله، ولم تعد قادراً على إيجاده البتّة؟

- أرجو السماح زوجة عمي؛ تقولين الصدق، صدقيني مشغول جدّاً.
- أعلم وصلتني الأخبار. إن شاء الله يتم عرسك في أسرع وقت؛ أنا أدعو لك.
- لا زوجة عمي؛ مشغول بالعمل. أي عرس هذا؟

تدخل سميرة الغرفة وتذهب مباشرة وتجلس بجانب أمي، تغير وجه أمي وبالتدريج مال لونه إلى الصفار، هذه دلائل بدء الصداع، لكنها لا تريد أن تتضايق زوجة عمي؛ ولذلك تقسو على نفسها وتتظاهر بالسعادة.

تنظر سميرة إلى أمي بقلق ثم تلتفت مرة أخرى إلى زوجة عمي، يدخل أبي إلى الغرفة، تتحدث زوجة عمي بكل راحتها وحريتها، ولا تتوقف عن الحديث لحظة، لكني -بخلاف العادة- لا أنصت بسرور إلى حديثها؛ هذه المرة شارد الفكر.

تسمح لي زوجة عمي أن أترك الغرفة بعد أن أشرب كأس الشاي، وفي أثناء مغادرتي تأخذ مني وعداً أن أذهب لرؤيتها باستمرار.

حل آخر الليل وأنا على نفس الحال مشغول البال وشارد الفكر، وفجأة يعلو صوت باب الغرفة.

يفتح الباب وأرى أبي ينظر إليّ نظرة حنان واستياء، وقبل أن أقول شيئاً شرع بالكلام:

أنا غداً مشغول. أذهب بدلاً مني إلى قبر عمك وأقرأ له الفاتحة، هو في انتظارك، لا تنسَ، اذهب في الصباح الباكر، أفضل.

ثم يغلق الباب ويذهب دون أن ينتظر جواباً مني.

شيء غريب! في اللحظة التي كنت أريد أن أقول لنفسي فيها الأفضل؛ أن أكتب في الغد حكاية الرجل المسحور، علا صوت الباب، وكلفني أبي إنجازَ عمل!

أغرق في التفكير، كم هو محسوب بدقة هذا الاقتران والتزامن بين التصميم على إنجاز القرار وصوت باب الغرفة!

أشعر أن هذا المشهد قد خُطّطَ له من قبل بشكل جيد.

كل شيء.. كل شيء.. عدم رؤية رُخساره، مجيء زوجة عمي، حديثها لحظة بلحظة حتى لحظة القرار في آخر ساعة في الليل.

لماذا عندما كنا نتحدث عن عمي لم يطلب أبي مني هذا الطلب؟ هل نسي؟ وتماماً في اللحظة التي كنت أفكر فيها بالرجل المسحور يعبر عن رغبته. هل من الممكن أن يكون هناك علاقة بين رغبة أبي والرجل المسحور، أو أن هذا الاحتمال ليس أكثر من خيال واهٍ؟

على أي حال حدد لي أبي وقت زيارة ضريح عمي، وهذا الزمان لا يمكن أن يكون عقبة في طريقي؛ فهو كعادته طلب مني أن أكون حاضراً أمام قبر عمي في الصباح، دائماً عندما تكون لديه نية لزيارة ضريح أخيه يصلي صلاة الصبح ثم يذهب مشياً إلى المقبرة، ثم يعود مشياً أيضاً إلى مخزن الخشب مكان عمله الذي يقع تماماً في وسط الطريق المؤدي إلى المقبرة والمنزل.

اللحظة التي طلب مني أبي هذا الطلب أثارت قلقي، لا أعلم ربما قد توترت بلا سبب وأنا من أقنع نفسي بنفسي بهذه الخيالات الواهية، وأعتبر أن هذا التزامن الذي يمكن ألا يكون أكثر من مصادفة عقبة في طريقي!

في هذه الساعة المتأخرة من الليل تزأر السماء أحياناً وقد اشتدت الريح، ومع هذا يمكنني أيضاً سماع صوت أنين أمي الذي يؤذي روحي بالتأكيد، مضي الزمن زاد من ألمها؛ ففي ما مضي كان من النادر أن أسمع صوت أنينها، لا لا يمكنني أن أنام، مع أنني متعب جدّاً، كما لو أنني جالس في انتظار وقوع حدث ما، يسري الخدر إلى كل أنحاء جسدي وروحي، ويخرج مرة أخرى عقب وصول صوت أمواج أنين أمي الموجعة، من المؤكد أن سميرة تجلس بالقرب من أمي لتقلل من شدة وحدتها وألمها الليلي، لكن نوم أبي ثقيل، فهو يسير إلى الصحراء والسهل- المكان الذي يأمل دائماً أن

ينتقل إليه- أو أنه غارق في نوم عميق من شدة تعب العمل اليومي. هذا السحر الغريب الذي اسمه النوم عميق إلى ذلك الحد الذي لا يمكن لأنين أمي أن يسحبه منه، أنين أمي الذي ينفذ إلى أعماق كياني وكيان سميرة.

أنهض وأبدأ المشي مع حلول منتصف الليل باتجاه خزانة الكتب، أنظر إليها واحداً واحداً، لكن ليس لدي رغبة بقراءة أي منها، فقط أنتظر أن يحل الصباح لأذهب إلى ضريح عمي، هذه المهمة أقلقتني لأنها حالت بيني وبين القرار الذي اتخذته.

أتخيل أنه بلا سبب سوف أبقى حائراً، ولا يساعدني أي نوع من المنطق لأفهم هذا الاضطراب الذي لا سبب له، كم هو قاتل هذا الوقت القصير والمحدد الذي يجب أن يمر بسرعة كما يقتضي العقل، لكن الأوهام والوساوس غير المناسبة تتركني حائراً وتائهاً في تفكيري وخيالي.

فكم من الوقت سأقضي في المقبرة؟ وإذا لم يكن من المفروض أن أذهب إلى ضريح عمي فمن المؤكد أنني سأغرق في النوم والنسيان.

إذن من المؤكد أيضاً أنني قد قلقت بلا سبب، لكن عليَّ أن أقِر أنه في نفس اللحظة التي ظهر فيها أبي وقبل أن يفصح عن طلبه فجأة بدا هيكل صاحب عملي في خيالي، واستُحضِر في ذهني حدث مأدبة الموت مرة أخرى.

ولّما تعبت من المشي في المساحة الضيقة في غرفتي، ذهبت نحو مفتاح الضوء، أسمع مرة أخرى زئير الرعد، لكن ما تزال الغرفة مضاءة، وحينئذٍ جذبت بقعة سوداء صغيرة نظري، أذهب نحو النافذة وأقف أمامها، أنظر جيداً، أحدق حائراً بتلك البقعة السوداء التي ليست إلا جمعاً من النمل الحائم

حول ذرات السكر، تبدو لي كائنات صبورة، تنتظر النملات في تلك النواحي حتى يخلو المكان ويصلهن الدور، لكن النملات الأخريات قد التصقن بذرة السكر، ويبدو أنه ليس لديهن رغبة بأن يتركن ذرة السكر بسرعة.

عندما تغرق الغرفة في الصمت يبدأ المطر الغزير بالهطل، لا أسمع صوت أنين أمي بعدها كما لو أن المطر قد غسل وحمل معه كل الأوهام والأصوات الأخرى لمنتصف هذه الليلة.

في النهاية تخترق دوخة النوم كل أنحاء جسدي وروحي كالدم والمرهم السحري، وأغرق بهدوء في خدر عميق.

ينجح النوم الذي يخطفني في أن يزيل كل أوهامي ووساوسي ويتركني أغرق في المكان الذي قد تمنيته وحلمت به.

منذ اللحظات الأولى للنسيان والخدر يمتثل أمام عيني خيال وجه رُخساره الجميل والجذاب وهي كذلك تبتسم وتتقدم باتجاهي وتقبلني، حينئذٍ نمشي بين سنابل القمح والسهول التي أتصورها بلون البحر الأزرق، نسبح في بركة فضية اللون، ونتجول في الحديقة الجميلة المحيطة بنا الملأى بالفواكه الملونة ويطعمُ بعضنا بعضاً من كل فاكهة منها.

في هذه الرؤية أيضاً يخطفنا سحر منام آخر، لكن عندما أفتح عيني تهب ريح قوية فجأة وأنظر، رُخساره ليست في جانبي، حينئذٍ أحدق بطريق غريبة متجهة نحو تلة صغيرة، أرى رُخساره المسكينة تركض حائرة وسط الريح.

أنهض وأنطلق خلفها خائفاً، لكن في وسط الطريق في مكان يشبه حقل قصب سكر أرى عمي محدقاً بي، أجمد في مكاني وأعود باتجاه التلة، رُخساره ليست موجودة أبداً، قوة غريبة تدفعني لالتفت باتجاه عمي، هو يفسح أغصان وأوراق شجرة وينظر إلى من هناك، ثم يخرج من وسط حقل قصب السكر، ويجري في طريق ضيق بعكس التلة الصغيرة.

تحيرت في أي اتجاه أذهب، أنظر مرة أخرى نحو التلة الصغيرة لكن لا أرى أي أثر لرُخساره، فقط تهب ريح قوية ويثور الغبار في الجو، ثم ودون رغبة مني أعود باتجاه عمي، هو يعود وينظر إليّ، حينئذٍ، وكما لو أن شعلة تخرج من وسط عينيه وتحرق نارها كل روحي، توهج حبي لعمي، وأنطلق دون وعي خلفه.

-٩-

عندما أشعر بأن يداً تلمس كتفي الأيمن أستيقظ من النوم، أعتقد أن أبي أيقظني حتى لا أنسى ما طلبه مني البارحة، لكني أنظر جيداً وأنتبه أني وحيد؛ إذن ربما أيقظني وذهب!

تقول سميرة: " أستيقظ من النوم عندما أريد، وهذا فعل الله؛ يأمر ملاكاً إذا كنا نائمين هو يوقظنا!"

يبدو لي أنه ما يزال منتصف الليل، أتقدم وأنظر جيدا من النافذة إلى السماء، يشع القمر والهالة المحيطة به، من الواضح أنه قد بقي وقت طويل حتى أذان الصبح.

في هذه الأثناء يشتعل مصباح الفناء، يشير لي أبي كما لو أنه يقول: "لا تنسَ، اذهب لزيارة ضريح عمك".

أهز رأسي جواباً على حركة يده التي أشعر أنها تتعلق بما طلبه مني. حين يفهم موافقتي على طلبه من خلال حركة رأسي يرتاح باله، ويطفئ مصباح الفِناء، ويخرج من المنزل.

يجب أن يكون قد تبقى ساعة حتى أذان الفجر، دائماً نحو الساعة الرابعة والنصف يترك المنزل قاصداً مكان عمله، لكن احتمال أن يكون هو من أيقظني بعيد، ليس من عادته، حتى لو من أجل عمل ضروري من المفروض أن أنجزه في الصباح الباكر.

أجلس على سريري، قد زالت دوخة النوم نهائياً من روحي وجسدي، وأنا الآن يقظ يقظةً تامّةً، من المؤكد أنه فعل يد الغيب.

هذه المرة الرابعة التي أستيقظ من النوم مع هذا النوع من الإشارات القابلة للفهم والإدراك، في بعض الأحيان أفتح بسهولة عيني أيضاً بغية مشاهدة رؤية غريبة تحمل لي معها شيئاً جديداً، لا يؤذيني التعب ولا سحر ودوخة النوم أبداً، كما لو أنني قد نهضت من نوم استغرق مئة عام، لو لم تكن يد الغيب لكنت استبعدت أن أستيقظ بهذه السرعة.

مرة أخرى، من أجل أن أتأكد من الوقت أفتح باب الغرفة، وأشعل المصباح، وأنظر إلى الساعة الجدارية داخل الممر.

كما توقعت، إنها الرابعة والنصف، لا أسمع سوى صوت الديك الذي يصيح أحياناً، بالرغم من أنه لم يتبق إلا بضع دقائق حتى أذان الفجر، أتكاسلُ.

تصورت أنه ما يزال الليل، والقمر يشع والنجوم تسطع، يمنعني من الذهاب. إنه وقت فراغ يستمر حتى الأذان، يجب أن أنشغل بشيء ما خلال هذه المدة.

لو استيقظت سميرة دون أي ضجة ستمضي إلى زاوية خلوتها بهدوء، وتنشغل بالصلاة والدعاء؛ فهي تقدم على هذا النوع من الأعمال في كل وقت؛ كالتجار يوظفون كل حواسهم دائماً من أجل العمل والسعي والمحاسبة بغية كسب قوت يومهم ورزقهم، لكن فعل سميرة يشبه عمل التاجر المحترف أكثر من ناحية كسبه المنفعة والربح اللذين -كما تعتقد- سيكونان من نصيبها، عملها هذا لا يشبه عمل التاجر السيئ الحظ الذي

يحرم نفسه من الراحة والنوم من أجل تأمين لقمة الخبز لزوجاته وأبنائه، ويقضي جزءاً من الليل في العمل والسعي.

كما لو أن الصلاة اليومية لدى هؤلاء الناس المساكين إجبارية كالعمل والسعي لتأمين لقمة الخبز؛ يبدو لي أنهم لا يؤدون هذه الواجب من باب الحب والرغبة، لكن سميرة لا تنهض مجبرة لأداء الصلاة اليومية، بل تنهض دائما بناء على رغبتها وعشقها واهتمامها الزائد على الحد، وقبل أن يصل الصوت الغيبي والسماوي لأول ديك مستيقظ إلى آذان الموتى والغارقين في النوم، تنهض بلا أي نوع من التكاسل طبقاً للعادة أو بسبب إشارة غيبية، وبلا أي نوع من التظاهر والنفاق تنشغل بالعبادة.

لكن لولا انتقادات أمي لامتدت خلوتها مع ربها حتى بعد طلوع الشمس بساعة، عندما يرتاح بالها من ناحية أمي نوعاً ما تقدم على هذا الفعل.

أمي تلومها دائماً فهي تعتقد أن سميرة تلح جدّاً على عمل العبادة وتسرف فيه، لكنها لا تنتقدني لأنني أؤدي الصلاة اليومية فقط، وحتى لو نسيتها لا أحد ينبهني أيضاً؛ أبي مشغول بالعمل، وأمي تعيش في جنة وجحيم من صنعها وليس لديها أي رغبة في أن تجبرني أو تجبر أي شخص آخر على عمل لا تؤمن به، هي تعتقد أن الإنسان يجزى على عمله ليس إلا، الجنة والجحيم أيضاً في هذه الدنيا ذاتها؛ الثروة تعني الجنة، والفقر يعني الجحيم. لهذا السبب تشجعني على العمل والسعي وجمع مال الدنيا.

هي تريد أن يعيش ابنها في الجنة، وألا يذوق أبداً طعم الجحيم.

وضع يوسف يشبه وضعي لكنه ينسى صلاته اليومية بكل سهولة، وهو أنشط وأكثر التزاماً من الجميع بعمله اليومي، وأستاذ حاد الذكاء في

الحصول على الرزق والمال، أنا متأكد من أنني إذا فكرت مئة سنة فلن أستطيع أن أصل إلى حدة ذكائه وخبرته في الحصول على المال.

الغريب أن نرجس -زوجته- توافقه بالعقائد والأفكار؛ كلاهما يفكر في جمع المزيد من المال والذهب.

يفتح الباب فجأة وتظهر سميرة أمامي، وحين تتأكد من أني مستيقظ تشعل المصباح، فتنار الغرفة كبداية الليل.

- مستيقظ؟
- نعم. يجب أن أذهب.
- لم يؤذن بعد. الآن نهضت لتذهب؟
- أنت أيقظتني؟
- لا. أنا استيقظت في الحال. أنت استيقظت بنفسك. جيد جدّاً. الله ينظر في أمرك. صحيح عندما تذهب إلى ضريح عمي أوصل له سلامي. لو أنك تذهب بعد الظهر لذهبت معك. اشتقت له.

ثم تلقي بنظرة على الممر، وتقترب مني هذه المرة أكثر، وتتابع كلامها بصوت خافت:

- انتبه كي لا تصبح صلاتك قضاء. توضأ وهناك بالقرب من ضريح عمي أدِّ صلاتك...ليحفظك الله.

تغلق الباب بهدوء، أتمدد على سريري، وتفتح نافذة في عقلي وخيالي مرة أخرى، أنا في حال التفكير في أن سميرة متأكدة من أن أبي وأمي لم يوقظاني، وأنا كذلك متأكد، كنت أشك بسميرة لكنني الآن متأكد من أنه

ليست هي من أيقظني، أبي وأمي ليس لديهما أي إصرار على أن أؤدي صلاتي اليومية، مع هذا اعتدت القيام بهذا العمل.

الآن بقي هذا السؤال **(من الذي أيقظني من النوم؟)** حقاً لا أعلم ماذا أقول. لكنني متأكد تماماً من أنهما لا يحبان أن يكون هناك علاقة بيني وبين الله. أن أرى هذا المعنى الغريب وغير القابل للتصديق في عيني أمي، حتى أبي أيضاً الذي لم أشاهد أي نوع من التقصير في أدائه للواجبات الدينية لا يعنيه أن أكون مهتماً بالعبادة أو ألا أكون مهتماً.

قد تمددت على النحو نفسه، ومرة ثانية خطرت ببالي انتقادات أمي.

لم أفهم حتى الآن لماذا قالت أمي لسميرة: لا تظهري أمام يونس، تعنيني أنا، هل ما سمعته كان غير صحيح؟ لا، لا يمكن! سمعت بأذني، صوتها الواضح لم يترك لي أي مجال للشك. يعني حتى الآن لم تعرف أمي ابنتها البعيدة كل البعد عن أي نوع من أنواع النفاق والتظاهر؟ وهل يمكن هذا؟ هل من المحتمل أن يكون ما قالته أمي يتعلق بالشيء الذي أعتقد أنهم قد أخفوه عني؟ من الضروري أن أناقش هذا الأمر مع سميرة؟ حقاً هي حديثاً وبالضبط بعد انتقادات أمي لا تصلي أمام عينيّ أبداً؟ الآن أيضاً عندما أرادت أن تذكرني بصلاة الصبح ألقت نظرة على الممر في البداية وبعد أن تأكدت من أن أمي نائمة طلبت مني بصوت مناسب أكثر من ذي قبل ألا أنسى صلاتي. هل هذه أوهامي أنا أو أن هذه الأفكار التي لا أفهمها متعلقة بحقيقة مخفية، ولربما كانت هذه الحقيقة المخفية في يوم من الأيام مرتبطة بي كل الارتباط؟

رُخساره! عشقي لرُخساره هو الشيء الوحيد الذي لا يسمح لي بأن أجن بسبب هذه الأفكار المبهمة والمدهشة. قد تعبت وإن شاء الله أتحرر من شر هذه الأفكار الغامضة في أقرب وقت.

كم كان المنام جميلاً! كم كان الحلم مفرحاً! أنا ورُخساره... يا لها من متعة! لكن للأسف انتهى سريعاً!

أسمع مرة ثانية صوت الديك، ثم للمرة الثالثة على التوالي في صباح هذا اليوم.

يُفتَح الباب مرة أخرى وتدخل سميرة.

- انتبه كي لا يغافلك النوم!
- لا.
- متأكد من أنه لن يغافلك النوم؟ لا تتأخر!
- لا. اطمئني. اذهبي وأريحي بالك.

تغلق الباب خلفها بهدوء، كم وجهها جميل! كما لو أن القمر ينعكس على وجهها مباشرة، ساحر ومضيء ونقي مثل الماء الصافي، بالتأكيد من أثر عبادتها، خلافا لوجه نرجس -زوجة يوسف- الذي يميل إلى السواد والظلمة، وإذا لم تبهرجه لا يمتلك أي جمال أو جاذبية.

كلما نظرتُ إلى وجه سميرة، استمتعتُ برؤية وجهها الطفولي المشبع بالطهارة والنعومة، وجه رُخساره مملوء بالعشق، وبلا شك نور عيني رُخساره وعشقها المصباح الذي أنار منزل قلبي.

رُخساره! أحبك. هل تسمعين صوتي؟

أسمع صوت الديك مرة أخرى، أعتقد أنه قد حان وقت الذهاب، أنهض وأذهب إلى الفناء، أغسل وجهي وعندما أعود إلى غرفتي تصل رائحة سميرة إلى أنفي من خلال شق الباب. متأكد جدّاً من أنها مشغولة بالعبادة.

أفتح الباب بهدوء، النافذة المطلة على القبلة مفتوحة، هي قد ذهلت بالسماء التي كانت تحدق بها كما لو أنها تنظر إلى كائن خيالي، أعتقد أنني قد رأيت هذا المشهد مراراً عديدة.

أغلق الباب مرة أخرى بكل هدوء، ودون أن ألفت انتباهها، ثم أدخل إلى غرفتي، وأتحضر بسرعة البرق، وأطفئ المصباح، وتبدي الغرفة ظلالها مرة أخرى، حينئذٍ أخرج من المنزل بلا ضجيج، وأنطلق نحو المقبرة.

-١٠-

أجتاز الطريق كله مشياً على الأقدام، أمشي ما يقارب ثلاثة أرباع الساعة على أرض رطبة في جو يتموج فيه الضباب الخفيف حتى أصل إلى المقبرة. الضباب أكثر وضوحاً بين القبور والأشجار، أعبر الطريق التي تعوّدتها ودون أن أدوس على قبر ما، أنظر إلى عيون الموتى التي كما لو أنها قد ذُهِلتَ بالسر الأبدي وأمضي حتى أصل إلى ساقية الماء الجاري، ومن هذا المكان يقع نظري على عمي. ينظر إلى من وسط الضباب والهواء البارد الصباحي.

أنحني في المكان نفسه، وأرفع علبة صفراء من قرب ساقية الماء، أفرغها من التراب وأملؤها بالماء.

حينما أصل إلى أسفل القبر ألقي التحية وأحدق بوجهه المذهول، يجيبني من أعماق صمته الأبدي، أجلس وأفرغ كل ما في العلبة من ماء على قبره، ثم أغسل بكف يدي شاهدة قبره بشكل جيد، أقرأ الفاتحة وأوصل سلام أبي وسميرة إلى روحه اليقظة.

أتحدث معه مُدّةً كما لو أنه يتمدد بالقرب مني كمريض أمتهن الصبر، يستمع إلى كلامي، طالما أتحدث معه لا يفارقني شعور أنه حي، ويراقب تصرفاتي بوعي، لكن حالما أنهض لأذهب أشعر فجأة أن العلاقة الفاترة التي كانت قد نشأت بيننا انقطعت مرة أخرى.

حالما أبتعد عن قبر عمي. فجأة يضغط الحماس على قلبي، ويخطر ببالي ذلك الشاب الخائب الذي يشبهني بشكل غريب، كنت قد نسيته تماماً.

مرة أخرى أرفع العلبة الفارغة، وأسرع إلى ساقية الماء الجاري.

عندما تمتلئ العلبة بالماء البارد أنطلق عدة صفوف أسفل من قبر عمي تماماً أمام قبر ذلك الشاب الخائب فأتجمد في مكاني، أنظر إلى المشهد الذي لم أتخيله أبداً؛ القبر قد غُسِلَ ووُضِعَ عليه ورد أبيض تماماً في المكان نفسه الذي غفا فيه قلبه.

أتقدم، وكانت العلبة مائلة والماء ينسكب منها، كنت لا أرفع نظري عن ذلك القبر والورد الأبيض، أضع علبة الماء أعلى القبر، وأنظر حولي على عجلة، لا يُرى أحد سوى رجل بعيد عني قليلاً قد جلس بالقرب من قبر. يبدو الضباب أكثر كثافة في نهاية حدود نظري، المقبرة نائمة بين بخار الأرض والسماء، وإذا قرأت دعاء بصوت مرتفع تستطيع أن تشعر بطيران كلامك السماوي في الجو الضبابي الصباحي.

على الفور أدور حول القبر دورة، ثم في المكان نفسه ألمس القبر وأنا كما لو أنني أنظر إلى نفسي في مرآة قديمة وعتيقة، وأضغط على أوراق أغصان الورد برؤوس أصابعي.

كم هي طازجة!

أنهض فجأة وأسرع نحو باب الخروج من المقبرة، أعتقد أنني ربما أرى أقاربه في وسط الطريق، مع هذا التخيل أمر بالقرب من عامل النظافة الذي يجمع الأوراق الصفراء والمبللة ويلقيها في ساقية الماء.

حينما أصل إلى الطريق الرئيسي يبدو أمام عيني باب المقبرة.

لا، لا يوجد أحد أبداً.

أنطلق مرة أخرى نحو قبر ذلك الشاب الخائب.

هل يعقل ما كان!؟ ألست أنا الذي قد نظف الأتربة والغبار الذي كان قد تجمع على قبره منذ سنين! من هو الشخص أو الأشخاص الّذين قد جاؤوا لزيارة صاحب هذا القبر في هذا الوقت قبل أن يحين وقت الأذان؟

مرة أخرى أعود إلى رؤية ما لا يمكنني تصديقه، أتقدم متحمساً ودون أي توقف في الطريق، أتذكر في ذلك اليوم الذي مسحت الغبار والأتربة عن شاهدة قبره أني نظرت جيداً إلى القبور المجاورة، شواهدها أنظف والغبار الذي يغطيها أقل بكثير من الغبار الذي كان يغطي ذلك القبر؛ تقريباً كان حجم غبار كل شواهد القبور المجاورة له متساوياً! هل يمكن أن أقبل بفكرة أن أقاربه كانوا قد تركوا هذه المدينة لفترة زمنية والآن قد عادوا؟

ما هذه الأفكار! حقاً لو كان هذا الشاب الخائب لا يشبهني إلى هذا الحد هل كانت خطرت على رأسي هذه الخيالات كلها؟

أفكر في نفسي لو تغيب أخباري عن رُخساره عدة أشهر، ثم تمر من قرب قبر هذا الشاب الخائب، ألا يقع قلبها على الأرض عند رؤيته؟ عندما تقع عيناها على عيني هذا الشخص الذي يشبهني ألا تضعف وتخاف وتشعر بعدم التصديق؟ هل لا تتذكر للحظات عدة من باب العشق والحسرة والتأسف ذكرياتها السعيدة معي؟ بالتأكيد تتنهد دون وعي أو تصرخ ثم تضعف ركبتاها فجأة، وتجمد في مكانها حائرة.

حينما أتصور هذه المشاهد أستمتع، عندما أشعر أنها تحزن من أجل العشق الذي فقدته أتحمس! قررت في نفسي مرة أن آتي برفقة رُخساره إلى المقبرة، وبحجة زيارة قبر عمي أمر لأزور قبر هذا الشاب الخائب. أحببت أن أرى عندما تنظر إلى القبر الإحساس الذي ينتابها، لكن ندمت بعدها وأحسست أن عاقبة هذا اللقاء لن تكون جيدة، لهذا انصرفت عن هذا القرار.

عندما أصل بالقرب من قبره أقف هناك، وبدلاً من أن أقرأ له الفاتحة أنظر في عينيه المذهولتين، وبدلاً من الدعاء له بالمغفرة أحدق بملامحه التي قد جعلت جسدي يرتجف ويقشعر، أريد ألا أصدق أن هذا الوجه يشبهني، لكن لا يمكن، ثم أفكر لو أن شخصاً مرّ في هذه اللحظات من جانبي وشاهد التشابه الذي بيننا، حينئذٍ ربما يخاف أو -لا سمح الله- يبتلى بسكتة قلبية.

هل ليس من المحتمل أن يحدث هذا؟ كل شيء ممكن. أنا نفسي أيضاً أخاف من هذا التصور وأنهض من قرب القبر، لكن فجأة تشتعل النار بجسدي من رأسي حتى أخمص قدمي، أتأوه وأعود إلى الخلف ويضيق نفَسي، ودون أن أريد أتبسم، عجوز بارع وقف أمامي، يضحك وصوته الذي أدخل الاضطراب إلى صدري يملأ المكان.

دون إرادة ألقي عليه التحية وهو ما يزال يضحك، فيجيبني. أتنحى.

- أرجو العفو.
- الله يعفو عنك، من الواضح أنك خفت، أليس كذلك؟
- لا. لا شيء، لم أتوقع أن أرى شخصاً هنا.
- إذا أخفتك أعتذر، أتمنى أن تسامحني.
- العفو، ما هذا الكلام! أنا لم أخف.

لكن حالما ينتهي كلامي يتغلب خوف غريب على كياني، مرة أخرى يخطر ببالي ما كنت قد فكرت به وتخيلته، ويبدو لي أنه في الحال تسقط عين هذا الرجل فجأة على ملامح الشاب الخائب وتصيبه سكتة قلبية بسبب الخوف والهلع المفاجئ، أريد أن أشتت حواسه عن هذه الحقيقة العجيبة لكنه يضع يده على كتفي:

- بالتأكيد قد استغربت كم هو شبيه بك. هذا حالك أليس كذلك؟

أعود وعندما أهدأ ألقي بنظرة مرة أخرى على صورة ذلك الشاب، أتنحى قليلاً وأقول مجيباً له: في الحقيقة أي شخص آخر يكون في مكاني من المؤكد أنه سيستغرب.

ثم أحدق للحظات عدة بملامح ذلك الرجل، أعتقد أنه من المؤكد أن يكون أباه أو عمه أو أحداً من أقاربه المقربين.

تقريباً مضى ما يقارب الستين سنة من عمره، لكنه يبدو ذكياً ونشيطاً، عيناه مضيئتان ومليئتان بالجاذبية، قد وضع قبعة سوداء مدورة كالتي يضعها اليهود على رؤوسهم، وقد ارتدى قميصاً أبيض وسترة ومعطفاً قديماً نوعاً ما، ويرتدي بنطالاً كحلي اللون عريضاً قد أبهتت الشمس لونه على مرور الزمن، لحيته الحمراء والبيضاء قد غطت وجهه وذقنه، عيناه قد غارتا لكنهما مضيئتان ومليئتان بالجاذبية وقد سلبتا مني القدرة على الحركة.

أريد أن أتحدث لكن لا أعلم ماذا أقول، ثم يرفع نظرته الثقيلة عني، ويلقي بها على وجه الشاب الخائب، ودون أن ينظر لي حينئذٍ ينحني على الحال نفسها ويجلس قرب القبر:

- هذه قدرة الله. أجلس أنظر جيداً.

- رأيته.

- انظر إليه مرة أخرى!

- نعم.

وأجلس وأنظر محدقاً بوجه ذلك الشاب:

- عفواً! ابنك؟

- لا.

- إذن..

- ماذا قلت؟

- إذن لا شك أنك عمه.

يلقي نظرة إليّ.

- هل يمكن أن أكون أباه أو عمه. هل ترى شبه ما بيني وبينه؟ لكن أستطيع أن أدعي أن هذا الشاب أخوك، أو أخوك التوءَم، أليس كذلك؛ ألا أستطيع أن أتصور هذا؟

- لماذا؟ لأنه في الحقيقة يشبهني؟

- لكن ربما لا توجد صلة بينكما على الإطلاق. أليس كذلك؟

- نعم، لكن.

- لكن ماذا؟ من أين لي أن أعلم. أليس كذلك؟ أنت نفسك لا تعلم أهذا أخوك أم لا. أليس كذلك؟ في الأساس هل فكرت بالأمر؟

- صحيح

- لا. لكنه ليس أخي.

- وكيف تأكدت من هذا؟ ربما أخفوا عنك، وربما أيضاً فكرت بشكل صائب. لكن أعلم أن فعل الله هذا لا يخلو من الحكمة، الله عالم وحتى هذه اللحظة لم يؤدِّ أي عمل عبثي ولن يؤدي أبداً.

لو ترى أن هذا الشاب السيئ الحظ يشبهك إلى هذا الحد، فاعلم أن في فعل الله هذا حكمة خفية حاول أن تفهم سرها.

- إذن أنت لا تمتلك أي صلة بهذا الشاب؟
- لا. أي صلة تعني؟
- سؤال ليس إلا. لست من عائلته، أقاربه المقربين أو البعيدين؟
- لا على الإطلاق.
- إذن كنت تمر مصادفة؟
- لا أنا أتيت إلى هنا من أجل عمل ما؛ منذ مدة وأنا آتي إلى المقبرة، وجدت هذا القبر صباح اليوم، تأسفت كثيراً واستغربت، لكنني متأكد أنهم أعطوني عنواناً خاطئاً.

أمسح جبهتي بيدي وأنتظر أن يقول ما عنده، كلامه مبهم وغير قابل للفهم مملوء بالغموض. يخطر في بالي ألف فكرة وتصور حول الكلام الذي ينطق به؛ لماذا يأتي إلى المقبرة؟ ليست له أي صلة بصاحب هذا القبر، إذن كيف ولماذا يقول قد وجد هذا القبر صباح اليوم؟ هل قد عرفه في وقت سابق؟ ومن أجل ماذا قد تأسف؟

تمر كل هذه الأفكار في رأسي بسرعة البرق ويتوقف عقلي عن العمل، وللحظات عدة ليس عشقي لرُخساره يتلاشى في داخلي فقط؛ لكني أنظر إلى وجودي أيضاً بعين الشك والتردد، وحتى وجود أبي وأمي وسميرة

ويوسف وزوجة عمي وعمي والجميع، يبدو لي كسراب كأن وجودهم ليس أكثر من حلم، أفكر هل المكان الذي أوجد فيه هو المقبرة؟ وهل أنا الآن قد جلست بالقرب من ضريح الشاب الخائب الذي ليس من المعروف أيضاً أن هناك صلة تربطه بي أو لا؟ هل هذه الملامح الغريبة تشبهني؟! من يكون هذا الرجل العجوز الذي حضر إلى قرب هذا القبر في هذا الوقت من الصباح؟

يخطر ببالي طلب أبي مرة ثانية، تأكدت بعدها من أنه قد أجبرني وفقاً لقانون مجهول على أداء زيارة عمي، الآن يتضح قليلاً قليلاً معنى طلبه، على هذا الحال أقضي وقتاً وأنا خائف ومرعب قليلاً، وأريد أن أعبر عن كل هذه الأحاسيس دفعة واحدة.

أنهض من قرب القبر، ذلك الرجل ينهض أيضاً.

- ربما يوماً ما ستفهم لماذا ذلك الشاب يشبهك إلى هذه الدرجة، وهذا الأمر لا بد فيه سر، أتفهم ماذا أقول؟
- نعم ولكن أي سر هذا؟ أنت تعلم لماذا يشبهني؟
- لا ولو كنت أعلم أيضاً لما تحدث عنه، ليس هناك أي فائدة من القول، يجب أن تعلم حقيقته بنفسك، أرجو الله فليس هناك أي سر يخفى عنه، هو مخزن الأسرار، كل ما تريده اطلبه منه.

منذ عدة دقائق رأيتك تمضي بسرعة، لكني صبرت لأنني كنت أعلم أنك ستعود قريباً جدّاً!

- ألقي بنظرة على عينيه المملوءتين بالجاذبية، أريد أن أقول شيئاً لكني أبقى مذهولاً حائراً مندهشاً وأغرق في صمت يزيد حيرتي، كما لو أن لدى

عينيه قوة وقدرة تفوق قدرتي على الكلام، وفي عمق هذا الخيال أسمع صوته:

- كنت أنتظرك، كنت أعلم أنني سأجدك في النهاية.

بقيت حائراً ومذهولاً وشُلَّ لساني كمن مسه الجن وأنا في أعلى درجات الإنكار للكلام الذي سمعته أفكر بما قاله، لا يوجد أي منفذ أو مخرج في خيالي، بعد عدة لحظات وبعد جهد جهيد أنجح بأن أتكلم:

- لكن أنا لا أعرفك.

- أما أنا أعرفك!

عندما يرى صمتي يتابع:

لا داعي لأن تقلق، قد بقي الكثير لتعرفني لكن من الواضح أنك خفت من شيء، أليس كذلك؟

- لا.

- بل نعم، كن صادقاً معي! أنا صديقك وأريدك أن تؤدي من أجلي عملاً.

- لكن أنا لا أعرفك، والآن يجب علي أن أذهب.

- أين لديك عمل في هذا الوقت المبكر من الصباح؟

ثم يبتسم وينظر نحو الأفق:

- تعتقد أنك نهضت وأتيت إلى هنا بإرادتك!؟

أنظر إليه هذه المرة دون أي خوف، فقط من باب الحيرة والدهشة.

- أبي طلب مني أن أتي في صباح اليوم لزيارة قبر عمي.

- تفكر! هذا هو ظاهر المسألة، هذا كان طلبي كي تأتي إلى هنا.

وعندما يتأكد من أن تفكيري يوشك أن يتشتت ويتناثر كالغبار يتابع كلامه:

- لو تعرّفتني أكثر، ما استغربت إلى هذه الدرجة.

ثم يوضح لي:

مرادي هو الله وكل شيء أريده أطلبه منه فقط، لا أرتجي أي أحد ولا ألجأ إلى أحد سواه، أنت تستطيع أيضاً أن تلقي بي على الأرض، لكن ليس مهماً؛ المهم أن كل شيء أطلبته عدت إليه فيه وطلبته منه، الله مالك السماوات والأرض، ثمّة كثيرٌ من الذين يقولون هذه الكلمات لكنهم لا يؤمنون بالكلام الذي يقولونه.

ثم يأتي نحوي ويحني رأسه وينظر إلى نظرة ثاقبة ويتابع:

- نسي الناس الله، السر الكبير هو ذكر الله، أكثرهم لا يعرف ما معنى ذكر الله، فقط يتكلمون، كلام! كلام!

ثم يدور حول قبر الشاب الخائب ويلتفت نحوي ويتابع:

- أرني من ذلك الذي يذكر الله في كل لحظة؟ أي شخص تعرفه لا يغفل عن تلك القوة المطلقة؟

ثم يأتي نحوي مرة أخرى:

- هو عشقي ومعشوقي، دون ذكره لا أستطيع أن أتنفس، كل ما أريده أطلبه منه، هو من يحقق رغبتي وطلبي، طلبت منه شيئاً، وأراد أن تأتي إلى هنا حتى أراك.

ثم يضحك ضحكة ويتم كلامه:

- هذا هو من يقال عنه ملك، ملك بالمعنى الحقيقي للكلمة. ثم يطلب مني أن أجلس قرب قبر الفتى الشاب.

أجلس، وأيضاً يجلس في الجهة المقابلة تماماً لي من القبر، كأنه ينظر إلى، أعتقد أنه يحدق بعيني لكن عندما أدقق أجده أنه ينظر إلى نقطة بعيدة غير عيني، ومع ذلك ينظر إليّ! أنا أغرق في سحر عينيه حيث كنت لا أفهم كيف من الممكن أن ينظر إليّ شيء وألا ينظر إليه في لحظة واحدة!

ثم يقول: منذ عدة ليال ماضية -ربما عشر ليال ماضية- رأيت في المنام أنهم انتشلوا جثة من الماء، يا لها من جثة! رائحتها العفنة فاحت في كل مكان، هذه الجثة تختلف عن الجثث الأخرى، صحيح كل الجثث تنبعث منها الروائح، لكن تلك الجثة تنبعث منها رائحة أخرى، نعم، كانت قد انبعثت من تلك الجثة النصف عارية رائحة الذنب العفن.

أنا ذهبت ووقفت بالقرب منها، كان يرتدي بنطلوناً أبيض، لكن الجزء العلوي من جسده كان عارياً، كان وجهه أصفر، أسود، لا أعلم، كان لونه عجيباً؛ كان مظلماً جدّاً كما لو أنهم غسلوا وجهه بالغبار والتراب، فمه كان مفتوحاً مثل فم الإنسان العطش الذي يطلب الماء، وكانت عيناه نصف مفتوحتين، كان في حال النظر إلى الدنيا بحسرة وندم، لكن كان قد فات الأوان.

كان يتكلم كما لو أنه يتحدث عن حادثة واقعية، الآن لا يراني على الإطلاق وكأنه يتخيل منامه ويتابع:

- أنظر جيداً حولي، أرى الناس الذين كانوا قد وقفوا خلف رأسي، وكانوا ينظرون إليه هربوا جميعاً بسبب الرائحة العفنة، وهكذا كانوا يفرون،

وكنت أعلم أنهم يفرون بسبب تلك الرائحة البغيضة. رائحته تخنق الإنسان، تفوق بكراهتها رائحة النتانة والقذارة، بل إن رائحة النتانة والقذارة مقبولة بالمقارنة مع هذه الرائحة، كان أمراً غريباً جدّاً! فهذه الرائحة لم تؤثر بي، لا أعلم لماذا، ربما لأنني كنت في حال رؤية المنام.

ذهبت نحو الجهة الأخرى للجثة، أزرق لون نصف جسده، كان النهر خلف ظهري، وكان أمام عيني مدينة صغيرة، مدينة مجهولة لم أرها مسبقاً، وسكانها كذلك.

ثم رأيتهم وهم يتركون المدينة جميعاً، كانت حقائبهم مغلقة، وكانوا ذاهبين، كانوا قد غطوا أفواههم أيضاً، لم يبق بعدها أي شخص في تلك الناحية، جميعهم هاجروا من المدينة وذهبوا، فقط أنا من بقي هناك.

من ثم حدقت بالجثة، رأيت البخار يتصاعد منها، بخار كثيف كما لو أن الجثة كانت تُطهى، ملأ البخار كل مكان، غطى النهر وكل الصحراء والسهل وكل المدينة، انتشر في كل مكان، من بعدها كنت لا أستطيع أن أرى الجثة على الإطلاق...

رأيت هذا المنام عدة ليال، كنت لا أفهم لماذا؟ فقط كنت قد فهمت أن رائحة الذنب النتنة يمكن أن تلوث كل الأرض؛ أنوفنا ليس لديها قدرة لتشعر بهذه الرائحة، لكن البعض قادرون على أن يشعروا بها، أنا أعلم.

مرة أخرى يحضره منامه ويتابع:

- في آخر ليلة رأيت فيها هذا المنام أتى رجل غريب ووقف بالقرب مني وقال: هذه الحكاية غريبة جدّاً، سوف تتأثر الملائكة بسماعها، ترتجف أجساد الموتى في قبورهم عند سماعها أو رؤيتها، يجب أن تكتب هذه الحكاية.

سألت: كيف.

قال: يوجد شاب اسمه يونس، يذهب أحياناً إلى المقبرة لزيارة قبر عمه، سوف أدلك على مكانه، أنت جِدْه.

سألت: كيف شكل وجهه؟ هل رأيته أم لا؟

قال: لم تره حتى الآن، لكنك ستراه؟

سألت: متى؟

قال: في التو. وأراني إياك، رأيت وجهك، كان نورانياً، كأنك كنت تحدق بشيء نوراني. كان يكرر كثيراً: أنظر إليه جيّداً، احفظ ملامحه.

سألت: أين قبر عمه؟

أحضرني إلى هنا. كان مكاناً يشبه هذا المكان بكل ما فيه من أشجار وعلامات وكل شيء فيه.

نهضت في الصباح الباكر وأتيت إلى المقبرة، وجدت هذا المكان، العلامات التي كنت قد رأيتها في المنام تتوافق مع علامات هذا المكان، لكني لم أرَك، حتى أنني كنت لا أعلم أي قبر يكون قبر عمك، على أي حال أتيت خلال عدة أيام إلى المقبرة، انتظرت في هذا المكان نفسه، رأيت أنك لم تأتِ، أصابتني الحيرة وكدت أيأس، حتى آخر يوم كنت قد أتيت فيه إلى هنا -منذ ثلاثة أيام ماضية- وقع نظري فجأة عليك، أعني هذه الصورة أنظر إليها!

دون أي كلام نظر إلى تلك الصورة الغريبة عدة لحظات، يتابع كلامه في ذلك الحين:

- لا يختلف عنك بأي شيء، يا له من سر غريب! مثير للدهشة! هذه قدرة الله، انظر جيداً إليها!

جلست قرب هذا القبر ونظرت إليه بتمعن، كيف كان من الممكن ذلك؟ هو قال: إنني سوف ألتقي بك، كنت لا أعتقد أنك مت، دفنت، لم يكن بمقدوري أن أتخيل هذا، أنت نفسك كنت قد أصبت بالدهشة، أليس كذلك؟

حقاً غريب؛ كيف يكون قد مات ذلك الشخص الذي من المفروض أن يكتب هذه الحكاية المثيرة للحيرة؟! لا، وهل يمكن؟ لكن كنت قد صدقت أنك مت.

يئست كلياً، عقلي توقف عن العمل، كنت أطلب من الله في كل حين أن يكشف لي سر هذا الحدث، أصبحت ضجراً، كذلك فقدت الصبر حتى لا أسأل! كان ينبغي لي أن أصبر حتى يحل الليل، الليالي وحدها تجيب عن أسئلتي، ثم إنني لا أستسلم أبداً لعار النوم خلال النهار، وأنا لا أبدل ذكر الله بأي شيء مهما كان.

في الخلاصة ليلة البارحة اتصل بي مرة ثانية.

ينظر إلي وأنا أتأمل أن أسمع الحقيقة من لسانه، أريد أن أدرك علاقة هذا الشاب الخائب بي، على الرغم من أنه لعدة دقائق مضت كان قد أنكر أنه يعلم أي شيء عن هذا الموضوع، الآن أعد اللحظات بصمت لأسمع ما تبقى من كلامه.

أخيراً وعقب لحظات قصيرة يقول: سمعت صوتاً في المنام قال لي "ذلك الشخص الذي رأيته في المقبرة كانت هي نفسها الصورة التي أريناك إياها في المنام لكن أنت سوف تقابل يونس" غداً عند وقت أذان الصبح في المقبرة سيأتي كي تراه أنت، يجب أن تجعله يوافق، هو مشغول...قد قرر أن يكتب هذه الحكاية المثيرة للحيرة، حَضّر نفسك.

ثم رأيت صورتك، هي نفس الصورة التي كنت قد رأيتها أول مرة، مرة أخرى أصبت بالذهول، لكن سمعت صوتاً آخر فجأة قال لي: اسمه يونس. انظر إليه جيداً، غداً حين وقت أذان الصبح سيذهب إلى المقبرة لزيارة عمه، ويجب أن تكون موجوداً هناك، في المكان نفسه الذي تعرفه، أنت ستقابل يونس، هو ينتظرك.

أصابني بالدهشة بسبب كلامه الأخير:

- من كان يقصد؟
- يعني أنت تنتظرني.
- لا. أنا لا، أنا لم أكن أعرفك، لماذا أنتظرك؟!
- لا أعلم، لكن ما سمعته صحيح، أقسم بأنه كرر هذه الجملة ثلاث مرات، نهضت من النوم وأتيت إلى هنا مباشرة.

كان قرب باب المقبرة رجل أعمى جالس، كان في يده باقة ورد، لم أفهم أكان في المنام أو في الحقيقة، أخذت من يده عدة وردات ولم يتكلم، وضعت المال المستحق مقابل هذه الورود في يده وأتيت، كنت لا أعلم أي قبر يكون قبر عمك، لكن العلامة الوحيدة التي أعلم بها هي قبر الشاب،

أتيت هنا، غسلته جيداً وقرأت له الفاتحة وقلت في نفسي: ربما يكون أخاك التوءَم، أليس كذلك؟

- لا، أنا لا أعرفه.
- حقاً غريب جدّاً! أنا أيضاً لم أفهم قطّ سر هذا الأمر.
- ثم، كما لو أنه تذكر شيئاً، يدخل يده في جيبه ويضع ظرفاً في يدي، يقول:
- خذ...تسمع أم لا؟
- ماذا أخذ؟

مهما أنصت لا أسمع شيئاً، وهو في هذه المرة ينطق كلامه بطريقة أوضح:

- أتسمع أم لا؟ تسمع صوت الأذان؟ الآن يجب أن أذهب.

ينهض من قرب القبر، لاإرادياً أحدق بالظرف الذي في يدي، لا أعلم ما هو؟ ثم يحدق بي ويقول: هذا ظرف من النقود، لا تفكر به، فقط قل لي "ذلك الذي رويته لك حفظته أم لا"؟

- تقصد حكاية تلك الجثة؟
- صحيح.
- نعم.
- جيد. إذن الآن تعلم ما عليك القيام به.

لا أتكلم ولا أسأل. لأنني أعلم ما مقصده. ويتابع:

- لا أعتقد أنه يستغرق كثيراً من الوقت، عشرة أيام جيد؟ فرصة جيدة. خلال هذه المدة يمكننك أن تكتب هذه القصة ببال مرتاح... أصبر!

ويغرق في تفكيره ثم يقول: اليوم الثلاثاء، احسب منذ اليوم عشرة أيام وتعال إلى هنا في اليوم الحادي عشر، أنتظرك يوم الجمعة.

ثم يسارع بالذهاب، لكنه يقف لحظة ويعود نحوي:

- حسنا الآن إلى اللقاء، أراك لاحقاً، ذاعوا الأذان، وينبغي لي أن أذهب قبل أن ينقضي وقت الصلاة المقدس، لا تنس، صباح الجمعة أنتظرك هنا، في أمان الله.

بينما أحمل بيدي الظرف الأبيض اللون يتلاشى ذلك الرجل البارع والغامض بين الأشجار والضباب الصباحي رويداً رويداً.

تحدق عيني في الاتجاه الذي ذهب منه ذلك الرجل، أفكر للتو بالحدث الذي يحدث في اليقظة كاللقاء بهذا الرجل واللقاء الذي يحدث في المنام، كم الفرق كبير بينهما! يبدو لي أنني أرى مناماً.

دون أن أكون قد فهمت شيئاً أجلس هناك في المكان نفسه قرب القبر، ألقي بنظرة إلى ملامح ذلك الشاب الخائب، أرى نفسي فقط يؤنبني دون أشعر، نظرت إليه، يتكلم معي كلاماً غير مفهوم على الإطلاق، كما لو أنه يريد أن يقول حقيقة لكنه لا يمتلك القدرة على قولها، كأنه مطلع على سر لكن قد دعوه إلى أن يلتزم الصمت.

أرفع نظري عن تلك النظرة المثيرة للحيرة، وفجأة ولاإرادياً أضغط بكفي على المنديل الأبيض، وأعيد كل انتباهي إليه، أفتح الظرف في ذلك المكان، أفتح عينيّ أكثر من شدة الدهشة، في داخل المنديل كثيرٌ من النقود الورقية، وكما لو أنني قد سرقت مالاً ألقي نظرة حولي، حين أطمئن من أنه لا يوجد أحد يمر من قربي أنقلهم غير مصدق من يد إلى يد، من المؤكد أنها أجرة الحكاية التي قد وعدته بكتابتها، هل كل هذه النقود أجرة عدة

ساعات لكتابة حكاية قد رويت من قبل؟ غير هذا أيضاً من أين يتضح أن هذا كله هو أجري؟

حتى الآن أنا مضطرب، من ذلك الرجل؟ من أين يعلم باسمي؟ هل صحيح أنهم نطقوا باسمي في المنام؟ إذا لم أصدق كلامه، إذن ماذا بشأن كلام سميرة؟ هل في الحقيقة يعرفوننا أكثر مما نعرف أنفسنا؟ ذلك الرجل كما لو أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما، لكن لم يقل؛ كان يعلم شيئاً ما يتعلق بي.

هذا شعوري! ذلك الرجل مطلع على حقيقة تتعلق بي، تخميني هذا صحيح بلا شك، وأنا أؤمن بشعوري هذا، كم هو مثير للدهشة، إنني أظن أنه يوجد ارتباط خفي وقوي بين الرجل المسحور وطلب أبي البارحة وأوضاع سميرة وقبر هذا الشاب وحكاية مأدبة الموت، فقط رُخساره - حبيبتي- وحدها لا توجد داخل هذه الدائرة الغامضة والمسببة للدوخة، لكنها الوجه الآخر لدائرة الغموض والالتباس هذه في حياتي.

أضع النقود في جيبي، وأنطلق إلى مكان عملي، يجب التفكير؛ هل من الممكن أن أنتهي من هذه المسائل والغرائب بهذه السهولة؟ هل يجب أن أصمت؟ يعني ألا أعطي أهمية أبداً لذلك الذي أشعر به وذلك الذي قد رأيته؟ وهل يستطيع عقلي ألا يفكر خلال الطريق بغرابة ما حدث صباح اليوم في المقبرة؟ لا. لا أستطيع حتى بكل ما لدي من قوة، أن أساعد عقلي الحائر والمذهول!

الآن أدرك أن تخميني كان صحيحاً، وذلك "التزامن" لم يكن محض المصادفة، كل اللحظات طبقاً لحساب دقيق قد ارتبط بعضها ببعضٍ كحلقات السلاسل وقد خلقت هذا الزمان غير القابل للتصور.

الآن أعلم تماماً عندما أصل إلى مكان عملي أن العمل الوحيد الذي لا يجب أن أعمل به هو حكاية الرجل المسحور. هل تفكيري لا يخدعني؟ لأنني أظن أن رُخساره قد أطلق سراحها وسط هذه الأحداث الغامضة، من أي جهة يجب أن أذهب حتى أحظى بعشقها؟ إذا لم تطلق هذه الأفكار الملأى بالغموض سراحي في ذلك الحين كيف سأكون قادراً أن أحظى بحبها لي؟

يهطل على رأسي التوتر والقلق كالمطر، وبينما كنت ذاهباً إلى مكان عملي أرى جثة عائمة على سطح النهر، وفي الجهة المقابلة لها تنتظرني رُخساره بين المروج.

-١١-

يحل وقت الظهيرة رويداً رويداً وأنا أتحدث لصاحب عملي عن علامات الرجل الذي كنت قد رأيته في المقبرة، هو متأكد من أنه لم يرَ شخصاً مثل هذا قطّ، ظننت أنه من المحتمل أن يكون هذا الرجل هو نفسه صديق صاحب عملي الذي كان قد حمل معه مأدبة الموت، لكن حدسي لم يكن بمكانه.

يسأل صاحب عملي: من كان ذلك الرجل وماذا كان يريد منك؟

وأنا كي أتحرر من وجع رأس آخر أضطر لأن أخفي الحقيقة.

- رجل رأيته قرب قبر عمي وكان يعرفني، سألني أين أعمل، كنت أراه لأول مرة، قلت في نفسي ربما يكون صديقك ذلك الذي أعطيته مأدبة الموت.
- لا، ليس هو، لا شك أنه قد أتى إلى هنا واشترى كتاباً، أنا لا أعرفه.

وانتهى الحديث بيننا حول ذلك الرجل، حتى عندما يراني منشغلاً بالكتابة لا يسأل ما الذي أكتبه، وعلى الرغم من هذا لدي خوف دائم من أن يصيبه هوس أثناء عملي لا قدر الله ويفرش أمامي مأدبة أخرى.

"سحبوا الجثة من الماء بصعوبة بالغة، سحبوها مثل القرش من وسط الأمواج إلى اليابسة والساحل، ثم حرروها واجتمعوا حولها، حدق الرجال الذين أخرجوه من الماء بوجهه، لكنهم لم يستطيعوا أن يتحققوا من هويته، ثم سأل بعضهم بعضاً: "من يعرف هذا الرجل؟".

أوضح جميعهم عدم معرفتهم به، كأنه جاء من مدينة بعيدة جدّاً، كانت عيناه النصف مفتوحتين تحدقان بالسماء بخوف، كان لونه أصفر غامقاً، وكانت الزرقة واضحة في النصف العاري من جسده.

هب نسيم عليل، وحضر سكان المدينة بالقرب من الجثة رويداً رويداً.

لم يمضِ وقت طويل حتى اجتمع حوله حشد كبير، كانوا يتهامسون ويتمتمون، لم يتعرّفه أي شخص، تساءلوا فيما بينهم لكنهم لم يجدوا جواباً صحيحاً.

اجتمع كبار المدينة في المكان نفسه ليبتوا في أمر تلك الجثة، وقبل الإقدام على أي شيء فجأة تنتشر رائحة الجثة الكريهة مثل عاصفة تحلق فجأة من الأرض باتجاه السماء وتلوث الهواء في وقت قصير حتى كبتت على أنفاس الجميع.

شرعت التمتمة مرة أخرى، وشيئاً فشيئاً أخلوا المكان حول الجثة غير مصدقين ما يجري، البعض فقد القدرة على التحمل وابتعد عن النهر، عدة أشخاص كانوا ما يزالون يقفون هناك، غطوا أنوفهم بأيديهم، وكانوا ينطقون الكلام بصعوبة، ولهذا فضلوا أن يبتعدوا عنه بحذر، لكن لم يمض وقت طويل حتى تجمدوا في أماكنهم؛ وذلك لأنهم رأوا بخاراً أبيض يتصاعد من جسد ذلك الرجل، كما لو أن الجثة قد وصلت لمرحلة الغليان، أو أنها كانت تطهى على نار قوية، الريح التي جاءت من نحو هذه الجثة نشر هذا البخار الغريب في الهواء وشعر الناس بالرائحة الكريهة أكثر بالرغم من أنهم كانوا قد غطوا أنوفهم كما لو أن الرائحة النتنة لتلك الجثة قد اخترقت أجسادهم ووصلت إلى عروقهم.

تفرقت الحشود على الفور لأن الرياح هبت، والبخار الذي كان يتصاعد من الجثة انتشر أكثر من قبل في الجو.

لم يمضِ وقت طويل حتى خلا المكان حول الجثة، وكان الناس من مسافة بعيدة -من قرب بوابة المدينة وجدرانها العالية- يؤشرون بأيديهم إلى الجثة دون أن يمتلك أحد الجرأة على الاقتراب منها.

-١٢-

أواخر الليل، قبل أن يبدأ المطر الغزير بالهطل أفتح ظرف النقود الورقية وفي خلوة الغرفة أبدأ بعدّها، عندما أنتهي من عدها أصاب بالدهشة؛ رقمها يذكرني بأجرة "مأدبة الموت" تسعة وعشرون ألف تومان. لا أعلم؛ ربما أحصل على مقدار من المال أيضاً مقابل "الرجل النتن"، لكن حصولي على أجر مرتين بالمقدار نفسه في أقل من أسبوع قد شغل بالي؛ هل له معنى خاص؟ أو ليس أكثر من خيال؟

حتى أتأكد من أنني لم أخطئ أحصي بكل دقة حزمة النقود مرة أخرى، بالضبط تسعة وعشرون ألف تومان.

على الفور أضع النقود داخل المنديل الأبيض نفسه وأربطه بشكل جيد.

أنهض وأفتح باب الخزانة وأضع الظرف في مكان آمن، أذهب نحو النافذة، الريح والعاصفة لا يسمحان لي بأن أرتب أفكاري، أغلق النافذة، حتى أستطيع في هدوء الغرفة أن أصل إلى سبب منطقي لهذا الأمر، أحدق بما حولي كما لو أنني أريد أن أستعين بالأشياء والأدوات الموجودة بالغرفة لأحصل على دليل حاسم وقوي، بينما تجول عيناي بهدوء حول النافذة، وفي أنحاء الغرفة تتوقف عيناي عن التجوال أمام النافذة.

مرة أخرى تشد انتباهي البقعة السوداء التي هي عبارة عن اجتماع العشرات من النملات حول ذرات السكر، تبدو لي ذرات السكر قد نقصت حتى النصف خلال هذه الليالي والأيام.

أقترب أكثر من باب الفضول؛ إذ إنني لم أفهم لماذا كلما فكرت بمسألة مهمة منعني عن التفكير بها موضوع أو فكرة أو تصور آخر، أو يشغل بالي لمدة على الأقل؟ مثلاً منذ لحظات عدة ماضية قررت أن أغلق النافذة كي أمنع دخول أمواج المطر وصوته المثير للدوار، لكن النمل شغلني به؛ هل في هذه المواقف تريد عيناي أو قوتي الروحية أو تفكيري أن تفهمني شيئاً ما؟ ما ذلك الشيء؟ وهل يرتبط هذا الشيء بذلك الذي أبحث عنه؟

أفكر ولا أصل إلى أي نتيجة، أبتعد قليلاً قليلاً عن النافذة كي أنسى النمل في أسرع وقت ممكن.

هذا مجرد فضول فقط، كنت قد وضعت ذرات السكر قرب عشها حتى تنشغل بها. إذن يجب أن يكون يقيني طبيعياً.

أفكر في نفسي على نفس النحو وأذهب نحو الخزانة الجدارية وأغلق بابها، ثم أتمدد على سريري.

حادثة المقبرة صباح اليوم قد أثرت بي إلى درجة أني نسيت النمل وعملها دون عناء.

مرة أخرى أرى ملامح وعيني ذلك الرجل الغريب في خيالي كما لو أنه كان ينظر إلى مكان آخر، من هو؟ ومن أين عرفني؟ حتى إنني قد صدقت بأنه أتى يوماً ما إلى المكتبة واشترى كتاباً، فكرت في هذا بكل حماقة حتى أقنع نفسي بهذا الاحتمال الضعيف، وأعتبره حقيقة غير قابلة للإنكار، أعي من نظرته أنه مطلع على سري.

كان الرجل المسحور ينام في قعر عينيه، وكنت لا أراه بعيني، بل كنت أراه بإحساسي وإدراكي وكل كياني، وعلى الرغم من أنه كان نائماً، كان ينظر إلى بنوع من الحسرة والحزن.

هل أستطيع أن أتحدث عن هذا الإحساس الذي سخر روحي ونفسي لعدة لحظات فقط؟ حتى الوصول إلى إحساسي هذا يبدو مستحيلاً. الآن أفكر به في خلوة الليل وأراجعه في ذهني.

كانت تلك اللحظات الغريبة التي جلس خلالها ذلك الرجل أمامي وتحدث عن حادثة الرجل النتن كالبرق الخفيف الذي يلمع في السماء أو مثل السراب الذي يظهر لأقل من لحظة ويختفي، ذلك الإحساس الغريب أظهر نفسه في قعر خيالي وتفكيري، واختفى مرة أخرى حينئذٍ، والليلة ودون رغبة أجد ذلك الإحساس قد أتى خلفي، مثلما حين أردت أن أفهم كيف ولماذا في أقل من خمسة أيام أحصل على أجرين بالمقدار نفسه مقابل عملين مشابهين بعضهما لبعضٍ، وفجأة كان يبتلع النمل تفكيري وخيالي.

يخطر في بالي كلام سميرة، كانت قد روت لي أن أبي في يوم من الأيام كان قد وضع قطعة من النقود في يد فقير وبعد دقائق رافق رجلاً أعمى أيضا إلى الطرف الآخر من الشارع، وفي يوم آخر من الأيام رافق رجلاً غريباً إلى العنوان الذي كان في يده، وعلى الفور قد وصل رجل آخر وسأله عن عنوان آخر، وكان أبي قد رافق ذلك الرجل أيضاً، كانت قد ذهلت بسبب تكرار هذه الأمور وقالت لأبي: يوجد حديث قدسي ينقل قول الله: "عندما يقترف العبد المؤمن ذنباً لا يموت حتى يقوم به مرة أخرى، وإذا أدى عمل خير لا يموت حتى يقوم به مرة أخرى".

كان أبي قد رفع كتفيه مجيباً سميرة وقد استغرب، وأمي تنظر إلى سميرة بغضب؛ أي حديث هذا!؟ ثم بعيداً عن نظر أمي جاءت إلى سميرة وأرتني الحديث، كان يشير إلى هذا المعنى بشكل دقيق، حتى قالت: إن يوسف قد هزئ منها وقال لها: قد فهمتِ الحديث بشكل خاطئ!

على أي حال أفكر في نفسي ربما تكون حادثة اليوم تتعلق بذلك الحديث، ربما يكون جواب هذا السر مخفياً في هذا الحديث؟ لكن هل من الممكن الوصول إليه بينما تراكم العشق والتعلق برُخساره في صدري؟ كم يمكنني أن أنجح بكشف هذا السر الغريب؟ أولاً- هل كان عملي هذا ذنباً؟ ثانيا- لو كان المقصود من هذا الحديث العبد المؤمن هل يصدق في شأني أنا أيضاً؟ أنا الذي لا أؤدي من الواجبات الدينية سوى الصلاة وحتى صلاتي شكلية أصلي من باب العادة ليس أكثر، ونادراً ما يخطر الله على بالي، فكيف يمكن أن أكون من زمرة المؤمنين؟ بعد هذا كله هل يمكن أن يصدق هذا الحديث في شأني؟

في الظاهر لا يمكن أن يكون فعلي هذا مشوبا بالذنب؛ شخص ما طلب مني طلباً، واستلمت أجراً مقابله، وهذا الطلب كرر من قبل شخص آخر، وعملي الثاني يشبه بخصائصه ودلائله العمل الأول، لكن الآن عليّ أن أجد علاقة بين هاتين الحادثتين وذلك الحديث، أو أن أفهم العلاقة بين الحادثتين أولاً، وهل أصلاً هناك علاقة بينهما؟ لكن في هذه اللحظات لا أريد أن أفكر بأن عشقي قد أختلط بهذه المعاني الغريبة والحوادث الغريبة المثيرة للدهشة التي تشدني دون إرادة صوبها.

هل لا ينبغي لي أن أندهش من أنه في اللحظة نفسها التي ذهبت فيها لأغلق النافذة بالرغم من أن الأجور المتساوية المقدار كانت قد شغلت تفكيري قررت أن أفكر بالرجل المسحور؟ لكن النمل والأجور المتساوية والرجل النتن وحكاية أبي وكلام سميرة منعتني من التفكير به.

حقا غريب! بينما كان بالي مشغولاً بالتفكير بذلك الرجل الحائر حالت هذه المعاني والحوادث بيننا ليخلد مرة أخرى في ذاكرة النسيان، لكن إذا كان من المفروض أن يُنسى لماذا تحول أسباب أخرى دون ذلك؟ فهو غالباً ما يسارع إلى الحضور في كياني ودون أن أكون راغباً بذلك، وكم يشغل بالي به كما لو أنني قد وقفت لأتأمل طلوع الشمس في الأفق الشرقي.

أتذكر تماماً أنه عندما كنت أريد أن أتحرر من شر هذه الحكاية فرشت أمامي مأدبة الموت ودهشت عيني بحكايا موت آخرين، وكتبت حكاية ناس هم ذاتهم لم يصدقوا كيف ماتوا بهذه السرعة، لكن ماتوا وخلدوا في ذاكرة النسيان، وعلى حد قول صاحب عملي الذي حمل معه مأدبة الموت: "لم يتسنَّ لهم حتى أن يروا من أي صوب غافلهم الموت، ودون أن يتوبوا أو يتحضروا لهذه اللحظة الحتمية استقروا في دنيا أخرى وفي أرض أعمالهم".

لكنني كنت أعلم أن هذا ليس من محض المصادفة، وعلى الفور وقعت حادثة المقبرة والرجل النتن. في الحقيقة تكررت الحادثة مرتين لتحول دون قيامي بهذا العمل، والآن قد تأكدت من أنه عندما أتخلص من الرائحة النتنة لتلك الجثة، وبالضبط في اللحظة التي أجري فيها القلم على الورقة لأبدأ

قصة الرجل المسحور، ستظهر أمامي عقبات أخرى، وستقع حوادث جديدة لتحول من كتابتها، والغريب أنه عندما توجد عقبة في طريقي ينشغل كل تفكيري بها.

في هذا الوقت من الليل الذي يهطل خلاله المطر ويحيط الصمت البارد بغرفتي هل أنا قادر على أن أنهض، وأدون تلك الحكاية السحرية؟ لا، لست قادراً على القيام بهذا العمل؛ لأن الرائحة الكريهة للجثة نفذت إلى صميم عقلي، وانتشر بخارها الأبيض حتّى إنني لم أعد قادراً على رؤية أي شيء.

قد تبدد كل شيء، وتلاشى كل مكان، وبقيت حائراً حول الرجل النتن دون أن أعلم الذنب الذي اقترفه حتى آذت رائحته الإنسان بهذا الشكل، وتيبس النبات..

-١٣-

لا أتذكر في أي ساعة أطفأت المصباح الكهربائي، لكني استيقظت في الصباح على صوت أنين غير واضح، لم تكن هناك إضاءة، في الوقت الحالي تتضح ماهية الأصوات التي كانت تزعجني أثناء النوم.

أنهض من النوم وأخرج من الغرفة، أسمع صوت أنين أمي، أصاب بالخيبة رويداً رويداً، قبل أن أدخل غرفة الجلوس تفتح سميرة باب غرفتها.

- استيقظتِ؟ تعالي، أمي هنا.

تجلس أمي بالقرب من النافذة وبسبب شدة الألم تضغط على وسادة الريش التي وضعتها بين ضلوعها، من الواضح أنه ألم شديد جدّاً، فليس من عادتها أن تئن حين الصداع، فقط تجلس بالحالة التي قد اعتادتها وتحرك كل جسدها تبعاً لحركة رأسها، من المؤكد أنها تتألم كثيراً حتى ارتفع صوت أنينها، من المكان نفسه الذي تجلس فيه ترفع رأسها وتلقي نظرة عليّ، فألقي عليها التحية وأتقدم، سميرة تذهب وتجلس قربها، أصفر لون وجهها كأمي، ثم تلتفت إلى وتقول: "أبي قال: قولي ليونس ألا يذهب إلى عمله اليوم؛ وأن يأخذ أمه إلى الطبيب".

لا أتكلم. أجلس تحت النافذة. تتابع سميرة:

- سوف آتي معك.

- تناولت دواءها.

- نعم كله. تناولت كثيراً أيضاً، لكن لا فائدة. فطورك جاهز، تناوله لنذهب، أمي تتألم كثيراً.
- لا أريد. تهيئي لنذهب.
- لم تأكل أي شيء؟ يضعف جسدك!
- لا مشكلة. تهيئي لنذهب.

يسارعون بإبرتين من المسكن لتحسين حالة أمي، يخف ألمها كثيراً، نعود إلى المنزل ولا نفارقها أبداً حتى الظهر.

يعود أبي أيضاً عند الظهر إلى المنزل على خلاف العادة تعباً وقلقاً، لكنه عندما يرى ألم أمي قد خف يرتاح باله، يتناول غداءه ويعود مرة أخرى إلى عمله.

تحسن حال أمي والتفتت إلى وقالت: عطلت عملك اليوم.

- لا، لا يهم.

تسألها سميرة: هل تتألمين؟

- لا، الحمد الله. وصمتت.
- الحمد الله!
- اذهبوا تابعوا عملكم، أريد النوم، أنا بخير.

نخرج من غرفة سميرة ونذهب معاً إلى غرفة الجلوس، تبدو سميرة حتى الآن متعبة وقلقة، تقول لي ماذا حدث ليلة البارحة:

كنا مستيقظين كل الليل، لا نام أبي ولا أنا، كان من غير الممكن النوم، كان مصباح غرفتك مضيئاً، اعتقدت أنك صاحٍ، قال أبي: " إذا كان يونس مستيقظاً خذا أمك إلى الطبيب"، أتيت فرأيتك نائماً، أطفأت المصباح.

كانت أمي تقول: "لا أحب أن أذهب في هذا الوقت وتحت المطر إلى الطبيب، ماذا يستطيع أن يفعل الطبيب؟ سيحقنني بمسكن، ويخف الألم فقط، لن يعالج ألمي..." كان أبي متعباً جدّاً لكنه لم ينم.

قلت:

- إذا تعبت، اذهبي ونامي.
- قد تعبت كثيراً. متضايقة.
- اذهبي ونامي، عندما تستيقظين نذهب لزيارة قبر عمنا.
- أحقاً تقول. إنني متضايقة جدّاً. اشتقت له كثيراً، لكن ماذا بشأن عملك؟
- فات أوان العمل الآن، نامي واستريحي، عندما تستيقظين نذهب مع بعض إلى قبر عمي. تعلمين، وجدت شيئاً غريباً جدّاً هناك، إذا أريتك إياه فلن تصدقي، سوف تندهشين كثيراً.
- ما هو؟
- شيء غريب جدّاً، لا أستطيع أن أقول ما هو الآن، سوف ترينه بنفسك لاحقاً.

حينما تأذن لنا أمي أن نذهب معاً إلى قبر عمي أذهب بنفسي إلى سميرة، أنا أسعى للحصول على فرصة لأتحدث معها حول ما قالته لها أمي في ذلك اليوم، لكن لا أعلم لماذا وبلا إرادة خطر ببالي ذلك الشاب الخائب وأصبحت متشوقاً لترى سميرة بعينها أيضاً ذلك الشبه غير العادي.

حينما أصل إليها أنتبه أنها تتحدث مع تلك الملاك الغيبية:

- إلى أين تأخذينني؟ ما هذا المكان؟ كم هو جميل!

أصبر حتى تنتهي محادثتها، أذهب نحو النافذة، تبتعد الغيوم عن بعضٍ في السماء الزرقاء، وما تزال شمس الخريف تسطع.

مرة أخرى تستحوذ سميرة على تفكيري، أعود إليها، الآن جالسة تنظر إلى:

- سميرة! أنتِ على ما يرام؟
- نعم. متى أتيت إلى هنا؟
- في الحال، رأيتك لم تستيقظي بعد، قلت في نفسي آتي وأوقظك، لكن لم يسمح لي قلبي بإزعاجك، من الأفضل أن نذهب الآن، إذا تأخرنا يحل الليل ونحن هناك.
- يا ليتك كنت أيقظتني.
- لا مشكلة، الآن استيقظت بنفسك.
- لنذهب؟
- أنا جاهز.
- أتريد أن نذهب خلف رُخساره؟ هي أيضاً ترغب بالذهاب معنا.

بالرغم من أنني أعد اللحظات للقاء رُخساره لا أريد أن ترى هي أيضاً ما أرغب بأن أريه لسميرة، ربما تستاء، ربما تعدّه نحساً، ولهذه الأفكار والتصورات أجيبها: الآن لا، ربما في المرة القادمة، ليس لدينا كثيرٌ من الوقت الآن.

- كما تريد، لكن ماذا بشأن أمي؟ ستبقى وحيدة.
- أمي حالها جيد، قد سمحت لي بأن أخذك معي، أسرعي.
- حقاً تقول؟ جيد جدّاً!

نخرج من الغرفة، أمي ما تزال نائمة، تنظر إليها سميرة جيداً وبعد أن يطمئن بالها تغسل وجهها وترتدي العباءة، وهي تكرر أنها كانت ترغب منذ وقت طويل بأن نذهب معاً لزيارة عمي، وتنطلق خلفي.

نصل إلى قبر عمي عند الغروب، تكلمنا أثناء الطريق كلاماً عادياً أغلبه عن رُخساره وصداع أمي.

تتحدث سميرة مع عمي ما يقارب ربع ساعة وتذرف الدموع. بعدما خففت الدموع من حزنها واشتياقها نهضت من قرب القبر كما لو أنها قد نسيت كل شيء، تقول: لنذهب، يكاد يحل الليل.

لكنني لم أنسَ، وبالرغم من هذا لا أتحدث.

أنطلق بالطريق التي أعرفها وسميرة خلفي.

لم يمضِ وقت طويل حتى تتعجب سميرة من توقفي بين صفين من القبور.

- لماذا توقفت؟
- انظري، انظري، ماذا ترين؟
- ماذا أنظر؟
- انظري هناك.
- ماذا هناك؟

تنهي كلامها باضطراب، ثم تصمت ومن ثم تعود بهدوء تحدق بعيون ملأى بالدهشة بصورة الشاب الخائب، تتقدم ودون أن تريد إجابة عن سؤالها تقول: من يكون هذا؟ يونس؟

تعود وتحدق بي كأنها تشعر أن عينها تخدعها، تقول: هل تمزح معي؟

أقترب أكثر:

- كنت أريد أن أريك هذا. تصدقين؟ نعم؟

- لا. لا أصدق. من يكون هذا؟ ما اسمه؟

- لا أعلم.

تنحني سميرة لتقرأ ما كتب على القبر، وأنحني معها على الرغم من أنني كنت قد واجهت المجهول لمرات عدة.

تدقق جيداً بالمكتوب، تقول: لا يمكن قراءته، مُسح، مسكين! قد انتهى كل شيء يخصه.

ثم تنظر إلى ثانية وتقول باستغراب: لكنه يشبهك كثيراً، أنت نفسك لم تستغرب؟

- نعم بالتأكيد، لكنني أرغب أكثر بأن أعرف من يكون؟

تغرق سميرة في التفكير وتحدق مرة ثانية بصورة الشاب الخائب.

أصل أعلى قبر ذلك الشاب الخائب كي أرى ردة فعل سميرة بشكل جيد، أشعر أنه لم يكن لديها خبر بوجود هذا القبر، ترفع رأسها وأنا جالس أحدق بصمت بوجهها حتى تتكلم. حينئذٍ تقول: قريب جدّاً من قبر عمي، أبي سيتعجب كثيراً إذا عرف.

- لا، لا تتكلمي، لا أريد أن يعرف أحد أبداً، رغبت أن تريه أنت فقط.

- ما تقوله صحيح، من الأفضل ألا يفهموا.

يكفي أنك رأيت أنت بنفسك. سميرة! تستطيعين أن تساعديني؟

- كيف أساعدك؟

- قلت في نفسي ربما تعرفين من هو؟
- من أين لي أن أعلم؟ أول مرة أراه؟

ثم تلقي بنظرة حول المقبرة وتتابع:

- تعال لنذهب، يكاد يحل الظلام، ليس من الجيد أن نبقى هنا.

أنهض من قرب القبر دون أن أفهم شيئاً، وخلال الطريق أقول ما أود قوله:

- كنت أعتقد أن من المؤكد أن له صلة بنا؛ ربما كان لدينا أخٌ يشبهني.

تفكر سميرة بما أقوله.

- ما رأيك؟ أنت بماذا تفكرين؟

تقول سميرة: لا أتذكر شيئاً، لا أظن، لو كان بيننا صلة لكنا علمنا بالتأكيد.

- ماذا عن عمي؟ لم يكن لديه ابن يشبهني؟
- لا، ما هذا الكلام! ألست تعلم بنفسك؟ كانت لديه ثلاث بنات فقط، وقد توفين في الطفولة أيضاً. يا إلهي! ما كان الذي أريتني إياه؟
- لماذا؟

- تضايقت، أقصد أنك تعلم! هو بعيد عن روحك، لكنه يشبهك كثيراً.
- كنت قد قلت لك قبل هذا، لكنك لم تنتبهي.
- متى؟
- أظن منذ عدة أشهر، كنت قد جلست عند أمي، كانت أمي مصابة بالصداع، أتذكر جيداً أني قلت لك عن هذا الأمر، لكنك لم تقولي أي شيء، لذلك لم أقل شيئاً بعدها، اعتقدت أنه لربما أبي وأمي كانا يريدان أن يخفيا عني شيئاً ما.

تقف سميرة فجأة كما لو أنها قد ارتعبت من كلامي، بدأت شفاهها ترتجف، تنظر إلى بقلق غريب، تقول: لا.

- لمَ لا، لست مطمئناً. قلت في نفسي ربما أنت تعلمين.

يزداد خوف سميرة وتزيد من سرعتها، تأكدت بعدها من أنهم قد أخفوا شيئاً ما عني، وسميرة أيضاً لديها خبر عن كل شيء حدث.

تمنحني هذه الحقيقة قوة القلب والأمل، أنا أيضاً أزيد من سرعتي وأتقدم معها خطوة بخطوة، خلال الطريق تقول سميرة: نحن كبرنا معاً داخل منزل واحد، لو أن هذا الشاب يمت لنا بصلة كان يجب أن نعلم بالتأكيد.

- لكن ذاكرتي لا تعمل بشكل جيد، لا أتذكر الشيء الكثير عن الماضي؛ فأنا لا أعلم منذ خمس سنوات ماضية ما الحدث المهم الذي قد وقع داخل منزلنا أو فيما حولنا.

تقف سميرة وتنظر إلى بنوع من الشفقة، كأنها تريد أن تفشي سراً ما، لكن كما لو أنها تذكرت شيئاً ما فجأة تعض على شفتها وترفع نظرها عني وتتابع طريقها، وبينما أتقدم معها أسمعها تقول: مثلاً ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟

- لا أعلم، لكن أي حدث قد وقع، أنا لا أتذكر شيئاً.
- ربما لأنه لم يقع أي حدث، لا أعلم، لكن على حد ما أعلم لم يقع أي حدث مهم.

تنظر إلى مرة ثانية، تقلل من سرعتها، تقول: لنذهب ونركب السيارة، يكاد يحل الليل.

- لا، لم يتبقَ الكثير كي نصل.

أظن أنها تريد أن تقطع حبل الحديث، لكني أراقبها، أتابع كلامي:

- لا أعلم لماذا ذاكرتي لا تعمل بشكل جيد.
- لماذا؟
- قد أصبحت أنسى كثيراً، من الأفضل أن أعرض نفسي على طبيب نفسي.

على الرغم من أن سميرة لا تريد أن توضح الحقيقة المخفية، من باب الشفقة وعلى نحوٍ غامضٍ تساعدني لأستطيع إفشاء السر المخفي، لهذا تقف وتقول: لا حاجة للطبيب، فقط يجب أن تطلب من الله، الله يساعدك، أطمئن، أنا متأكدة من أنك ستنجح، هذا ما قالته لي الملاك الغيبية.

- ماذا قالت؟
- لا شيء. فقط قالت يونس في النهاية سيصل إلى ما يأمل به، وأنا متأكدة أنك ستصل، لا تنس الله، يونس!

على مقربة من البيت تصاب سميرة بصداع، وبدوار أيضاً، وتبدو قلقة جدّاً. أقول:

- لستِ على ما يرام؟
- رأسي يؤلمني كثيراً متضايقة كثيراً.
- لماذا؟
- إذا سمعت أمي بل إذا شمت أمي رائحة هذا الكلام ستتضايق. ستقول بلا شك: إنني من يضايقك بهذا الكلام.
- لماذا تفكر على هذا النحو؟

- لا أعلم.
- سميرة! لمَ لا تتكلمين؟ لماذا تقولين لا أعلم؟ قولي لماذا أمرتك أمي ألا تتظاهري أمامي؟ لا، ليس صحيحاً، أنت لا تتظاهرين ولم تتظاهري أبداً أيضاً، عبادتك حقيقية، وأمي تعلم هذا، لكن لماذا تقول هذا الكلام؟
- من قال لك؟
- لم يقل لي أحد، أنا سمعت بأذني، لا يمكنك إنكار هذا الكلام.
- أنا لا أتذكر شيئاً.
- لكن أنا أتذكر ولا يمكن أن أنسى أبداً.
- إذا قالت فبالتأكيد لأنني أصلي أكثر من البقية، أعني أن أمي كلما كان لديها عمل معي رأتني أصلي أو مشغولة بالدعاء، بالتأكيد من أجل هذا.
- سميرة إن تُقسمي أن أمي لم تقل لك هذا الكلام، فحينئذٍ أصدق بأن ما سمعته خطأ.
- لا، لا يمكنني أن أقسم، أنت تعلم أنا لا أقسم أبداً.
- إذن لماذا تعترض أمي عليك؟
- بشأن ما قالته! بسبب المشكلة نفسها.
- ما المشكلة في صلاتك ودعائك؟ يعني أنت تريدين أن تتهربي من أعمال المنزل؟
- لا، أنا أقوم بكل أعماله ثم أنجز أعمالي الخاصة.
- إذن على ماذا تعترض؟
- لا. لا تعترض كثيراً...لا أعلم... لا أعلم، اتركني وشأني، لست على ما يرام. أقول لك: عليك بالدعاء فقط! ادعُ يا يونس! لا تسألني عن شيء،

كل ما تريده أطلبه من الله، هذا فقط ما يمكنني أن أساعدك به، تأكد أنك ستنجح، أنا على يقين أنك ستنج وستصل إلى ما تأمل به، ليت عينيك لم تقعا أبداً على قبر ذلك الشاب.

- لماذا سميرة؟ من أجل ماذا؟

- لأنه يشغل تفكيرك، لا يساعدك على الإطلاق، أنت تريد أن تتزوج من رُخساره لكنني أعلم أن بالك غير مرتاح.

- صحيح، أنت فهمت أيضاً، لكن لماذا؟ قولي لي.

- لا أعلم لماذا؟ قلت لك بأنه لا يجب أن تنسى الله، هو وحده من يستطيع مساعدتك يونس!

- ماذا؟

- لا تقل لأمي أبداً! ستتضايق كثيراً، ستفكر أنه أنا من يزعجك.

- لا سميرة، ليطمئن بالك، أعدك وأنت تعرفينني، ليطمئن بالك.

- سأعول على كلامك.

- انس على الإطلاق، لا داعي لأن تفكر به، كان خطئِي، أزعجتك، صدقني لم أكن أريد أن يحدث هذا.

- لا، ليس كذلك. أنا من أزعجك.

- ما هذا الكلام!

- أقول الحق، ليتني لم آتِ معك.

- ما هذا الكلام! لا، أنت لم تزعجيني، لا تقولي هذا الكلام.

نصل إلى المنزل، الباب مفتوح حتى المنتصف، ندخل لكن تتعلق نظراتنا بأعلى الدرج، أمي تقف قرب الدرج، وتنظر إلينا بقلق.

-١٤-

في الغد أذهب إلى المكتبة قبل مجيء صاحب عملي، لكن لم أكد أواجه الرجل النتن حتى دخل من الباب، ألقي التحية فيرد ببرودة أعصاب ويسألني فقط لماذا لم آت البارحة إلى العمل؟ أوضح بشكل كافٍ وهو دون أي اعتراض ينشغل بعمله.

دون أن ألفت الانتباه أفتح درج طاولتي وأخرج كتاباتي، بالرغم من أنني أتجول حول الجثة، لا أستطيع أن أنسى كلام تلك الملاك، أجلس بالقرب من الجثة النتنة وهناك تخطر ببالي المقبرة.

ما أزال أرى سميرة كما لو أنها ارتعبت من شيء، هذا هو السر الذي لم ينتشر بعد، ما تقوله تلك الملاك مرموز أيضاً، لم أفهم من كلامها شيئاً، تشير فقط وتمضي، لا تتكلم بصراحة وتتركني حائراً.

مطمئن من أن سميرة تفهم مغزى كلامها، لكنها لا تظهر، هل الإفصاح عن هذا السر المخفي مؤلم إلى هذه الدرجة حتى احتفظوا به مخفياً عني؟ ما الحكمة المخفية من زواجي برُخساره حتى يعد أهل المنزل وأمي اللحظات للوصول إلى تلك اللحظة؟ هل لمجرد تعلقهم بي؟ أو لأن وجودها أيضاً سيبعدني أكثر من قبل عن الحقائق المتعلقة بي؟ لكن كيف لهذا الاحتمال أن يكون ممكناً؟ هل ظهر حديثاً حبي وتعلقي برُخساره أو أنها رغبة شخصية وجنسية؟ لم يلقني أحد قطّ هذا الحب وأنا شاهد على هذا

المعنى، وهل من الممكن أن يلقن العشق تلقينا إلى الآخر أو أنه دون أن يكون لدي رغبة أهب نفسي لعشق لا أكون راغباً به أبداً؟

متأكد أنها تريد أن تفهمني شيئاً ما، لكنها تهرب وتخاف من شيء لا أعلم ما هو، في الظاهر لديها مخاوف من أمي، لكن لماذا؟ لا أعلم، كلام سميرة مملوء بالمعاني، هي ترغب أكثر أن أكون ذاكراً لله وأن أعبده، تهديني بهذه الطريقة لأجد ما أنا ساع له، لكنني أحسبها في نفسي، صحيح أن الله قادر على أي شيء، ألا ينبع كلام سميرة هذا من باب حبها وعشقها وعادتها؟ ألا تريد بكلامها هذا أن تقربني من ميولها وسلوكها؟ ربما لهذا السبب تنهاها أمي عن التظاهر أمامي، لكن ما هو السر الكامن في عملها هذا؟

أفكر في نفسي، بدأ كل هذا الغموض منذ أن تسللت حكاية الرجل المسحور إلى تفكيري وخيالي، تراود عقلي هذه الحكاية دون أن أكون قد فكرت حول هكذا حكاية.

حقاً ما السبب الذي أدى إلى أن تراود عقلي هذه الحكاية؟ كيف صنع عقلي بنفسه هذه الحكاية من قبل، ولماذا يجب أن أشعر بهذا النوع من الصلة بيننا؟

هذه هي الأفكار التي قد شغلت عقلي بها وقد عكرت صفاء مرآة عشقي الطاهر والشفاف. رُخساره لم يكن لديها خبر بهذه الأفكار ولم تخطر هذه الأفكار على عقلها ولا حتى لحظة واحدة، أنا أحد طرفي هذا العشق، ويجب أن أحترق بنار ذكراها، وأن أتوه في هذه الأفكار الصامتة والمملوءة بالغموض والخيال، هي بعيدة كل البعد عن هذه الميول والرغبات، وتحب

فقط أن تعنتي بدراستها وتدعوني للصبر غافلة عن أنني أشعر أن هناك شيئاً من البعيد يقترب مني بهدوء.

شيء غريب يتمتع بجاذبية مثيرة للحيرة لا أعلم ما هو؟ الغريب أنه كلما أفكر بالرجل المسحور، وأنه بأي دنيا قد غرق يرتسم هذا الشيء الغريب الذي يبدو كقوة غامضة، كانعكاس النور في خيالي.

شيء كوجود قلب ثانٍ في الجسد الواحد، أو كوجود مركز آخر للتفكير في رأس وعقل الإنسان، ليس بوسعي أن أصفه، أشعر فقط بوجوده، وهذا أيضاً في بعض الأحيان ولا سيّما حين حضور ذلك الرجل المقدس.

وكلما التفتت حواسي إلى هذا الإحساس الغير معروف لاإرادياً تقل رغبتي برُخساره، وهذا هو ما يخيفني؛ لأنه قبل أن يحل عشق رُخساره في حياتي لم يكن لها الكثير من المعنى، لكنها الآن قد حلت حياتي بمعنى جميل ومحبب، والآن كل ما أسعى له هو الوصول إلى ما أحلم به.

أحياناً أفكر في نفسي؛ كم هو بعيد عني هذا الأمل؟ إن اجتزت هذه الأفكار المتشابكة والمملوءة بالأسرار والرموز، يبقى القليل من الوقت الذي يجب أن يمضي، حينئذٍ دون شك سيثمر عشقي.

بالرغم من أن كلام الملاك الغيبية غير مفهوم إلى حد ما، تحثني على أن أسعى أكثر، إلى أي مغزى يعود معنى كلامها؟ هل معرفة حقيقة الرجل المسحور أملي؟ ربما أرغب أن أدرك سره، لكن من المحال أن يكون هذا أملي، أملي يتجلى في الوصول إلى رُخساره واحتضانها.

تصل رائحة الجثة النتنة مرة أخرى إلى أنفي، قد أحاط البخار الأبيض بكل مكان، قد أمتلأ رأسي بالألم، لا يوجد أحد غيري حول هذه الجثة المنحوسة، عندما أنظر أخاف أكثر، قد أحاط البخار بكل النهر والغابة وأطراف المدينة مثل الضباب الشتوي، ما تزال الجثة وكأنها تُطهى على حرارة شديدة، والبخار الذي يتصاعد منها خانق لدرجة أنه قد أجبر الجميع على الفرار.

خلت المدينة حتى الطيور والزواحف تُهاجر منها أيضاً، يترك الناس المدينة ويسارعون نحو الأفق، إلى الطرف الآخر من الغابة بعيداً عن النهر والجثة.

تذكرني كلمة الزواحف بمنام البارحة؛ كنت أستحم داخل صندوق، وحينما خرجت جففت جسدي، وذهبت أبحث عن ثوبي الأبيض، وجدته وقدمت لأحمله بيدي وارتديه، لكنه أصبح ثقيلاً، فتحت ثناياه من بعضٍ، رأيت أفعى سوداء ملتفة بعضها حول بعضٍ داخله، تراجعت مرتعباً وعارياً، وفررت إلى السهل والصحراء.

رأيت وسط الطريق الرجل الذي كنت قد قابلته بالقرب من قبر ذلك الشاب الخائب، كان يحمل بيده ثوباً.

وصلت إليه مضطرباً، ألبسني الثوب، لكنني انتبهت أنه يحمل تحت إبطه ظرفاً، أخذ الظرف بيده وفتحه، وأخرج منه مبلغاً من المال، وأعطاني إياه، وأنا في حيرة من أمري، رأيت كتابات مأدبة الموت التي كان قد باعها صاحب عملي إلى صديقه، كانت الكتابات في يد ذلك الرجل، أبتسم وقبل أن أنطق بحرف ذهب، كنت قد حِرت بأي جهة علي أن أذهب، فجأة رأيت رُخساره، كم سررت برؤيتها!

مشينا معاً في حقول القمح وقرب النهر الفضي اللون، واستمتعنا مدة بلقاء بعضنا بعضاً عيناً بعين، كنا نتبادل أطراف الحديث الجميل الممتع، لكن فجأة أصبح الجو عاصفاً، وأضعت رُخساره حيثما نظرت لا أراها، حتى وقعت عيني على أفق السهل، كان راكب يقترب لكن عندما اقتربت رأيت غير مصدق سميرة قد وقفت ودعتني للركوب، وكنت حينئذٍ ما أزال أفكر برُخساره، رأيت رُخساره وناديتها عدة مرات لكن سميرة لم تنتبه لرُخساره، وكانت مبتسمة وتدعوني للركوب.

أحدق حولي لآخر مرة، لم يتبق أثر لرُخساره، اقتربت من سميرة وساعدتني على ركوب الخيل، وسارع الخيل نحو السهل والأفق والبحر الشاسع.

-١٥-

لم يفارقني خيال رُخساره. عندما يحل الليل لا أنام نوماً هنيئاً كالناس التائهين والحائرين والآن غير قادر على العمل، انتبه صاحب عملي إلى وضعي، اعتقد أني مريض، يقترب ويقول: كأنك مرهق ومريض!

- لا ليس كذلك.

- بل نعم، متوتر، حالك ليس جيداً، ما مشكلتك؟

- لا شيء.

- كالعادة مشتت الحواس، اذهب واسترح يوماً أو يومين، ثم تعال إلى عملك.

حِرت فيما أقول، نظرت له على النحو نفسه، ليس لدي ما أقوله، لا أريد أن أكذب ولا أريد أن أقول له حتى ولو كلمة عما بداخلي، بالإضافة إلى أن هنالك شيئاً يجبرني على السكوت.

حتى نطق صاحب عملي بنفسه:

لا داعي لأن ينشغل بالك بالتفكير في المكتبة، أنا موجود، حينما يتحسن حالك تعال إلى عملك، لا تفكر كثيراً، يحق لك كثير من الإجازات، حسناً قم واذهب الآن.

ذهلت لاقتراحه، لم أكن أفكر بهذا أبداً، ينهض فجأة يأتي أمامي ويسأل عن حالي ثم يقول: اذهب استرح حتى يتحسن حالك.

ما معنى هذا؟ كما لو أنه يعلم أن تفكيري وحواسي يجولون في مكان آخر، لا لا، ينبغي ألا أنطق بحرف عن كلام أنا نفسي أيضاً لا أؤمن بحقيقته؛ كيف من الممكن أن يكون على اطلاع؟ بالتأكيد كان فعل الله، هو فقط من يعلم أنني مرهق، على الرغم من أن صاحب عملي قد فهم من شكلي أنني مرهق ومتعب، لكن لا يجب أن تبدو حالتي له مزرية إلى درجة أن يدعوني إلى الذهاب والاستراحة، يخطر ببالي أنني مرضت عدة مرات، لكن في أغلب هذه الأوقات كنت حاضراً في مكان عملي، حتى إن صاحب عملي قد رأى كيف سطرت الأدوية على الطاولة؟ وكيف انشغلت بتناولها؟ لكن لم يرني ردة فعل معينة، وكان يتعامل معي بشكل عادي.

كان يسأل فقط عن سبب المرض وإن كان هناك من ضرورة يقدم نصيحة أيضاً، أو كان يروي أحداث ذكرى معينة، أو اثنتين حول ذلك المرض، ومن ثم كان يذهب إلى عمله، في اليوم التالي كان يسأل أيضاً عن حالي، لكن ليس بشكل يدعوني فيه إلى ترك جو العمل، كان وضع البيع وتردد الزبائن كما هو الآن أيضاً.

ألستُ بحاجة إلى مغادرة مكان عملي والتجول والتسكع في محيط عشقي؟ هل هذه الحرية ليست الشيء الذي كنت آمله؟

لو أقول: إنه فعل الله ليس بلا سبب.

أقر بأنه وقبل أن يصدر صاحب عملي حكم الحرية بدقائق كانت قد عادت فجأة ذكرى المقبرة إلى نظري، الزمن نفسه الذي كنا قد وقفنا أنا وسميرة قرب قبر ذلك الشاب الخائب وكنا نتكلم عليه.

قد شغلتني هذه الذكرى بنفسها على النحو نفسه، كان كلام سميرة يمر في عقلي كلمة كلمة كشريط، وهذا الكلام الذي قالته "اطلب المساعدة من الله" ما يزال يسيطر عليّ بجاذبيته.

وقع حدث آخر أثناء هذا الاضطراب الغريب؛ ارتسمت مجدداً نفس تلك القوة القادرة والغامضة وبعثت في نفسي إحساساً غريباً، لكني سعيت في تلك اللحظات أن أكون ذاكراً لله، وأن أستعين به.

لقد كانت الجاذبية الشديدة لتلك القوة الغزيرة وغير الواضحة تشد كل حواسي وفكري نحوها، أستطيع أن أقول: إنني في أقل من لحظة واحدة فقط طلبت العون من الله. ربما من الأصح أن أقول: إن كلام سميرة والإحساس بالوحدة والبعد عن رُخساره اختلطت بذكر الله أيضاً خلال هذه اللحظة السريعة، وبلا أن أكون قد طلبت العون منه بشكل واضح أو حتى في قلبي، أي بلا وعي وبطريقة غير مباشرة بعد أن اعترتني هذه الحالة الخاصة بدا فجأة صاحب عملي أمامي ودعاني إلى الذهاب والاستراحة.

لا أعلم أي مشكلة تُحل بالإجازة، لكنني أشعر أنني بحاجة للحرية، شوقي لرُخساره أفقدني عقلي، عشقها يجري في عروقي مع الدم وحينئذٍ يحل في قلبي على شكل هالة من النار، بهذا السبب تركت الجثة النتنة وشأنها وخرجت من المكتبة، مع هذا بقيت وكأنني حائر وتائه في صلب الحرية؛ أين أذهب؟ لا أعلم، من المؤكد أنها في المدرسة في هذا الوقت، لا يعالج الذهاب إلى منزلها دائي، أقف فجأة على رأس تقاطع، وحيد وتائه وحائر وكياني يمتلئ بالعشق والحب، لا أرغب على الإطلاق في الذهاب إلى المنزل، لماذا أذهب؟ قد شغف قلبي برُخساره. أفكر أن أذهب إلى أطراف منزلهم أو

أتسكع حول المدرسة حتى تأتي، من المؤكد أنني سوف أراها. بقيت ساعتان حتى الظهر، أنطلق نحو مدرستها، هل تعلم ما أعانيه بسبب عشقي لها أيضا؟ ربما تجلس الآن فارغة البال، أمامها كتاب مفتوح وتستمع إلى كلام لا أعي ما هو، هل تريد أن تجيب على عشقي لها بهذه الطريقة الغريبة والمحزنة؟ كم أرغب بأن تتصرف مثلي! طالما قد عشقتها فلتبادلني العشق هي أيضاً، حينئذٍ من المؤكد ستصبح الدراسة والتكاليف أمراً عبثياً لا أكثر.

مثلي أنا قد تركت المكتبة وسحبت يدي من عملي وعلى هذا الحال أتتبع آثار أقدامها في الزقاق والسوق، ربما عدم اعتنائها بي أدى إلى أن أجن بها هكذا، خلال الطريق يخطر ببالي قرار صاحب عملي، كان قراراً غريباً وغير متوقع، قد جعلني في حيرة من أمري، لكن أليست هذه إرادة الله بأن يمنحني الحرية في مثل هذا اليوم الكئيب والممل، ويعفيني من الجلوس خلف تلك الطاولة وبعيداً عن ذلك الجو النتن الذي يحيط بالجثة؟

في ذلك الوقت الذي كنت غارقاً في بحر عشق رُخساره يبدو ذكر الله وكأنه يبتسم لي وبفعل قدرته الغامضة والغريبة تفتح النوافذ السحرية في خيالي من كل حدب وصوب، وفجأة يبدو الرجل المسحور أمام ناظري، هناك تحت السماء، رجل حائر ومندهش، خائف ومرتجف، نحيف ونحيل، عيناه مفعمتان بالحزن العميق المجهول السبب، لكن حالما تختفي الشمس خلف قطعة من الغيم يزول ويتلاشى هو أيضاً من أمام عيني خيالي.

أنطلق مرة ثانية في طريق الواصل بين مدرستها ومنزلها دون أن أشعر بالتعب، مفعم بالنشاط علماً أنني لا أعلم عنها أي خبر، هي فرحة لقائها.

انتهى وقت دوام مدرستها، لكنني لا أراها، تغلق المدرسة ولا يبقى أي أحد، رُخساره ليست بين الفتيات، أنطلق مرة أخرى نحو منزلها لكن بقلب يغص بالحزن والكلل هذه المرة، أجتاز الطريق كله على عجلة ودون إضاعة للوقت، حالما أصل إلى باب منزلهم أتردد لأنني لا أعلم ما أفعل. يبست يدي على باب منزلهم، احترت أأطرق الباب أو لا؟ أنصرف عن قراري عدة مرات، لكن من بعدها أفقد صبري وأطرق الباب، مرة ثانية أصبر، لكن لا أحد يجيبني، أحاول مرة أخرى وهذه المرة أطرق الباب بقوة أكبر، لا صوت، أسحب يدي نحو جرس المنزل مع أنني أعلم أنه عاطل، ولا يعمل لكن أضغط برأس أصبعي عليه، وحينئذٍ أصبر دقيقة، أسمع صوت الجرس الذي يقرع في أذني ينبع من أعماق كياني، ويمتد صوته إلى رأسي ليصفر داخله، وأنا كذلك أتمم باسم رُخساره رُخساره.

أتجول في الشوارع حتى بدايات الليل، ومن ثم أعود إلى المنزل، غريب! لا أحد يسأل أين كنت؟ ولماذا أتيت متأخراً!؟ على خلاف الأيام والليالي الماضية، وكأنهم قد أصبحوا لا مبالين لأمري، يزيد تعجبي عندما تخبرني أمي بأن رُخساره وأمها كانوا قد آتوا إلى منزلنا عند الغروب، كأن رُخساره كانت مريضة وقد أخذوها إلى الطبيب، ومروا بنا حين عودتهم.

أقلق، لكنني لا أقول لأمي أي شيء.

أذهب خلف سميرة، حالما تراني يرتاح بالها، وعلى الرغم من هذا تجمع سجادة صلاتها.

يبرق القلق من مجيء أمي المفاجئ في عينيها، تسأل: ماذا حدث؟ أصابها الصداع ثانية؟

- لا جئت أسأل عن رُخساره، ما حالها؟
- كانت قد توعكت وكانت حرارتها مرتفعة، أتوا إلى المنزل، لم يكن وضعها سيئاً جدّاً. لكن كانت همتها فاترة قليلاً، سألتني: متى يأتي يونس؟ قلت: قد تأخر، في مثل هذا الوقت يجب أن يكون قد أتى.
- لم تقل شيئاً آخر؟
- لا.
- غداً ستذهب إلى المدرسة؟
- لا أعلم، لم تقل، لكن الطبيب قد كتب لها استراحة.

ثم تابعت وهي تنظر إلى السماء:

- تريد أن تذهب لرؤيتها؟
- نعم. أريد أن أتكلم معها.
- من أجل ماذا؟
- حتى تترك درسها، أنا لا يمكنني أن أصبر أبداً.
- لا تكلمها.
- لماذا؟
- من المؤكد أنها لن تقبل، ألم تكلمها أمي مرة؟ ما كانت المحصلة؟ لا يحصل ألا ما يريده الله، لا تفكر بها كثيراً.
- لا أستطيع، الأمر ليس بيدي.

ثم تنظر إلي بطريقة غريبة كما لو أن قلبها قد رق لي، تريد أن تقول شيئاً، لكنها لا تقول.

- قلت: لم تتكلم علي قطّ؟
- لا، لم تتكلم كثيراً، كانت صامتة جدّاً.

ليتني كنت قد أتيت إلى المنزل مباشرة بدلاً من التجول في الشوارع، لكن لم أكن أعلم! لو أتيت إلى المنزل لكنت ابتعدت عنها أكثر، لجننت.

إذن أتجول حول منزلها أو أتسكع في الشوارع من عشقي لها، والتعلق بها قابل للقبول أكثر من احتمال ألا تكون حاضرة، لم أفترض أنها قد تكون أتت إلى منزلنا، لكنها كانت هنا في هذا المنزل، ومن المؤكد أنها قد انتظرتني، أتأسف على نحو كبير حتى تنطق سميرة مرة أخرى:

- لا تفكر كثيراً، أنا أؤمن بالقسمة والنصيب. لن يتغير مصيرك، كل ما يريده القضاء والقدر أن يحصل سيحصل، اصبر.

تقول كلامها هذا وتتركني وحيداً، وقفت أمام نافذة غرفة سميرة، لكن نظرة عيني تركزت على الباب المغلق.

أعود وأقف قرب النافذة، أنظر إلى السماء المظلمة، إلى كل جهاتها دون أن تصطدم عيني بنجمة أو بالقمر المضيء، أفكر في لحن كلام سميرة الأخير، قالت كلامها بطريقة مرموزة ومتسترة، كما لو أنها قالت الكلام الذي كانت تريد قوله، لكنها أغلقت على هيكله وأقفلت بابه بقفل ومضت، وأظن أن كل ما هو موجود كامن في المعنى الخفي للحن كلامها هذا.

أمضي ساعة داخل غرفتي أفكر خلالها برُخساره وأتصورها.

وقت النوم ومن جديد يأتي النمل خلفي، أنهض وأذهب قرب النافذة، لم يتبقَّ أثر لذرة سكر البتّةَ، قل أيضا عدد النمل، تتجول ذهاباً وإياباً بشكل فردي. أرض مصيرهم فارغة وخالية، أذهب نحو السكرية الموجودة داخل الخزانة الجدارية آخذ القليل من ذرات السكر وأمكث مرة أخرى قرب النافذة، أنظر جيداً كما لو أنني أريد أن أنظر إليهم للمرة الأخيرة.

أنحني وأضع ذرات السكر بهدوء قرب فتحة عشها، لا أصبر حتى تجتمع، يشدني خيال رُخساره بسحرها نحو النوم والنسيان، لأنني لا أستطيع الانتظار، أريد أن يحل الصباح في أقرب وقت ممكن وأذهب للقائها، حالما أريد أن أطفئ النور يقرع الباب.

يفتح الباب وأرى أمي تدخل وتأتي نحوي، تحمل بيدها كأساً مملوءةً بالفول السوداني، تقول: لم تنم حتى الآن؟

- أنام؟
- تعال، خذ هذا، خذ منه إلى مكان عملك، إلى عملك خذ شيئاً وتناوله كيلا تفتر همتك في وقت ما، اعمل قدر ما تستطيع، لا تصرف مالك، نفقة ليلة الزفاف كبيرة، انتبه.
- حسناً.
- سأجعلها داخل جيبك.

تذهب نحو جيب معطفي وتفرغ الكأس المملوء بالفول السوداني داخله، توصيني مرة أخرى حين خروجها من غرفتي:

- تعلم من يوسف، يحصل المال من الصباح حتى المساء، المال حياته، انظر حاله! أنت أذكى منه، لو تصغي إلى كلامي ستنال كل ما تريد.
- أعلم.
- جيد جدّاً، نم الآن، وغداً عندما تعود من العمل اذهب لزيارة رُخساره، إنها مرهقة، لا بد أن تذهب.
- حسناً.
- لا تنسَ.

حالما تذهب أُطفِئ النور وأتمدد.

أحسب في نفسي أنه بقيت ليلتان أخيرتان حتى أقابل ذلك الرجل المجهول، لكني لم أتحرر حتى الآن من شر الرجل النتن، لذا قررت أن أمر بالمكتبة غداً قبل أن يأتي صاحب عملي إليها، وأن أحضر الكتابات معي، يجب أن أفيَ بالوعد الذي كنت قد أعطيته لذلك الرجل المجهول الهوية، ليس لدي كثير من الوقت، ومن جهة أخرى لا رغبة لي أبداً بالجلوس خلف طاولة عملي.

قد أصبحت متعباً وضجراً، فقدت القدرة على تحمل العمل، ولا أستطيع بهذا الصدر المثقل بالعشق أن أغرق في ذلك السجن المظلم، أريد أن أتحرر، وأن أحلق في أجوائه حتى أهدأ قليلاً، لو أتيت إلى المنزل أبكر من المؤكد أني كنت جننت من لقائها.

لا يغيب عن بالي لحظة تصور لقائها، وهذا هو الذي جعلني لا أخلد إلى النوم حتى منتصف الليل بالرغم من التعب الشديد، أعلم أنها في هذا الوقت من الليل تكون نائمة وغافلة.

ذرات السكر تحولت إلى بقعة سوداء، هذا التصور أدى إلى أن يهجم النمل مرة أخرى على خيالي، لكن لن أذهب قرب النافذة لأقف وأشاهدهم، فالأفضل أن أتمدد على هذا النحو، وأحدق بالسقف المظلم، ربما تفتح طاقة وسطه تطل على حلم سعيد.

-١٦-

أستيقظ عندما تكون الشمس مشرقة. يخيم على المنزل صمت قاتل بالرغم من أن سميرة موجودة وأمي أيضاً، يفرشون سفرة الطعام أمامي لكن لا أضع ولا حتى لقمة في فمي، أتهيأ على الفور كي يعوا أنني على عجلة من أمري، سميرة فقط تنظر إلى وتضع بهدوء لقمة في فمها.

تقول أمي حين الذهاب: تناول الفول السوداني حتى لا تفتر همتك، إياك أن تجوع.

- لا، ليطمئن بالك، إلى اللقاء.

أغلق الأبواب واحداً تلو الآخر، وأخرج من المنزل، قد تأخرت، كم كان نوماً ثقيلاً وعميقاً! لا طاقة أمل ولا حلماً سعيداً، لا شيء، وصلت الليل المظلم بالصباح المشرق بواسطة أعماق النسيان المطلق.

الآن لا بد أن صاحب عملي قد أتى إلى العمل، وبالرغم من أني لا أرغب بالدخول إلى المكتبة أثناء وجوده فيها أنطلق نحوها، خلال الطريق أمر في خيالي على ذكريات رُخساره والرجل النتن ومقابلة اليوم الحادي عشر كما لو أنني ركبت وسيلة ما، وهذه هي التصورات التي تمر أمام عيني قد أضيفت إليها كلمة الله الساحرة وقدرته العجيبة أيضاً، لكن دون أي شعور أو إحساس.

لا أعلم في هذا الوقت من الصباح ماذا ينبغي لي أن أفعل، وفي أي جهة يجب أن أذهب، ماذا أستطيع أن أفعل؟ أشعر بأن هناك شيئاً يريد أن يهديني نحو تلك الأمور اليومية والمشاغل العابرة.

تصور غريب غير مفهوم، أحاول عن طريق تذكر رُخساره ولحظة لقائها أن أنسى هذا المعنى الغامض والمفعم بالإبهام.

أقف على بعد عدة خطوات من المكتبة، الباب مفتوح، وأستطيع أن أرى نصف وجه صاحب عملي وهو يرفع كتاباً من خلف واجهة المكتبة، أتوتر قليلاً؛ فلا أريد أن يراني، أقرر في المكان نفسه أن أقدم على إخراج الرجل النتن بعد الظهر عندما يغلق المكتبة.

أنطلق وأعود من نفس الطريق الذي قد أتيت منه، لكن في منتصف الطريق أنعطف نحو جهة منزل رُخساره، أنا قلق، ما يزال الاضطراب يعصف بروحي وكياني، مع كل ذلك النوم قد أضعف التعب عضلاتي، لكن أحاول من خلال تذكر رُخساره أن أودع كل هذه الحالات المملة في ذاكرة النسيان.

بالقرب من منزل رُخساره يرافقني الاضطراب ويصحبه الهيجان رويداً رويداً، لا أعلم هي في المنزل أم لا، لكن إحساسي ينبئني أنها في المنزل، بل تنتظرني! إحساس قوي جدّاً إلى درجة أنه يحرك يدي.

أطرق على الباب مرة ثانية، عندما يفتح الباب تبادر أم رُخساره سريعاً بإلقاء التحية، نتبادل السؤال عن الحال والأحوال وتدعوني للدخول، تتنحى وخلال اجتياز طريق فناء المنزل أسألها عن حال رُخساره، لا أعلم لماذا دخلت، لست متأكّداً من أن رُخساره موجودة ولا أمها قالت شيئاً.

أقف قرب الدرج، وقبل أن أقول ما أود قوله، تشرع أمها بالكلام:

- البارحة ذهبنا إلى منزلكم ولكن لم تكن حاضراً، كتب الطبيب لها استراحة، لكنها تقول: إنها لا بد أن تذهب إلى المدرسة غداً.

حالما أعي أنها موجودة في المنزل يغلي دمي بفعل نار الاضطراب والهيجان، أقف بالقرب من باب غرفتها، تطرق أمها الباب وتدخل، بعد عدة لحظات تأتي رُخساره بنفسها إلى عتبة الباب.

- سلام
- سلام، كيف حالك؟
- جيدة.

يفتح الباب أكثر وتدعوني أمها للدخول، تقول رُخساره أيضاً: تفضل إلى الداخل.

أدخل، تخرج أمها وتغلق الباب بهدوء، فراش رُخساره ممدود، وحوله عدد من الكتب والدفاتر والمدونات، تقف وتنظر إلى دون أي كلام وتنتظر حتى أتكلم، لا أقول شيئاً، فقط أبتلع أنفاسي باضطراب، وأحاول أن أفهمها إحساسي من خلال نظري، وهي تنتظر على الفور أتذكر مرضها.

- ماذا حدث معك؟
- أصابتني الحمى، وكانت لدي حالة إقياء أيضاً، وصف الطبيب لي حبوباً وشراباً. تعال اجلس.
- أجلس بالقرب من فراشها كما لو أنني أرى مناماً.
- يجب أن أستريح، لكن غداً لدي امتحان.

لا أفكر بمعنى كلامها جيداً، أرغب فقط بأن أجلس قربها وأشاهدها.

تلملم نفسها في مكانها، وتفرش غطاءها الأخضر على قدميها، وتتكئ على الحائط المقابل للنافذة، ثم تحمل كتاباً بيدها وتفتح طياته، لكنها لا تقرأ، تضع أصبعها داخل الكتاب وتنظر إليّ.

- ألن تذهب إلى عملك؟

- أخذت إجازة اليوم.

- لماذا؟ ساء حال أمك؟

- لا، حالها جيد.

- لم تكن البارحة في المنزل، لم يكن لدي همة البتّة، لكن أتيت لأنني رغبت برؤيتك.

أعض على شفتي فقط بدلاً من أن أقول كم كنت قد تهت البارحة من أجل مقابلتها، لكن كما لو أن نظرتي ليس لديها القدرة على أن تقول الحقيقة، تستطيع رُخساره فقط بكل سهولة أن تقرأ عشقي وتعلقي بها في بريق عيني.

أنظر لها على النحو نفسه، وحالما أشعر أنه من الأفضل أن أتحاور معها دون مجاملة يطرق الباب فجأة، تدخل أمها وبيدها صحن فواكه وصينية الشاي، ألقي التحية مرة ثانية، تقول: سيد يونس لا سمح الله أن تتأخر.

- لا، لن أذهب إلى العمل، أنا في إجازة.

- جيد، بالتوفيق.

- أتعبتك.

أمسك الصينية من يدها.

- على حسابك.

قبل أن تخرج من الغرفة تقول لرُخساره: ابنتي العزيزة، تناولي دواءك، لا تنسي. وتذهب.

أدقق جيداً هذه المرة في الصينية، أرى كوباً من الماء أيضاً، تنحني رُخساره لتحمله، لكني أرفعه بيدي وأعطيها إياه بنفسي، تسأل رُخساره باستغراب: لماذا ترتجف يدك؟

أنظر لكن لا أتكلم. تقول: من المؤكد أنك فاتر الهمة، هل تناولت فطورك؟

- تناولت.
- قل الصدق، إذا لم تتناول أذهب وأحضر لك طعاماً.
- لا. تناولت، استريحي.

لا أتكلم حتى تتناول رُخساره حبة دوائها في صمت، ثم ترفع يدها إلى رأسها وتسحب حجابها المورد إلى الأمام قليلاً، وعلى الحال نفسها تنظر إليّ، وتقول مبتسمة: ما الأمر؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- كيف أنظر إليك؟
- تنظر إليّ بطريقة غريبة، لست على عادتك، ما الأمر؟ ماذا حدث؟ قل ما لديك، اشرب الشاي قبل أن يبرد، أقشر تفاحاً أو برتقالاً؟
- لا، ليست لدي رغبة، أشرب الشاي.
- يخطر ببالي فجأة الفول السوداني، أدخل يدي في جيبي وأضع الفول السوداني داخل كف يد رُخساره.

- ما هذا! فول سوداني، أشكرك جدّاً.
- ليس من قيمتك، تناوليه، مفيد لك.
- شكراً، أنت أيضاً كُلْ.
- حسناً سآكل.

تضع الفول السوداني في الصينية وتضع واحدة في فمها، ثم تلتفت إلى كتابها، تفتحه وتحدق به قليلاً، لكن أعلم أنها لا تقرأ، وأتوقع أنها تعلم على الأغلب ما ينتابني من إحساس.

لأنها قد أجابتني، لا حيلة لدي سوي الصمت والانتظار، أنا منذ عدة أيام قد قررت أن أقول ما في قلبي مرة ثانية الكلام الذي يحضر على لساني لحظة لقائها.

أشرب الشاي، ثم أصبر قليلاً حتى ترفع نظرها عن الكتاب لكنها لا تفعل ذلك، أريد أن آخذ يدها وأقبلها بالرغم من أنها خطيبتي، لكن كما لو أن شيئاً قد قتل هذه الجرأة في نفسي، أو أني ألمس شريط كهرباء عارٍ تطرق أمها الباب مرة أخرى وتدخل.

تقول: لم تأكل شيئاً حتى الآن! تفضل بالله عليك!

أشكركِ. وتضع كأس شاي رُخساره بالقرب مني وتخرج من الغرفة.

لا نتكلم إلى حين أن تدخل والدة رُخساره الغرفة مرة أخرى، تؤكد أم رُخساره على رُخساره مرة أخرى بأن تتناول دواءها، وحالما تطمئن أنها قد تناولت دواءها، تتركنا وحيدين. ثم أسألها عن أبيها دون أن يكون لدي رغبة برؤيته.

- أين أبوك؟

- ذهب ليحصل على التذاكر.

- تذاكر؟ لماذا؟

- يريد أن يسافر.

لا أسأل حتى أين يريد أن يذهب؟ ومن أجل ماذا؟ يذهب وحيداً أم يذهب بعضُكم مع بعضٍ؟

لا أسأل أي سؤال، أنسى على الفور، فقط أنظر إلى عيني رُخساره وأغرق في مشاهدتها، هل هذه هي الفتاة نفسها التي كانت تأتي مع كتبها إلى منزلنا وتتحدث مع سميرة وتضحك، وكان شعوري بالنسبة إليها عادياً فقط؟

هل هذه هي العيون نفسها التي لم تكن تحمسني كثيراً؟ لكن الآن كأن معنى وجودي يلمع في كلتا الكرتين الرطبتين السوداوتين؟

أقول لاإرادياً: رُخساره!

- ما الأمر؟

لا أتكلم، وهي تلمس بيدها اليسرى يدها الأخرى، حينئذٍ تمسح بأصبعها خاتم خطوبتها الذهبي.

أتجرأ مرة أخرى وأقول:

- جئت إلى هنا لأتكلم معك.

- حول ماذا؟

- حول... أنفسنا، تعلمين! أنا...

- حسنا تكلم، هل حدث شيء ما؟

- نعم... تعلمين! أعتقد أن ليس لدي طاقة للعمل.
- ما هذا الكلام؟ يونس! تعلم ماذا تقول الآن؟
- أعلم ماذا أقول في الحال.
- إذن ماذا تريد أن تعمل؟
- لا شيء، لا أستطيع بعد الآن.
- ما هذا الكلام؟ لا تقل لأمي شيئاً من هذا الكلام أبداً.
- لم يعد يهمني الأمر.
- هل تعلم ماذا تقول الآن؟!
- رُخساره! أنا لا أستطيع أن أصبر أكثر من ذلك أبداً.
- ماذا تعني؟
- يعني هذا... أنت لا تعرفين ما هو حالي!
- أنت قل، أنا ماذا أفعل؟
- اتركي، رُخساره.
- ماذا تقول، يونس!
- رُخساره! أتيت لأرجوك.
- أي رجاء؟
- انظري إليّ، لا أستطيع أن أتحمل.

أتابع وأنا أشير إلى كتبها:

- ألقي بهم بعيداً رُخساره! لا أستطيع أن أتحمل البعد عنك بعد الآن أبداً. أرجوك لا ترفضي طلبي! أنا خائف.
- من ماذا؟

- لا أعلم من ماذا، لكن أعتقد أنه من المحتمل أن أفقدك.
- ما هذا الكلام؟ من أجل ماذا؟
- أنا نفسي لا أعلم، أشعر أن هناك شيئاً يحاول أن يبعدني عنك.
- لا، ليس كذلك، نحن يحب بعضُنا بعضاً، فما الذي يمكنه أن يبعدك عني؟
- لا أحد، لا أحد، لا أستطيع أن أقول ما هو؟

تنظر إلى وكما لو أنه قد ساء حالها، تمسح جبينها بيدها ثم تضع الكتاب جانباً.

أشرع بالكلام مرة أخرى:

- رُخساره! تعالي نتزوج، الآن، ليس بعد عدة أشهر أخرى، ليس بعد سنة أخرى.
- ما الأمر؟ ماذا حدث؟
- لا أستطيع أن أستمر دونك، تفهمين ماذا أقول.؟ تنتابني حالة، أنت لا تعلمين ما أقاسيه في الحال الحاضر، هكذا أعتقد وأتصور.
- حسناً، لا تفكر ولا تتخيل! انتبه! صحيح أنك خطيبي، لكن أبي لن يوافق على هذا الاقتراح، أنا أيضاً أريد أن أستمر في دراستي، إذا تركتها الآن أعتقد أنني سأضيع عبثاً إحدى عشرة سنة.
- رُخساره! هل تعلمين ماذا تقولين؟
- نعم، أعي ما أقول.
- لا، رُخساره، هذا مجرد كلام، ليتك تدركين فقط ما الحالة التي تنتابني!
- لا أفهم ما علاقة الحب بأن أتخلى عن دراستي؟
- ترضيك هذه الدراسة وهذه الكتب، لكن لا يرضيك عشقي؟

- لا أفهم ماذا تعني! منذ أتيت هنا، أعتقد أنك لست يونس السابق، أصبحت شخصاً آخر، بارد كثيراً معي مع أني خطيبتك، أتيت الآن لتقول "عشقتكِ"، حسناً، أنا أيضاً أحبك، لم يتبقَّ سوى عدة أشهر، صبرنا كل هذا الصبر، إذن إذا كنت تحبني حقاً فاصبر.
- أرغب بأن أصبر لكن لا أستطيع، ليس بمقدوري، أفكر دائماً أنه إذا لم نتزوج الآن لن نستطيع أبداً أن نتزوج.
- ما هذا الكلام؟ لماذا؟ هل هناك شيء؟ قل، ما هو؟ لا قدر الله أمك قد وجدت لك فتاة أخرى الآن؟ أو ربما تعتقد أنه من المحتمل أن تعشق أنت فتاة أخرى؟
- لا لا، للأسف لا أستطيع أن أشرح لك.
- إذا قلت، أعتقد أنني أستطيع أن أفهم ماذا تقول.
- لا، لا يمكن أن أوضح، هذا إحساسي، لا أعلم أهو إحساس حقيقي أو لا، لكن ما الفرق؟ المهم أنني لا أستطيع أن أستمر على هذا الوضع...

تعلمين! ثمّة شيء ما في بالي يضايقني بشكل مستمر لا أعلم ما هو، لكن أعتقد أننا إذا تزوجنا في أسرع وقت ممكن سيرتاح بالي بعدها، أرجوك رُخساره.

- كيف تفكر؟!
- ليس بيدي، رُخساره! اقبلي فقط، أنا أيضاً الأمر ليس بيدي.
- لا أستطيع أن أتخلى عن دراستي، حينئذٍ سأشعر أنني قد هزمت. سأعتقد أن دراستي كل هذه السنين أمر عبثي، أظن أنه من المحتمل أن يفيدنا هذا الدرس يوماً ما.

مع كل هذه المشقات والمصاعب ربما لن تستطيع أن تدير عجلة الحياة وحدك، حينئذٍ أستطيع أن أساعدك قليلاً.

- لا أريد، إذا أردت أن تعينيني الآن فأنا بحاجة لك ساعديني.
- أرغب بأن أساعدك، لكن لا أستطيع، أنا اقترحت على أبي أن يعجل في تاريخ ليلة الزفاف، وأستمر في دراستي أيضاً، لكن أبي لم يقبل. قالت أمي: "حينئذٍ لن تتمكني أبداً من أن تفتحي كتابك حتى" أنا نفسي أؤمن بهذا الكلام.
- رُخساره! انظري إليّ.
- أنظر إليك، قل.

لا أتكلم، أريد فقط أن ترى في أعماق عيني أنني أكاد أجن من عشقها، لكن هي تنتظر أن أقول شيئاً ما. في لحظتها ضغط الحزن على صميم قلبي لأنني أشعر أنها لم تفهم معنى عشقي، وعندما تمسح بيدها على كتابها مرة أخرى يجتمع العرق على جبيني قليلاً قليلاً، تقول: "اذهب استرح" وأنا أضحك في داخلي على كلامها.

أنهض لاإرادياً وأقف، في حين أنني لا أرفع نظري عنها. أرى أنها قد توترت، لكن الآن أعتقد أن أي كلمة أو حركة تصدر مني تصدر دون إرادتي، كل ما أفعله نابع من إحساسي، لا أريد أن تتضايق كذلك لا أرغب أن أسمع مرة أخرى جواباً منفياً، لكنني أسمع. كنت أظن أنه ربما يكون لعشقي لها وتعلقي بها تلك القدرة والجاذبية الكفيلة بسحرها لتستلم لي، لكن لم يكن ظني في مكانه.

أتراجع وهي تنهض من مكانها، يحترق قلبي على حالها قليلاً، لكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ كأن شخصاً آخر يقرر بدلاً عنا. كم أضعف هذا العشق من إرادتي.

أتراجع أكثر، هي قد نهضت ووقفت أمامي، لكن لا أعلم لماذا أقول بلا إرادة: "إلى اللقاء، رُخساره"، أعبر عن هذه الجملة بلحن وكأنني أراها لآخر مرة، أنظر إليها جيداً، لكن لا أكرر كلامي، عُقد لساني من بعدها، فقط تجري حركة حارة في دمي بسرعة وقلبي الغاص بحزن عميق ينبض بشدة، وأنا كما لو أنني أغرق في هاوية زمان لا نهاية له وحالة مبهمة.

وقفت رُخساره أمامي كأنني أنظر إلى نجمة في السماء، يهتز جسدها النحيل، وتتغلب الرحمة على قلبي، لا أسيطر على حركاتي وانفعالاتي، يتغير شعوري من لحظة لأخرى، أعتقد أنني سأفقدها على الفور، وفي أوج حالة الإنكار وخلافاً لرغبتي أقنع نفسي بهذا التصور المؤلم.

أتراجع أكثر، وفجأة يتلاشى وجهها الجميل، أغلقت عيني كيلا أراقب هذا المصير الأسود والحزين.

أفتح عيني وأرى أني قد وقفت أمام الباب، أضغط على قبضة الباب بيدي وأحدق مرة أخرى برُخساره:

- تريد أن تذهب.

أكرر من باب العشق والتعلق والإحساس المملوء بالهيجان: إلى اللقاء!

عندما أعود أدراجي تتساقط من عيني دمعات حارة، أرتجف وينسكب كل عشقي وتعلقي على الأرض قطرة قطرة، أشعر جيداً بهذا

المعنى الغريب في لحظات الجنون هذه، شعور تُعرف حقيقته في لحظات كهذه فقط. أعلم أنها قد انطلقت خلفي تماماً، لكني أبتعد عنها، صدري وظهري يحترقان بفعل حرارة شديدة.

أسمع صوت أمها من داخل الرواق وهي تقول: أنت ذاهب؟

لكن هذا الصوت غير مفهوم، صوت يدور في أذني ثم يبتعد عني أيضاً. لا أستطيع أن أعود وتراني أمها في هذا الوضع، بالرغم من أنه لا يعنيني لأن الأمر خارج عن سيطرتي.

أفتح الباب، تصل رُخساره إلى عتبة الباب، وأعود وأنظر إليها مرة أخرى من باب عشقي وعلاقتي بها من أجل أن ترأف بحالي، لكني لا أراها؛ عيناي تملؤهما الدموع، ويهتز كل شيء في ناظري كالسراب. بالتأكيد الآن ترى أنني أذرف من أجلها الدموع، لكن لا أسمع أي صوت. قد صمتت، وأنا أهرب كالإنسان المجنون إلى مكان لا أعلم أين يقع.

تناديني رُخساره، ربما أتوهّم، وأنا أسمع طنين هذا الصوت مراراً وتكراراً، الصوت الذي لا يكرر سوى اسمي.

تفر الجدران من جانبي، وأنا دون أن يكون هناك مكان معين أقصده أتقدم كالمجنون حتى تهمد نار صدري، لم تفقد الأزقة والشوارع وفي المجمل كل السماء والأرض معناها ومفهومها لدي إلى هذه الدرجة قبل الآن، كأنها لا تمتلك معنىً خاصاً بها؛ فهي مجرد مناظر لا علاقة لها بي أبداً. أفهم فقط أن صدري مفعم بعشق رُخساره، وفي هذا الطريق المثير للعشق والجنون أمرّ بمناطق لم أَرَها من قبلُ، يا لها من طرق في هذه الأرض

المستوية! كلها منافذ وجدت لأعبر منها وكي لا يلقي بي ألم جسد هذا العشق على الأرض. عجباً لحالي! كأنني سحرت وتخدرت؛ طول الطريق وأنا أضرب يدي بقوة على الجدران والأبواب من شدة الهيجان؛ لكن كما لو أن يدي تصطدم بوسادة ناعمة!! لو يغرسون خنجراً في صدري لن أشعر بالألم! وكل هذا من معجزات هذا العشق الذي أودعني كقشة مهملة في يد زوبعة وجوده.

حِرتُ إلى أين أذهب؟ في أي جهة؟ وأذهب إلى طريق لا أعلم بأي مقصد ينتهي، قدماي الحائرتان تجتازان الأزقة حتى أنهك، لكني أتقدم لساعات دون أي تعب. يا لهم من أناس! يا لها من وجوه غريبة تمر من أمامي! وأنا كذلك أقضي وقتي في الانتظار حتى تمتنع روحي عن الذهاب أو تسحر عيني بجاذبية نظرة ما أو كائن ما أو مكان ما وتشل قدمَيّ لسبب ما.

في النهاية أقف لاإرادياً أمام مسجد قديم له مئذنتان جميلتان شاهقتان.

أدخل، أَمُرَّ من رِوَاقٍ مُضَاء نوعاً ما وطويلٍ نسبياً، في نهايته يوجد ستارة سميكة خضراء اللون، أسحبها جانباً وأدخل.

يا له من نور عجيب! والغريب أنه بمجرد دخولي أهدأ قليلاً. حقاً غريب! كما لو أن الشمس والحوض وسط الفناء والزخارف والبلاط والورود والأشجار والفن المعماري للمكان قد سحرتني. يا له من مكان للخلوة والاسترخاء! للهواء هنا رائحة غريبة، بالرغم من أنه لأول مرة أدخل هذا المسجد، يبدو لي مألوفاً؛ كأنه قد كان لي منزل فيه منذ سنين عديدة.

أتقدم حائراً ومتألماً وأجلس تحت سقف تدخل الشمس إليه من النافذة، فرش تحت قدمي بساط جميل اللون، أجد نفسي حراً وطليقاً، وفجأة تتوهج نار صدري، في الحين نفسه أسجد ودون إرادتي تنسكب الدموع.

أغرق في حالة غريبة، ينبض قلبي بذكر رُخساره، لكني أدعو الله متمنياً أن يتحد هذا العشق مع السماء، ربما أصل إلى السكينة.

يحيط ذكر الله بروحي إلى درجة أنسى فيها وجودي، وكذلك أذرف دموعاً كثيرة، كأنني ارتكبت ذنباً كبيراً. بالرغم من أنني أجد هذا الشعور والإحساس في نفسي لأول مرة، لا أعلم لماذا أشعر بأنني قد غرقت في هاوية هكذا حالة قبل الآن أيضاً.

في هذه الحالة الغريبة كأنهم قد أجلسوني في وسط نقطة مضيئة بين السماء والأرض، أشعر بعظمة السماء أكثر، وأغرق أكثر فأكثر في هذه الحالة الغريبة. قد تبدل كل وجودي ذرة صغيرة جدّاً وأتلاشى أخيراً وأغرق في هذا الصمت العميق والمقدس، في لحظة من هذا الزمان الذي لا يتناهى، في عظمة -الله أو السماء أو ذلك الذي أشعر به- دون أي وجود، دون أي رجاء، دون أي أمنية ودون أن تغيرني لحظة تذكر رُخساره. أغرق مثل ذرة من الغبار في هذا الجو وفي بحر الفناء المخيف هذا، في هذه الحالة لا أجد أثراً لنفسي ولا أثراً لمكاني، قد غرقت في نكران مطلق للذات وفي فضاء سماوي لا يوجد فيه أحد سوى الله.

أفتح عيني فجأة، ويسري وجودي في كل جسدي وروحي في أقل من لحظة، وأجد نفسي على وضعي السابق. فقط الألم الذي كنت أقاصيه بسبب

عشقي لرُخساره لم يعد له وجود. غريب جدّاً! أذكرها وأشعر فقط أنني أحبها، لكن لم تعد نار حبها تحرقني.

أرفع رأسي عن السجدة وتجتاح رجفة خفيفة يداي وأقدامي، حالما أنظر يلتفت خادم المسجد العجوز وينشغل بالتنظيف. لا أعلم أي ساعة من النهار كانت، لكن فجأة أسمع صوت الأذان.

أتوضأ بالقرب من الحوض وأقف للصلاة، أعتقد أنه قد حل الظهر، أؤدي صلاة الظهر. لكن عندما أريد أن أؤدي صلاة العصر يؤلمني قلبي فجأة، تضعف أقدامي لاإرادياً. أحافظ على نفسي قوياً، أعتقد أنه ليس أكثر من تصور، وأكثر من خيال، لكن بسبب معناه يؤلمني قلبي، ويطبق صدري على نفسه.

أذهب خطوتين باتجاه اليمين، ربما ما رأيته غير صحيح! لكن لا، حقيقي. الآن أقف تماماً أسفل شاهدة القبر، أقرأ اسم رُخساره عليه مرتين أو عدة مرات. في المكان نفسه الذي قد وقفت فيه يوجد قبر فتاة شابة اسمها رُخساره، لكني أشعر دون أن أتمنى أمنية كهذه أن رُخساره قد ماتت، وربما هذه إشارة تدل على هذا المعنى.

أنظر فأرى الفناء مملوءاً بأحجار القبر نفسها، أجلس في المكان نفسه، وأمسح بقبضتي على اسم رُخساره، ينبعث في نفسي إحساس غريب، فأخاف وأقلق، وأقنع نفسي للحظة أن تحت شاهد القبر القديم هذا قد نامت حبيبتي رُخساره.

لم يتبق الكثير من الوقت حتى غروب الشمس، حينئذٍ أخرج من المسجد. عندما أكون ذاهباً إلى المكتبة يخطر ببالي الأذان الذي يؤذن من أجل روحي من زاوية غير بادية في هذه السماء المقدسة.

-١٧-

أصل إلى المنزل، وأضع الكتابات في الخزانة الجدارية دون أن أجلب الانتباه، ثم أغسل وجهي وأذهب وأجلس في لمة العائلة. يوسف ونرجس موجودان أيضاً، يسألني أبي "أين كنت"، يقول كلامه بطريقة تشير إلى أنه لا حاجة للإجابة. تتحدث نرجس مع أمي حول زواجي أنا ورُخساره، يوسف مشغول بحساباته، حينما يغلق دفتره يقترح علي مساعدته في العمل، يعدُّ أبي هذه الاقتراح فرصة ذهبية، ويرى مستقبلي مشرقاً آخذاً دهاء يوسف في اكتشاف طرق الادخار والحصول على المال بعين الاعتبار، تقول نرجس تأييداً لكلام أبي: "إن يوسف قد ربح في أقل من شهر واحد خمسين ألف تومان"، ويتابع أبي مؤكداً أنه يجب التصرف كيوسف، لا يجب أن يترك رأس المال راكداً، يجب تشغيل المال، كان ذكياً، لا فائدة من الذهاب إلى المكتبة وبيع الكتب، وتقول أمي: تعلم من يوسف!

ينشغل أبي ويوسف في الحديث؛ يوسف يوضح له كيفية حصوله على الربح الخيالي.

تحاول نرجس بزينتها الزائدة أن تعرض نفسها وذهبها أيضاً أمام سميرة، يتم تصرفها هذا بشكل لطيف في الظاهر لا يوصل هذا المعنى، لو دقق أحد بسلوكياتها وحالاتها يمكنه أن يرى جيداً وجهها المخفي غير المؤذي. مع هذا كله بنظري نرجس ليست سيئة إلى هذا الحد؛ تصرفاتها تشبه

تصرفات أغلب نساء هذه الدنيا، لكنها تبالغ أكثر بقليل، وأنا أعلم أنها إذا عرضت مجوهراتها أمام أمي وسميرة فليس لهدف معين؛ تريد فقط أن تعرض جمالها دون أن يكون من نواياها أن تحرق قلبهما، ولا سيّما أن نرجس تحب سميرة.

وأبي أيضاً يحب نرجس كثيراً وسعيد لأنها هي التي أصبحت كنته وليست فتاة أخرى.

نجح ودون أن يُغضب أمي في التحدث بكل برودة أعصاب عن أمنيته في الذهاب إلى السهل والصحراء والعيش في المزرعة بعيداً عن ضوضاء المدينة، وتوصل مع يوسف إلى اتفاقات حول هذا الشأن، لكن كليهما يعلم أن عليهما أن يحصلا على موافقة أمي من أجل ترك المدينة والذهاب إلى القرية أو المزرعة، لهذا السبب وكما لو أنهما تذكرا شيئاً ما أنهيا الحديث فجأة حول هذا الشأن. يحدق كلاهما بأمي، وأمي تلقي بنظرة إليهما وكأنها تجيبهما عن كلامهما ونظراتهما، دون أن تتكلم تفهمهما بأن ينسيا لمدة أمنيتهما في الذهاب إلى السهل.

سميرة فقط من بين ذلك الجمع تنظر إليّ بطريقة خاصة، وكأنها مطلعة على ما حدث لي اليوم. أشعر جيداً بأنها في الظاهر حاضرة بين هذا الجمع، أما تفكيرها وذهنها ففي مكان آخر، وحتى لا تثير حساسية أمي تضحك معهم أحياناً أو تصغي بدقة لأحاديثهم، لكنها لا تنظر إليّ كالبقية؛ تنظر إلى بشكل خاص، وكأنها تحاول مثلاً أن تقول لي بنظرتها: أعي ما هو حالك، وإذا صمت فلأنني مجبرة لا أستطيع أن أتكلم!

ليس بيدي، عينا سميرة تحملاني على هذه التصورات. وأنا غارق في هذه الأفكار تسألني أمي: هل ذهبت لرؤية رُخساره أم لا؟ يصاب قلبي بالألم مرة أخرى على إثر سماع اسمها، تصل رائحة عشقها مرة أخرى إلى أنفي، فجأة يهب نسيم من الغيب ويواسيني. أجيب أمي وأريح بالها، لكني أشعر بأن عشق رُخساره كطائر يحلق في كياني، وحين يجلس في مكان ما يسحر عيني ويؤذي روحي. ثم ومن أجل أن أخرج من حالة التفكير بها وتخيلها، أتذكر ذلك المسجد وذلك القبر القديم وتلك الحالة الغريبة التي كانت قد سحرتني. مع هذا لا تذهب رُخساره من بالي، وأشعر بأنني لم أعد أحترق بنار عشقها، سعيد لأنني مع هذا ما أزال أحبها.

على سفرة العشاء تتذكر أمي زوجة عمي، ثم تسأل عن وضع وحال عيني، أبي ويوسف يؤيدان كلام أمي ويقولان: بإن جفني عيني متورمان. تضطرب أمي قليلاً وتسأل: هل بكيت؟ وأنا أنكر على الفور، لكن نرجس تقول كلاماً تبعد هذا الاحتمال عن ذهنهم جميعاً باستثناء سميرة؛ تقول: "بالتأكيد متعب أو لم ينم بشكل كافٍ، أخي أيضاً حينما يتعب من عمله أو حينما لا ينام بشكل كافٍ، تتورم أجفان عينيه".

كأن أمي اقتنعت بهذا الاحتمال، ولا يحدثني من بعدها أي شخص حول هذا الشأن، فقط تطلب مني ألا أتعب نفسي كثيراً، وأنا أطمئنها، لكن ما تزال نظرات سميرة تلاحقني في ذلك الجمع، لا تضايقني هذه النظرات الطاهرة والمعصومة، بالعكس أشعر بالسكينة وأفكر بأنه يوجد شخص يدركني ويعي كلام قلبي.

لم تلم سفرة العشاء بعد حتى يبدأ المطر بالهطل، تطلب أمي من يوسف أن يبقى هذه الليلة عندنا وأبي يوافقها الرأي أيضاً، يقرر يوسف أنه إذا استمر المطر بالهطل سيبقيان هذه الليلة، وإذا توقف المطر فسيذهبان. توافق أمي على مضض، ولا يتكلم أبي أبداً بعد سماع رأي يوسف، فقط يقول: "من غير المحتمل أن يتوقف المطر بهذه السرعة"، وأنا قلق؛ لأنه إذا استمر المطر بالهطل سأجبر على أن أنسى الرجل النتن، فعندما يبيت يوسف وزوجته في منزلنا سيأخذان غرفتي وسأنام وسميرة في غرفة واحدة، وأبي وأمي سينامان في غرفة الجلوس، ولهذا لن أستطيع في هذه الليلة بالتأكيد أن أكتب أي شيء. يقلقني هذا التصور الذي ينبع من هطل المطر، وأتمنى في كل لحظة أن يتوقف المطر عن الهطل، لكنه كما لو أنه يشتد.

بعد العشاء، ينهض أبي ويفتح النافذة المطلة على فناء المنزل، يهطل المطر بغزارة شديدة، يقول أبي باستغراب: يا له من مطر! ألم أقل إنه لن يتوقف بهذه السرعة!

يملأ الهواء الجديد المحمل برطوبة المطر الغرفة، تلم سميرة السفرة، ثم تحمل نرجس الأواني وتنطلق نحو المطبخ.

يفتح يوسف مجدداً دفتر حساباته وينشغل به، تحضر أمي الشاي لي، وأبي يفكر بشيء ما، لا بد من أن صوت المطر قد شغل ذهنه به.

أحسب في نفسي أن لدي ليلة أخرى غير هذه الليلة لأنهي عمل الرجل النتن. كما لو أن قطرات المطر تتساقط على جسدي، وأنتظر أن تهب رياح قوية من أعماق خيالي وتفكيري لتطرد هذه الغيوم السوداء المحملة بالأمطار الغزيرة. لا أدري كيف فارقت رُخساره خيالي ومتى وكيف شغلت هذه الفكرة عقلي.

بعد عدة دقائق وحينما تضع أمي وعاء الفواكه أمام يوسف وأبي، يتوقف المطر فجأة، ويجتاحني إحساس غير قابل للوصف. الحق أنني قد طلبت من الله أن يوقف هطل المطر، الآن لا أعلم هل كان هذا بسبب دعائي أو كان له سبب آخر، لكن حالما أرى أن المطر توقف لا أعلم لماذا يبدو لي أن الله ينظر لي بعين العطف، وكما لو أنه يريد أن يقول لي: "استجبت لدعائك"، لكن إذا قرر يوسف وزوجته أن يبيتا هذه الليلة في منزلنا حينئذٍ ماذا؟ حينئذٍ لا معنى لدعائي، فهما على أي حال سيبقيان، ولن أستطيع أن أذهب خلف الرجل النتن، إذن علي أن أصبر لأرى ماذا سيحدث.

أخيراً تقول أمي: " لا فرق، الآن قد تأخر الوقت، والأفضل أن تبقيا".

يؤيد أبي أيضاً كلام أمي، حتى سميرة أيضاً تطلب من نرجس ويوسف أن يبقيا هذه الليلة، أنا لا أقول أي شيء، وأريهم أنني مشغول بشرب الشاي، يطلب يوسف من أمي ألا تصر، ويقول: "يجب أن أذهب لأنه يوجد أعمال يجب أن أنجزها قبل النوم".

أشعر مرة أخرى أن توقف المطر كان بسبب رجائي ودعائي فأُسَرّ، ويهيمن ذكر الله على تفكيري مجدداً. في الوقت نفسه أرى نرجس تهيئ نفسها للذهاب شيئاً فشيئاً، لكن يوسف ما يزال مشغولاً بالحساب. يأخذ أبي تفاحة حمراء بيده وينشغل بأكلها، وأنا أحدق في خيالي بمدينة تغرق شيئاً فشيئاً في غبار وعفن تلك الجثة الغريبة.

حينما يغادر يوسف وزوجته المنزل، يتقطع بحر الغيم ألف قطعة في السماء ويهب نسيم بارد، أمي متضايقة، لكن حالما يذهبان يتغير حالها.

وأنا لا أتعطل بعدها، وأذهب مباشرة إلى غرفتي دون أن ألفت انتباه أحد. وكي أتأكد أن لا أحد سيأتي إلى، أتعطل لدقائق؛ ألبس لباساً مريحاً، ومن ثم أذهب خلف النمل، وأنظر إليه لمدة، لم يتبق الكثير من ذرات السكر وبالتأكيد لن يتبقى لهم أثر حتى الصباح، أفكر في نفسي: طوال الأيام هذه التي مرت علي وكما لو أنها سنة امتص النمل على النحو نفسه ودون توقف هذه السكر الصافي، ودون أن يعلم ماذا يدور حوله!

أتمدد على السرير وتخطر رُخساره ببالي مجدداً، ثم أتذكر تلك اللحظة، حين كانت عيناي ممتلئتين بالدمع، ولم أكن قادراً على أن أرى جيداً وجهها الذي كان يهتز. ثم أعبر من الأزقة والأماكن التي قد نسيت تماماً أشكالها كما لو أنني أسير في حلم. هل أنا قادر على أن أعبر مرة أخرى من تلك الأزقة المتداخلة والغريبة، وأن أضع قدمي في ذلك المسجد القديم؟ هل سيقع نظري مرة أخرى على شاهد قبر حفر عليه اسم رُخساره؟ كم كان يوماً غريباً مملوءاً بالأسرار والعجائب، يوم عظيم ومثير للدهشة كما لو أنه قد غير مصير حياتي.

لو لم أسمع صوت باب الغرفة، لكان من المؤكد أن ذلك الرجل الغريب الذي كنت قد قابلته بالمقبرة قد أوصل نفسه إليّ، أنا كنت واقفاً هناك قرب قبر ذلك الشاب الخائب، وهو كان يأتي نحوي من بين حقول القمح والأشجار.

أستيقظ من النوم مرعوباً وقلقاً، أرى الضوء متوهجاً، لكن لا أحد غيري داخل الغرفة، ثم أقول بصوت مرتفع:" من؟... تعال إلى الداخل".

لكني لا أسمع أي صوت.

أنهض وأفتح الباب، أشعل ضوء الرواق، الرواق خالٍ، ألقي نظرة إلى الساعة، قد بدأ منتصف الليل قبل قليل، أغلق الباب وأستجدي خيراً بذلك الصوت في هذا الوقت من الليل وأعتبره فأل خير. طار النوم من مقلتي وليكون بالي مرتاحاً أقفل الباب من الداخل، أفتح ستارة النافذة، ثم أذهب خلف الرجل النتن.

"تجولت في كل أنحاء المدينة الصغيرة، لم يكن يُرى أي كائن حي على الإطلاق، كانت الرائحة الكريهة تفوح من تلك الجثة، وكان البخار يتصاعد منها، وساد كلاهما في كل أنحاء المدينة. رأيت عدداً من الجثث والجيف التي كانت قد أصيبت بالاختناق على إثر هذه الرائحة الغريبة. كانت أبواب المنازل مفتوحة، حتى إن البعض لم ينجحوا بأخذ مستلزمات حياتهم برفقتهم؛ يبدو لي أنهم سعوا فقط لينجوا بأرواحهم من هذه الورطة الفتاكة.

ذهبت نحو أعلى مكان في تلك المدينة، يوجد مسجد قديم له مئذنتان جميلتان شاهقتان.

دخلت إلى المسجد، كانت أرض المسجد مرصوفة، وحيثما نظرت رأيت شواهد القبور منتشرة في أرجائه.

مررت بالقرب من حوض الماء، وسارعت عن طريق الدرج نحو السطح. الغريب أنه لا أثر لتلك الرائحة المتعبة في هذا المكان! وقفت على السطح بين المئذنتين وحدقت بالاتجاه الذي كانت تهرب الجموع إليه، راقبت أشياء كالأشباح الحائرة، وكانت تتلاشى شيئاً فشيئاً وسط الرياح التي كانت قد هبت مؤخراً. في هذا الوقت وصل إلى مسامعي صوت أذان، لم يكن معروفاً من الذي كان يؤذن لهذه المدينة التي كان قد فر أهلها. ألقي بنظرة إلى الفناء من أعلى السطح، يبدو لي منظر المسجد مع تلك المقاعد

الموزعة على أطراف الفناء مألوفاً، حتى شواهد القبور القديمة تلك التي كانت قد ملأت جهات الفناء الأربع كانت مألوفة أيضاً، كما لو أنني كنت أزور هذه القبور خلال سنين عديدة.

خرجت من المسجد، وتجولت مرة أخرى في تلك المدينة المثيرة للحزن، كنت أتنفس بصعوبة، كانت قد قويت حاسة الشم لدي، حتى إن هذه الرائحة المنفرة كانت قد نفذت إلى داخل أعمدة الجدران أيضاً، كانت قد تعفنت الأبواب والنوافذ كذلك، لا أثر على الإطلاق للجثث التي كنت قد رأيتها على طول طريقي. ثم انطلقت نحو أبعد منطقة في المدينة وكانت بينها وبين تلك الجثة والنهر مسافة كبيرة، كان صوت الريح يعصف في أُذنيّ كما لو أن شخصاً أو شيئاً ما كان يزمزم في فيهما.

درت حول المدينة، كان هناك عدد من الرجال قرب مقبرة، وكانوا قد غطوا وجوههم بأقمشة سوداء، وكانوا قد انشغلوا بدفن جثث الناس الذين كانوا قد توفوا بسبب تلك الرائحة الفتاكة والمهلكة، كما كان هناك أربعة أشخاص ملثمين، حالما رأوني التفتوا كما لو أنهم يعرفونني، أداروا ظهورهم لي واستمروا بعملهم، اعتقدت أنني أصبت بالهلوسة والتوهم، اقتربت واتخذت مسلكاً يمكنني من أن أحدق بوجوههم، لكن حالما رأوني مرة أخرى التفتوا، أردت أن أقترب أكثر، لكن انصرفت عن ذلك برغبة، لأنهم كانوا قد ارتعبوا، فابتعدت عنهم كي يتابعوا عملهم.

خطر ببالي فكرة في ذلك المكان؛ قررت أن أذهب لأدفن تلك الجثة بأي وسيلة كانت، على هذا نحو تزول رائحتها، لكني كنت خائفا من ألا أستطيع الاقتراب من تلك الجثة، على الرغم من ذلك الخوف الذي تملكني تجرّأت، وانطلقت نحو ذلك النهر.

-١٨-

أستيقظ قبل أن تشرق الشمس، تبدل إحساسي بشكل كامل الآن؛ أجلس على السرير وأتأمل غرفتي جيداً كأني أرى هذه الغرفة لأول مرة، نفذ إلى صدري إحساس غريب وهيمن على روحي شيئاً فشيئاً. يجذب إحساس الغربة اتجاه كل شيء تفكيري وخيالي، لكن استغرابي كان قد طغى على قلقي. إحساس واهم ومقلق يفهمني أنني أبتعد عن كل شيء رويداً رويداً، عن منزلي وأبي وأمي وسميرة ورُخساره والجميع، وأنا أتقدم بسرعة في هذا الطريق الخفي.

يبدو هذا الإحساس واقعياً إلى درجة أنني قد أمنت به، أسمع صدى كل دقة من دقات قلبي في رأسي، كم هناك تناغم دقيق بين هذا الإحساس ولحن دقات قلبي! كأنهما متحدان ومتصلان، ويسعيان معاً إلى أن يفهماني حقيقة ما. وفجأة وقبل أن يفارق خدر النوم ودوخته جسدي، كحية تنزلق يغافلني إحساس الموت في المسافة الفاصلة بين السرير والنافذة، في الوقت نفسه يجري الوهن في دمي كشراب شديد المرارة، أدرك إحساس الموت الغريب بكل كياني، الآن يشهد كل كياني على هذه الحقيقة، هل هذا الإحساس ليس أكثر من وهم وخيال؟ هل أولئك الذين ماتوا لم يشعروا بهذا الإحساس قبل الموت؟ شيء غريب! كذلك أشعر أنني أبتعد عن كل شيء، أحاول أن أتحرك صوبهم!

ألبس ثيابي كي يتاح لي قبل أن يحملني الموت معه أن أزور كل أحبابي وأقضي فترة إلى جانبهم، أقول في نفسي: "كان من الجيد أنني رأيت يوسف ونرجس"، من المحتمل أن يكون هذا الإحساس حقيقةً، إحساس أنه من المحتمل أن يحملني الموت معه على غفلة.

أقنع نفسي أنني سوف أموت في القريب العاجل، إذن من الأفضل أن أرى أقاربي مرة أخرى، لكن لا يجب أن أتكلم مع أحد حول هذا الأمر. يا لها من حقائق لاذعة، حقائق لا يمكن حتى البوح بها!

بهذه التصورات أذهب إلى أمي وقبل أن أرشق وجهي بالماء، سميرة هناك أيضاً، فجأة وحالما أرى أبي ينفجر هذا الإحساس الغريب كفقاعة في صدري، نعم، الآن أشعر أن هذا الإحساس الذي يفهمني أنني أبتعد عن كل شيء حقيقي، أن أتحرك نحوهم، لكن كما لو أنني كلما أسرع في هذا الطريق الخفي أبتعد أكثر عنهم.

أجلس بالقرب من سميرة على سفرة الطعام، تصب أمي الشاي لي، وأنشغل دون لفت الانتباه، الأكثر غرابة هو وضعهم وحالهم؛ كما لو أن جوهرة الحقيقة توارت في كيانهم، فهم على اطلاع عن كل شيء، استغربت من صمتهم، تسيطر عليهم حالة تمكنني من أن أنظر إليهم جيداً، هم بالتأكيد يريدون أن أشبع عيني بالنظر إليهم بكل حرية وبال مرتاح، دون أن يعلموا ماذا يفعلون، في هذه الأثناء تراقب سميرة سلوكي ونظراتي، كأنها تعلم معنى هذه النظرات لكنها تتظاهر أنها ليست إلا فتاة بسيطة لا اطلاع لديها عن أيّ شيء! كيف أستطيع أن أفتح حديث الموت والرحيل والصمت

المطلق على عتبة سفرة تحتوي على الخبز والشاي والجبن؟! هل أستطيع أن أبوح بسر صدري بحضور أمي أيضاً؟

على هذا النحو أنشغل بالطعام دون رغبة أو ميل، أقول في نفسي: "لماذا لم يراودني شعور الخوف من الموت؟ هل من المحتمل أن يكون شعوري خاطئاً؟" حينما أفترض هذا الاحتمال كأنني أبتعد بسرعة عن أقاربي ومن حولي، على الأقل هذا الإحساس ليس كاذباً، وأنا أشعر بحقيقته بكل كياني وبوضوح تام.

حالما يرى أبي أنني لست على عجلة من أمري، يسألني: ألن تذهب إلى عملك؟

- لا، أنا اليوم في إجازة.

ومن بعده تشرع أمي بالكلام:

- لأجل ماذا؟

- تعب قليلاً.

- بالتأكيد قد أصبت بالرشح.

ثم تتابع وهي تصب الشاي لأبي:

- ضوء غرفتك بقي وضّاءاً حتى وقت متأخر من الليل، أغلق نافذة غرفتك ليلاً، الهواء بارد، بالتأكيد قد أصبت بالرشح.

- لا لم أصب بالرشح، فقط متعب.

ينظر إلى أبي نظرة توبيخ، ويقول:

- انتبه لنفسك، لم يتبق الكثير حتى تنتهي دراسة رُخساره، البارحة مر أبوها على المستودع، كان يسأل عن حالك وأحوالك، قلت له: "مشغول جدّاً..."

لا أتكلم حتى يتغير موضوع الحديث، أمي ما تزال قلقة، تقول:

- تناول الفطور واذهب واسترح.

بعد عدة لحظات أحدق بأبي مرة ثانية، وقبل أن أرفع نظري عنه ينظر إلى بتمعن لحظة واحدة، كما لو أنني سحرت، لا أستطيع أن أبتعد بنظري عنه، أنظر إليه دون أي أن تصدر مني أي ردة فعل معينة، حتى يشرب كأس الشاي وينهض، يرتدي معطفه على عتبة الباب، ودون أن يلتفت إلى أمي. يقول آخر ما لديه:

- لا تنتظريني ظهراً.

ويفتح الباب ويذهب.

أمي ما تزال قلقة علي، تنظر إلى لكن لا تتكلم، سميرة تتناول فطورها وتتظاهر أنها لا تهتم لأمري، لكنني حالما أحدق بسميرة يشتعل الحزن القاتل بين أضلعي؛ كم يبدو لي فراق سميرة صعباً ومؤلماً، سميرة كما لو أنها قرأت أفكاري تنظر إلى نظرة شفقة ثم تلتفت إلى أمي بقلق ومرة أخرى تطأطئ رأسها.

تنهض أمي بعد عدة دقائق، تحمل عباءتها كي تخرج من المنزل، وتقول:

- لا تذهبوا إلى أي مكان، سأعود على الفور.

تخرج من المنزل، وأنا وسميرة نلتزم الصمت لفترة، كما لو أننا قد تحدّث بعضنا مع بعضٍ أكثر من أي وقت آخر بالنظرات والإحساس الخفي

الذي يعرفه كلانا، كل حركات سميرة لها معنى، الحركات التي توجهني إلى الحقيقة التي أبحث عنها.

حرت حول أي موضوع سأتحدث مع سميرة، فأتنحى دون أي كلام حتى تجمع سفرة الطعام وهي تنشغل بعملها هذا، وفي الوقت نفسه تختلس النظر إلى أحياناً، وفي النهاية تتكلم:

- ألست بخير؟

- لا بأس.

- متضايق مني لا قدر الله؟

- لأجل ماذا؟

- هكذا.

-لا، ما هذا الكلام؟!

تجمع سفرة الطعام، وتصبّ لي كأساً من الشاي الفاتح اللون، ثم تبتسم وتقول: البارحة زارتني الملاك في منامي، كانت تتكلم عنك، كانت تضحك، لكن لا أتذكر ماذا كانت تقول، كانت سعيدة جدّاً، أخذتني إلى مدينة جميلة جدّاً، كانت هذه المدينة كالجنة، جميلة جدّاً، كان عبير العطر والورد يفوح في كل أرجاء المدينة.

قد غرقت سميرة في عالمها كما لو أنها تتحدث مع نفسها، لم أفهم على الإطلاق ماذا تقول، لأنه ودون أن أريد يظهر الرجل المسحور في خيالي، حالما يأتي أنهض لأتحرر من شر الرجل النتن، تنظر إلى سميرة، تقول:

- ستخرج؟

- لا، سأذهب إلى غرفتي، لدي عمل.

من بعدها لا تتكلم أبداً، وأخرج من الغرفة بهدوء.

حالما أفتح باب غرفتي أشم رائحة نتن قوية لدرجة أنها كادت تفقدني وعيي.

أشرع بالعمل على الفور، أزيد من سرعتي في العمل، أضع منديلاً على أنفي وأتقدم بسرعة.

"بالرغم من أن النهر لا يرى، لكنني أسمع صوت جريان الماء، يتلاطم البخار النتن في كل الأرجاء المحيطة بالنهر، وعندما شعرت أنني قد اقتربت من النهر، تقدمت ببطء وبحذر.

كنت أركل جثث الطيور على طول الطريق، لم يكن لدي حيلة، كانت جثث الطيور التي قد فارقت الحياة بسبب الرائحة النتنة لتلك الجثة تملأ المكان، فجأة يغلق طريقي حاجز صعب، يحل بروحي خوف غريب، لكن لم أتعطل وانحنيت ولمسته بشكل جيد، كان الرجل النتن الذي كان نائماً بصمت، توقفت لحظة، الصوت القوي لتدفق الماء لم يسمح لي بأي نوع من التفكير والتصور، ابتعدت على الفور، حتى اصطدمت على مسافة ليست ببعيدة بتراب ناعم، وبدأت بنبش التراب.

بعد عدة دقائق فتحت حفرة عميقة فمها أمامي حينئذٍ ذهبت مضطرباً نحو الرجل النتن، أمسكته من كلتا قدميه وجررته بكل قوتي نحو الحفرة، على حافة الحفرة تنفست نفساً جديداً ومكثت عدة لحظات، ثم ودون وعي اقتربت قبضتي من صدره ولمسته، بالرغم من أنه قد مضى زمن

على موته، لكن كان ما يزال جسده دافئاً، دون اهتمام برائحة وجوده النتنة قربت رأسي أكثر ووضعت أذني على صدره، قلت بحماقة في نفسي: "ربما ما يزال حياً!" لكن قلبه كان ميتاً؛ كان ساكناً وخاملاً ونائماً في حفرة موته الصامتة. فجأة انتابني إحساس غريب: "هل من المحتمل أن تكون هذه الجثة مرتبطة بي؟" لم يكن هذا الإحساس الغريب غير متعلق بإحساسي؛ لأنه كان قد راودني إحساس الموت، وبلا شك كانت هذه الجثة تذكراً ليوم لا وجود لي فيه على الإطلاق.

ومن أجل ألا أنزعج من هذا التصور أفتح قبضتي، وأمسك بيدي قدمه وباليد الأخرى أصابعه الخدرة وأضع الجثة على حافة الحفرة، حينئذٍ تسقط الجثة داخل الحفرة إثر دفعة خفيفة، وشعرت بأن الرجل النتن قد أطلق سراحه في واد لا نهاية له.

كنت أسمع صوت صراخ يتجه نحو أعماق الأرض، ولم أتجرأ على أن ألمس الجثة في وسط الحفرة.

ملئت الحفرة، وتنفست الصعداء، فجأة هب نسيم قوي، وحمل معه البخار الذي كان كبحر من الضباب يغطّي الأرض والسماء.

حالما أفتح عيني لا أجد أي أثر لا للرجل النتن ولا لجثث الطيور، كان النهر يتلألأ تحت أشعة الشمس، وكان صوت أمواج المياه الباعثة للحياة يسمع من كل صوب.

-١٩-

قبل غروب الشمس أزور منزل عمي وألتقي زوجته، في الليلة الماضية رأتني في المنام، ولهذا كانت تنتظرني، تقول: كنت أعلم أنك ستأتي لرؤيتي؛ لهذا السبب لم أخرج من المنزل!

فرحتها تكمن في أنني قد ذهبت لرؤيتها، بعد موت زوجها لم يبقَ لها أي سبب للبقاء حية، عندما تقول هذا الكلام تطأطئ رأسها، وتفتح الأزرار الأولى لكنزتها بهدوء، وحيدة هي، وكي لا تمل وتفقد صبرها تذهب إلى المقبرة لتختلي بزوجها وأبنائها أو تذهب إلى منازل الجيران، أحياناً تزور منزلنا.

أشعر أن هذا آخر لقاء لي بها، يشهد كل كياني على هذا المفهوم الغريب، لكن لا أتأسف، قد أتيت فقط لأفي بالوعد الذي كنت قد وعدتها به.

كنت أريد أن أرى عن قرب ولمرة أخرى عيني زوجة عمي الحنونتين، حتى وهي تبتعد عني أيضاً كالبقية، ودون أن تعلم. الآن قد جلست أمامها وبينما كانت تدعوني تباعاً لتناول الشاي كانت تتكلم معي كذلك:

كنت تأتي لرؤيتي باستمرار حينما كان عمك حياً، لم يكن هذا المنزل صامتاً وخاملاً حتى ليلة واحدة، لكنه مات ولا أحد يسأل عن حالي، كل شخص يريد رؤيته أيضاً يذهب إلى المقبرة، لماذا يأتي إلى هنا؟ هل هناك

شخص أيضاً يسأل الله؛ ما كان هذا القضاء والقدر الذي أخذ مني كل أبنائي وفي الآخر زوجي أيضاً؟ لو بقي أحدهم على الأقل لكان الآن أصبح عصا في يدي ارتكز عليها...اشرب الشاي قبل أن يبرد.

أمسك كأس الشاي بيدي وأفكر غير مصدق بالكلام الذي قد قالته زوجة عمي. كي أتأكد بأنني لم أسمع خطأً، بعد أن أشرب رشفة من الشاي، أسأل: قلتِ مر على مجيئنا إلى هذه المدينة ثلاثة أو أربعة أعوام؟

- حسناً، واضح! ما هذا الكلام!؟ أتقصد أني مخطئة؟ ألا تتذكر أنت؟
- نعم صحيح!
- جاء أبوك من أصفهان إلى هنا (بروجن) بسبب عشقه لأخيه، الآن لماذا بقي هنا؟ أخوه قد مات.

لا أصغي بعدها إلى كلامها وأفكر فقط كيف نسيت بشكل كامل ذكريات سنتين أو ثلاث سنين ماضية، وأدقق جيداً وأغوص في أفكاري، تخطر رُخساره وكلامها ببالي، يؤدي كلام زوجة عمي هذا إلى أن أتذكر ذلك اليوم المحزن عندما كنت قد ذهبت لرؤية رُخساره، لأني أظن أن رُخساره أيضاً كانت قد أشارت بين طيات كلامها إلى هذه الحقيقة. في ذلك الوقت كنت قد توترت جدّاً، وجننت من شدة عشقي لها، ولم أنتبه إلى معنى ومفهوم كلامها. لكني الآن متأكد من أن رُخساره قد تكلمت أيضاً حول مجيئنا إلى بروجن. هل صحيح أن أبي قد جاء إلى هذه المدينة بسبب عشقه لأخيه؟ ضعف ذاكرتي أدى إلى أن أفكر على هذا النحو؟

هذا الكلام نفسه أدى إلى أن أتذكر حين عودتي من منزل عمي فناء المنزل الذي كان في وسطه حوض مملوء بالماء وحديقتان صغيرتان على طرفي

الفناء مع أشجار الصنوبر والعنب، والفناء المرصوف، والمنزل القديم، والغرف المتداخلة، كما لو أنني قد أمضيت سنين في هذا المنزل.

لكن مهما أضغط على نفسي لا أستطيع أن أتذكر أكثر، ثم يخطر ببالي منام أبي، هو أيضاً كان يتكلم في منامه وحلمه عن هذا الفناء القديم نفسه؛ عن حوض مملوء بالسمك الأحمر. إن اضطررت أستطيع أن أتحدث مع سميرة فقط حول هذا الموضوع. لا يجب أن أرهق أمي بأسئلتي، فأنا لا أعلم أحقاً قد أخفوا عني حقيقة ما أو لا، إذن لا يجب أن أعذبها بهذا الكلام وهذه التصورات. بالرغم من هذا أدركت بشكل جيد الأجزاء المنفصل بعضها عن بعضٍ للسر الخفي، دون أن أكون قادراً على أن أستخلص معنىً من هذه الأجزاء غير المفهومة.

مع أنني أسير في الأزقة أبتعد عن كل شيء، الآن قد بزغت قوة قادرة وغامضة في أعماق كياني. القوة التي تتأمل أعمالي بصبر حكمها جارٍ وسائر في كل أنحاء العالم وبين كل الناس. وأنا أغوص في ذكره كي لا يرهقني التفكير برُخساره وتخيلها مرة أخرى، أجتاز كل الأزقة برفقة هذا الإحساس السحري، يساورني الشك أنني قد غرقت في ذكر الله بهذا الشكل أيضاً في وقت سابق. يا له من تصور غريب في أوج غرابته، لكنه مألوف لي!

حينما أصل إلى المنزل تنبئني سميرة وأمي بمجيء رُخساره، كانت قد جاءت لتسأل عن حالي وأحوالي وقد انتظرت قدومي ما يقارب الساعة وجيد أني لم أرها. بالرغم من أنه حالما علمت أنها قد أتت لرؤيتي اضطرب تفكيري مرة أخرى؛ أدركت من وضع أمي وسميرة أنها لم تتحدث بأي شيء عن لقائنا الأخير، أرتاح قليلاً، وأتظاهر أنني متأسف لأنني لم أرها.

مسكينة أمي! قلبها مفعم بالسعادة فهي تأمل أنني سأتزوج رُخساره في أقرب وقت وكما يقال تنتظم حياتي ويتحسن وضعي، ليس لديها خبر عما يجري في عقلي! لا تعلم أنني أشعر بكل كياني باقتراب الأجل والمنية، من أين لها أن تعلم أن رُخساره قد ماتت في نظري، حقاً إذا تكلمت عن هذه الحقائق والإحساسات معها ما الحال الذي سينتابها؟ هل سوف تجن؟ أو أنها سوف تصرخ بسبب اليأس والخوف؟ بالتأكيد سوف تمرض من شدة الحزن وثقل الهم، لكنني لست فقط لا أتحدث معها عن هذا الموضوع، بل حتى وعدتها وأكدت لها أنني سوف أذهب لرؤية رُخساره. أريد أن أسعد قلبها كي لا تتابع الحديث عنها.

عندما يحل الليل أفكر بلقاء الغد في المقبرة أكثر مما أفكر بأي شيء آخر، انتهى عمل الرجل النتن وارتاح بالي، أجمع كتاباتي وأخفيها داخل جريدة قديمة، أصمم على أن أنام باكراً كي أذهب فجر الغد إلى مكان الموعد، أزعجتني فكرة أنه ربما لن أستيقظ من نومي أبداً هذه الليلة، هذه الفكرة تسيطر على عقلي مدة زمنية قصيرة ثم لا تلبث أن تمحى وتحل مكانها فكرة لقاء ذلك الرجل الغريب بقوتها وجاذبيتها، وعلى الرغم من هذا لم يتمكن مني ملاك النوم. أتى وذهب الرجل المسحور مراراً، ومجددا أجد نفسي قرب قبر ذلك الشاب الخائب، وكذلك تراودني ألف فكرة وتصور أثناء انتظار مجيء ذلك الرجل، من بينها أنني سوف لن أراه أبداً، هل فعلاً كنت قد قابلت يوماً ما ذلك الرجل الغريب؟ ما يجعلني أشعر أن ذلك اللقاء كان واقعياً هو ذلك الأجر فقط، لو لم تكن حزمة المال هذه في يدي لكان أفضل أن أقنع نفسي بأن هذا اللقاء لم يكن أكثر من رؤية. كم هو قوي

هذا التصور!؟ فقد دفعني لأن أسحب نفسي نحو الخزانة، وألمس جيداً حزمة المال تلك لمرة أخرى.

حالما أفتح النافذة يلامس نسيم عليل وجهي، القمر ساطع وضوؤه منتشر في كل الأرجاء، لا يُسمع أي صوت سوى صوت نباح كلب، يحل صمت الليل رويداً رويداً، ما زال ذلك الإحساس الغريب للبعد والفراق يجري كالدم في عروقي. النمل قد نصب خيمته على ذرات السكر كبيت العنكبوت على عتبة النافذة، ودون أن يهتم لكل هذه العجائب والحقائق البشرية، كأنها تنتظر أن يشبع أصدقاؤها من العسل والحلاوة حتى يصل الدور إليها. يا لها من حكاية غريبة تجري أحداثها في هذه الزاوية الخفية للنافذة تحت ضوء القمر المشرق في السماء وعلى عتبة الموت والنسيان الذي يقترب من ناحية خفية.

هذه المرة يأتي الرجل المسحور مع أثقال الموت المدمر، ولهذا يرتعش قلبي حزناً، هل سأغط في نوم الموت دون أن أكون قد كتبت هذه الحكاية الغريبة؟ هل أنا يونس نفسه الذي كان يتلوى ويتخبط بشدة من أجل كتابة هذه الحكاية الغريبة؟ هل ابتلعت قوة الموت الذي يقترب أشواقي ومشاعري أو أن القضاء خط بقلمه مصيراً آخر؟

أنشغل على عتبة النافذة بنفس العمل الذي يؤديه الرجل المسحور، أجلس وأحدق بالقمر المضيء، وأحاول أن أغرق مثله في الجمال الباهر لهذه القدرة الساحرة للأرض والزمان.

ليس معلوماً على الإطلاق إلى أين ذهب المحيطون بي، ويبدو لي أن وجود هذا النمل أقوى من وجودهم في هذا البحر الشاسع، وبينما يبتلعني القمر أشعر أن هناك قوة خفية وأبدية تجذبني نحو مصيري ونهايتي الأبدية.

-٢٠-

حينما استيقظت كانت قد مضى فترة على شروق الشمس، مضطرب وقلق، ثم تهيأت بسرعة ووضعت الكتابات تحت إبطي، وخرجت من المنزل دون أن ألفت الأنظار إليّ. فات الأوان، كم كان نوماً ثقيلاً! لم أفهم أصلاً متى حلّ الصباح، حتى إنني لا أتذكر الشيء الكثير حول الليلة الماضية؛ أذكر أنني كنت أتكئ على الجدار، وكنت أنظر إلى القمر، ولا أتذكر بعد ذلك شيئاً ولا حتى متى أطفأت الضوء، وخلدت إلى الفراش. النافذة كانت قد أغلقت أيضاً، ربما يكون هذا من فعل أمي، ترعاني دائماً مخافة أن أصاب بضرر أو يؤذيني شيء ما.

تعرقت من شدّةِ الاندفاع، اجتزت الأزقة والشوارع بسرعة، يتكرر كلامه في رأسي، فقد كان قد قال لي: "أنتظرك في اليوم الحادي عشر في الصباح الباكر"، الصباح الباكر، لكن الآن الشمس مشرقة والشارع يعج بالمارين، ربما ظن أني نسيت ما قد وعدته به! بالتأكيد بعد ساعة من الانتظار قد غادر المقبرة، الآن بلا شك فكر في نفسه أنه كان ينبغي له ألا يثق بي!

وهكذا تدور الفرضيات المختلفة في رأسي كالعاصفة وتضايقني. لا أعتقد أنني أريد أن أسلمه هذه الكتابات فقط، يبدو لي أنه يرتبط بشكل غير مفهوم بذلك الذي أبحث عنه. في الليلة الماضية كنت أعد اللحظات من أجل لقائه، كنت قد ضقت ذرعاً بكل كياني من أجل لقائه، ولم أكن أظن أن النوم والتعب سيغافلانني.

يمتلكني إحساس غريب، اشتعل الجزع كالنار في روحي، وكما لو أن المسافة بين المنزل والمقبرة قد أصبحت أطول، لكن أخيراً تظهر أمام عيني بوابة المقبرة، أدخل، أتفحص ما حولي بدقة خشية أن يفر من بين يدي، انتابني القلق والاضطراب وهكذا أتقدم، لا أصدق أنني سأستطيع أن أراه مرة أخرى.

بعد عدة لحظات ألمح من بين الأشجار وجه الشاب الخائب، كما لو أنني أرى نفسي قد سكنت في أرض الموتى بهدوء وصمت، لكن لا أحد قرب القبر.

يخترق اليأس صدري كسهم مسموم، أقترب وأصل إلى الساحة المفتوحة أمام القبر، وأسقط على الأرض مرهقاً هناك في المكان نفسه، حدقت بلا حراك بما حولي، الرجل المجهول قد ذهب، أضعف قليلاً، وأذهب نحو قبر الشاب الخائب يائساً ومرهقاً، أجلس على حافة القبر، تضرب أشعة الشمس في عيني من فوق الأشجار، كنت أفترض أنني لن أراه أبداً، على الرغم من هذا ما أزال أنظر حولي، وأتمنى أن يظهر فجأة من زاوية ما!

أفتح الجريدة، أضعها مقابل قدمي وأحدق بالكتابات، ودون أن أقرأ بدقة ولو حتى جملة أتصفح الورق، عمل عبثي وغير مسوّغ.

ألقي بنظرة على الشاب الخائب، ينظر إلى نظرة باردة بلا معنى، ثم كما لو أن الغيم يحجب الشمس يغطيني والكتابات ظل ما، يهب نسيم عليل، أنزل يدي على الكتابات، أشعر أن هناك شخصاً ما ينظر إليّ.

يمر ظل من أمامي، وحالما تضيء الشمس وجهي أنهض من مكاني، رُبط لساني، لا أصدق ذلك الرجل المجهول الهوية يقف وينظر إلى بعينيه الفاتحتين اللون والبراقتين، أنجح فقط بأن ألقي التحية، ثم شُل لساني، أنحني على الفور وأحمل الكتابات بيدي، يمد يده إلى الأمام، ويجيب عن سلامي. أضغط على يده، وأقول:

- كيف أنت؟ أأنت على ما يرام؟

- جيد.

أهز برأسي، ويتابع:

- البارحة رأيتك في المنام، كنت أعتقد أنه من المحتمل أن يسرقك النوم، لأجل هذا بقيت أنتظرك! بالتأكيد ظننت في نفسك أنني قد ذهبت، أليس كذلك؟

- صحيح، سامحني، عطلتك.

- لا مشكلة، كان العرق ينسكب منك في المنام كما هو الحال الآن؟ كما لو أنك كنت على عجلة!

ثم يلقي بنظرة على الكتابات:

- على أيّ حال أديت عملك.

أعطيه الكتابات، يشرع بالقراءة، وأبقى صامتاً، يقرأ عدة أسطر، يمكث ويحدق بي:

- كنت أعلم أنك ستنجح، هذا هو الشيء نفسه الذي كنت أريده!

- لكنك لم تقرأه كله حتى الآن، كيف توضح أنه يلبي ما تطمح له؟

- أخطأت؛ لهذه الكلمات والجمل روح، ويمكن الفهم من كل جملة ما يسعى له كاتبها! هناك أسلوب وطريقة، لا يستطيع كل أحد من خلال قراءة جملة أن يحدد ما هو الهدف النهائي للكاتب؟ لكن أنت نجحت، أنا متأكد.

أشعر أن له هدفاً خاصاً من هذا الكلام، أنظر إليه، وهو يسأل:

- اسأل كل ما تريد السؤال عنه، أنت غارق بالتفكير، ماذا؟ ماذا حصل؟
- لا.
- بل نعم، هنالك شيء، قل!
- لا، لا شيء، كنت أريد فقط أن أسأل أي ذنب كان قد ارتكبه هذا الرجل حتى كانت الرائحة تفوح من جثته بهذا الشكل.
- إذا قلت من كان هذا الرجل فلن تصدق، ستتأسف عليه، لكن الآن لا فائدة من هذا كله.

ثم يلقي بنظرة إلى وجه ذلك الشاب الخائب، ويتابع:

- هيا نذهب كي أقول لك.

ننطلق، وهو يمر بي من بين القبور، وبينما كان يحترس من أن يركل قبراً ما يشرع بالكلام:

- هذا الرجل الذي كتبت حكايته، يوماً ما كان من محبي الله، كان رجل حق، كان يعشق الله، لم يكن يبتغي غير الله، لم يكن يغفل عن الله لا في الليل ولا في النهار، كان مثل الشيطان من المقربين، لكن فجأةً وفي أوج حبه لله مال قلبه إلى الدنيا، فانتهى كل شيء، معنى رائحة النتن هذه هو ميله إلى الحياة وعاقبة غفلته.

وأتمتم مكرراً: التعلق بالدنيا.

يفترق عني ذلك الرجل على عتبة المقبرة، أنظر إليه مندهشاً مذهولاً، ينظر إلى مع ابتسامة عميقة في آخر لحظة، تبدو لي نظرته مؤلمة جدّاً كما لو أننا قد أمضينا سنين بعضنا إلى جوار بعضٍ، لكن لا أستطيع أن أتحدث معه حول إحساسي، يجعل الكتابات تحت إبطه ويذهب، متأكد أنه سيقابلني مرة ثانية، لكنه لا يقول أين ومتى؟

عندما يذهب تتولد في داخلي رغبة بأن أشكو له عما في داخلي، لكن لا أثر له على الإطلاق، لقاء خيالي! وفي الأصل ما الدليل كي أصدق أنه هو من أعطاني حزمة المال تلك؟ هل مقابلتي له في اليقظة كافية كي أسمي هذا اللقاء واقعيّا!؟

أسلك طريق المكتبة من ذلك المكان، بينما كنت لا أعلم ما قد حل بي، رأسي مملوء بالأسرار الغامضة، وكل واحد منها كفيل بأن ينهكني، الأهم منها كلها أنني لا أعرف نفسي؛ لا أعلم شيئاً عما مضى من حياتي، من "الرجل المسحور"؟ لماذا فرشوا مأدبة الموت أمامي؟ هل لأن الموت المفاجئ سيجعل مني طعماً له؟ ما المعنى الحقيقي لتلك المهاجرة؟ من ذلك الشاب الخائب الذي قد سرق وجهي؟ هل يجب أن أصدق حكاية ذلك الرجل المجهول الهوية وذلك اللقاء الغريب الذي انتهى بتعرفي عليه؟ من كان الرجل النتن؟ هل في الواقع كان يوماً ما من عباد الله المحبوبين؟ إذن لماذا لا نشعر بالرائحة النتنة لكل هؤلاء الناس الماديين والغافلين؟ لماذا بدأ عشق رُخساره يحرق روحي كالنار المستعرة ومن ثم خمد وانطفأ؟ ومركز هذه الأفكار المعذبة هو الإحساس بالتحرر والابتعاد عن كل شيء الذي يبدو كشمس تتلألأ وأنا أحترق من أشعتها وأذوب.

أصل رويداً رويداً إلى المكتبة، صاحب عملي واقف على عتبة المكتبة، حالما يراني يبتسم ويلقي علي التحية بحرارة ويسألني عن حالي وأحوالي. أدخل إلى المكتبة خلفه، يسأل عن حالي مرة ثانية، ويقول: "اليوم يوم الجمعة، لم أتوقع مجيئك"، ثم يسأل عن أبي وحاله وأحواله. من بعدها ينشغل بعمله، أجلس خلف طاولتي، وأحدق جيداً برفوف الكتب، لا أصدق أنني قد قضيت مدة في هذا المكان، أشعر بالغربة، أعتقد أنه اللقاء الأخير، رؤية صاحب عملي ليست ممتعة كثيراً بالنسبة لي، أتيت إلى العمل بسبب الضجر والملل وقلة الحيلة. أي عمل هذا؟ جلست أنظر إلى رفوف الكتب، أمسك القلم لاإرادياً، وأكتب في أعلى ورقة بيضاء: "الرجل المسحور".

ومن ثم أترك القلم، تقريباً فقدت شوقي لكتابة هذه الحكاية الغريبة، أشعر بالوحدة والتعب، أنتظر بلا سبب، ومن بعد أن أيسر عمل ثلاثة أو أربعة زبائن، يخطر ببالي كلام الرجل المجهول الهوية، كان قد قال: "الله يهتم لأمرك"، لا أعلم لماذا حالما أتذكر كلامه هذا أضحك! أعمالي أقل بكثير وأخف من أعمال مسلم عادي، هل لهذا السبب ضحكت لاإرادياً دون أن أكون قد قررت؟ كما لو أنني قد تركت كل شيء، طليقاً ومتحرراً من كل أعمال الدنيا والآخرة، لكنني كذلك أسير أفكار غامضة ومعذبة. في الأساس أتيت إلى عملي بلا إرادة، لا أرغب بالعمل، لا مطلب لي أيضاً، أحاول أن أفكر بشيء لا أعلم ما هو! وهذه المرة يأتي الرجل المسحور وأتجاهله بكل راحة، لا أهتم كي يبتعد عني، بالتأكيد قد جاء من أجل أن أكتب حكايته، أو من أجل أن يثير في داخلي إحساساً مثل أنه يوجد صلة بيني وبينه! لكنني قد جربت كلتا هاتين الحالتين، كتابة هذه الحكاية

مستحيلة تقريباً، أعرف أيضاً إحساس المعرفة والصلة الخفية. كم من المريح تقيد هذا الإحساس المعذب؟ أفكر في نفسي إذا استمر هذا الوضع لن يبقى لأي شيء أهمية بالنسبة إليّ، سأصبح لامبالياً وغير مكترث بكل شيء، إنساناً ميتاً بارداً ولا روحَ فيه، فاقداً لأي نوع من النشاط والبهجة.

برغم أني أتوقع عاقبة لنفسي كهذه، إلا أني لست قلقاً كأني أنتظرها أيضاً. هل أنا إنسان لا هوية له؟ على خلاف ما رآني عليه الرجل المجهول الهوية في منامه والذي قابلته في المقبرة؛ إنسان مستعجل وفي حال التعرق، حتى إنه قد ألهمه أني سأصل متأخراً إلى مكان اللقاء، هذا في حال أني لا أعلم حتى من أنا؟ من أين قد أتيت؟ كيف مر عمري؟ وفي الأساس ما المطلوب مني؟ الرجل المجهول الهوية يتكلم مثل سميرة؛ هي تقول: "أنت ستنجح"، وذلك الرجل كان قد قال أيضاً: "الله يهتم لأمرك"، كأن كليهما يتكلمان عن حقيقة ما. غالباً ضعف ذاكرتي هو سبب كل هذا الضياع، لكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ من بين كل هذه الإحاسيس انتابني إحساس البعد عن الدنيا والناس فقط، الإحساس الذي كأنه انتابني قبل الآن أيضاً.

عيون نرجس ويوسف فقط لا يشيرون إلى أي شيء؛ تقول نظراتهم: "لا يوجد أي قضية خاصة، لم نخفِ عنك أي حقيقة"، لا يهتمون بهذه المعاني لدرجة أني أقول لنفسي أحياناً: "ربما أنا مخطئ"، لكن نظرة سميرة تغسل هذا التصور وتطلق سراحي في جاذبية كلامها وحالاتها. الآن أنا متأكد للغاية أن كل أسراري وخفايا حياتي يرتبط بعضها ببعضٍ بحلقات خفية؛ هجرة أبي وحالات سميرة وتلك الملاك الغيبية ووجود رُخساره ومأدبة الموت والرجل النتن والرجل المجهول الهوية والرجل المسحور

ووجه ذلك الشاب الخائب وذلك الفناء القديم والحوض المملوء بالسمك والغرف المتداخلة وإحساس البعد وحضور القوة القادرة للوجود التي شغلت تفكيري بها مؤخراً، هذه المعاني الغامضة قد ملأت كل حياتي، وشكلت سلسلة بواسطة حلقات سلسلة خفية قيدت روحي.

على الرغم من أنني أكثر ضجراً ومللاً من ذلك اليوم الذي كان قد اقترح علي فيه صاحب عملي أن أستريح، كأني أبدو في نظره أنشط من أي وقت آخر، الآن ينظر إلى كما ينظر دائماً على خلاف ذلك اليوم، لكن أشعر بشكل جيد أن شكلي ولون وجهي أشبه بلون وجه إنسان مريض أكثر من شكل ولون إنسان معافى ومفعم بالحيوية وحاضر لإنجاز أعماله اليومية. هذا لا يبعث على الاستغراب، فهو لم يقرر أصلاً أن أذهب لأستريح، حالما أشعر بأن الله شملني بعطفه تنتابني السكينة والراحة، هذا فقط لأنني افترضت أنه يجب أن تراقب قوة غيبية سلوكي وعملي، وإلا كان من غير المحتمل أن يقرر صاحب عملي قراراً كهذا في الوقت الذي كنت أحتاج فيه إلى الحرية.

بعد هذا التفكير وهذا التصور أمد يدي نحو درج طاولتي، ودون أن أقرر مسبقاً أجمع وسائلي الشخصية ومن بينها المال الذي قد ادخرته، وأحاول ألا ألفت الانتباه، أضع أشيائي داخل حقيبتي وبعد الظهر ودون أن أريد وداعاً للأبد أمسك حقيبتي بيدي وأتحضر للذهاب.

عند الوداع مثل سائر الأيام، لا يبدو له أن هناك شيئاً غريباً وغير طبيعي، أنا هذا ما أريده أيضاً، لكن لا أفكر بأنني إذا لم أذهب إلى المكتبة سيقابل أبي عاجلاً أم أجلاً، ثم سيفهم الجميع.

لا أريد أن أفكر هكذا، حسبت أنه لن يكون لي وجود في يوم ما وقد يكون غداً أو في أي يوم آخر قريب، هذا الإحساس قوي لدرجة جعلني غير مكترث بكل شيء، حقيقةً بكل تلك الأشياء التي تبدو لأقاربي وأكثر الناس مفرحة ومفيدة وذات قيمة، مع كل هذه التصورات أودعه، بشكل لا يشك به.

هل هذا أنا الذي انشغلت بكل نشاط ورغبة بجمع المال؟ لم أفهم كيف ماتت تلك الروح المفعمة بالعشق للحياة والعشق لرُخساره؟! لكن الآن وأنا أبتعد عن كل شيء، لا أعلم أي مصير بانتظاري؟ لا العشق المثير للشهوة ولا العشق السماوي، أتنفس ويطلعني إحساس عميق أن هناك قدرة أعلى وراء تفكير الإنسان وتصوره تسخر كل الوجود وتمتلكه، هو فقط، اسمه الله. حتى الآن لا أعلم ما الشعور الذي أكنه له، إذا كان الله يهتم لأمري فهل هذا الأمر يترجم الإحساس الذي ينتابني الآن؟ "إحساس الموت والبعد عن كل شيء تفوح منه رائحة الحياة"؟ من جهة أخرى أعي جيداً أنه منذ تلك اللحظة التي ألقيت بها الرجل النتن في تلك الحفرة وأنا أشعر بنوع من السكينة والراحة، لا أريد أن أفكر هكذا، لكن الأمر ليس بيدي؛ راحة البال هذه ليست بسبب الوفاء بالوعد الذي كنت قد قطعته، ولكنها بدأت منذ ذلك الوقت الذي أخفيت فيه تلك الجثة بين التراب. إحساس خفيف بالراحة والتحرر من نوع من أنواع الظلمة والعتمة التي كانت تقبع متخفية في زاوية من روحي كما لو أنني قد قتلت كل آمالي ورغباتي عند دفني لتلك الجثة النتنة.

لا يمكنني بأي طريقة كانت أن أصف هذا المعنى وإحساسي هذا، أشعر بكل كياني أن هناك صلة بين دفن تلك الجثة وموت كل آمالي ورغباتي الروحية والدنيوية، ولدي إيمان بهذا. هل أضعت طريق عشقي وشهوتي الأرضية، أو أن وجودي قد خلا من هذه الحاجات؟

كما لو أن الزمن قد ضغط وقد تجسدت التغييرات التي ربما تحتاج إلى عشرين سنة خلال سنتين فقط، خلال هذه المدة القصيرة جدّاً جربت لذة المحبة إلى حد العبادة، ذهبت للبحث عن أسرار حياتي، وخطفت من الآخرين طريق الفرار من متع الدنيا، كما لو أن هذه الأحداث كلها قد وقعت الليلة الماضية في مدة أقصر من المدة التي يحتاج إليها القليل من النمل ليبتلعوا ذرة من السكر. أسير في زمان لا وجود فيه للمعنى المعروف لمضي الأيام، أمضي فيها وراء الزمان حيث لا يجب أن أكون ساعياً خلف معاني حياتي وأسرارها، وكم يبتعد هذا الإحساس عن ذلك الزمن الذي كنت فيه أبحث عن حقيقة حياتي المخبئة تلك أو ذلك الزمن الذي كنت لا أوفر فيه جهداً لأدرك وأكتشف صلة الوصل بين الرجل المسحور وبيني، كما لو أن كائناً آخر كان يسعى لحل لغز حياته.

في الطريق أفكر أنه إذا علم أبي أنني قد ذهبت في الصباح إلى المقبرة وكنت على بعد عدة خطوات من قبر أخيه ولم أزره، كيف سينظر إليّ؟ ما المسوّغ الذي يمكن أن أقدمه له؟ بالتأكيد ليس مهماً بالنسبة إليّ ماذا سيقول عني، المهم هو أن عملي هذا بالنسبة إليه مرفوض ولن أستطيع أبداً أن أشرح له معنى عملي هذا، وإذا كان من الضروري أن أوضح له، فكيف أستطيع أن أحل هذا المشكلة؟ كيف سأقول مثلاً: "كان علي أن أرى

شخصاً هناك على بعد عدة خطوات من ضريح أخيك، وأن أسلمه شيئاً ما، ثم جذبني تيار معقد مفعم بالأسرار خلفه كظله، وعند عتبة بوابة المقبرة سحرت، ومن ثم ذهبت في الطريق التي كان يجب علي أن أذهب فيها، أو أن رغبتي بالذهاب نحو تلك الجهة كانت أكبر؟ لا، لا يمكن أن أتكلم مع أبي بهذه المعاني، الأصح من كل هذا في نظره أنه حينما حضرت إلى ذلك المكان كان يجب علي أن أزور قبر أخيه ومن ثم أذهب خلف عملي.

إذن عندما يكون الإحساس غير قابل للإدراك ما الفائدة في التكلم عليه؟ أشعر فقط أنني أنجذب نحو المجهول وحيداً أمام قوة أبدية تفوق التصور وسط دنيا ملأى بالغرائب والأسرار دون أن يوجد شخص ما من أقاربي من بين كل هؤلاء الناس اللذين يمرون قربي كي يرافقني، وحيداً كفقاعة تعتلي بحر الوجود الشاسع!

فجأة تسيل دموعي في وادي الحيرة والضياع هذا، وأتمنى أن يميتني الله في نطاق جاذبية وجوده، الله صاحب القوة القادرة في الوجود وسلطانه المطلق ومالك الروح والجسد كي أودع في يد النسيان وللأبد ذلك الذي أشعر به على وجه الأرض، ولأغرق في عظمة سحره إلى ذلك الحد الذي يحرق قلب الآخرين على حالي، فيطلبون الرحمة والمغفرة لي من الله!

أفتح عيني فجأة، يمكن التخمين من صمت الليل هذا أنه قد انقضى نصفه تقريباً، استيقظت من النوم بلا سبب، الليلة الماضية من شدة التعب والإرهاق الزائد على الحد كان جسدي هامداً ومخدراً، ولم أمتلك القدرة على تحريك رأسي، لكني الآن استيقظت من النوم دون أن يكون هناك سبب خاص، في مثل هذه الساعة من بعد منتصف الليل!

ما يزال الجو مظلماً، سحر النوم والنسيان المثير للحيرة قد فارق جسدي كلياً وكأنني قد صحوت من نوم ألف سنة هنيء، خلال هاتين السنتين أو الثلاثة لا أتذكر إلا أمرين أو ثلاثة أمور، قد حلت بي اليقظة والفطنة في أعماق الليل والصمت، ولأنني لا أستطيع أن أدرك السبب الحقيقي لهذا الأمر أسلم جسدي لقلة الاكتراث كي أخلد إلى النوم.

أغلق عيني لتسيطر قوة النوم بسحرها وجاذبيتها على أفكاري الليلية، ثم تفتح أجفاني بعضها عن بعض بسبب وحي مقتدر، وأقول في نفسي: إذا كان من المفروض أن أخلد إلى النوم بكل سهولة فلماذا استيقظت إذن على هذا النحو وفي الظاهر بلا أي سبب؟

أتقلب وأنتظر أن يختلسني النوم في هذا الصمت الذي يمكن أن يسمع فيه صوت صرصور الليل والكلب بوضوح، لكن لا فائدة، كأن قواي الجسدية قد عادت لي بكل حيويتها.

هكذا وبلا أمل أنتظر قدوم النسيان، فجأة أسمع صوت تمتمة، أنام على ظهري حتى أستطيع كما أعتقد أن أفكر أفضل، أنتظر سماع ذلك الصوت الغامض مرة ثانية، فجأة أسمع صوت آخر، ومن ثم يحل الصمت، وكأن شخصاً من وراء إحساسي وشعوري الطبيعي يدعوني إليه.

أجلس في مكاني ويمضي الوقت على الوضع نفسه، يعلو صوت تمتمة مرة أخرى، لكن هذه المرة أفهم من أين يأتي صوت التمتمة، سميرة قد اختلت بملاكها الغيبي، أنهض وأفتح باب الغرفة بهدوء شديد، ضوء الممر متوهج، أتقدم حتى بداية الممر، لا أحد وسط الفناء، ثم أتحرك باتجاه غرفة سميرة، تشير الساعة الجدارية إلى الساعة الثالثة فجراً، وأنجذب بشوق ورغبة غريبة نحوها.

لا يصدر أي صوت من الغرفة اليسارية التي ينام فيها أبي وأمي، وحالما ألصق أذني بالباب يرتاح بالي.

فجأة أسمع صوتاً غير مفهوم مرة أخرى، كان حدسي صحيحاً، على الفور أطفئ نور الممر ويحل الظلام فيه، وحينئذٍ أفتح باب غرفة سميرة دون أن أصدر أي صوت، قد تمددت سميرة كالشبح هناك أمامي تحت النافذة، وميزها ظل نور القمر الخافت عن سائر أشياء الغرفة، ثم وكيلا ألفت الانتباه أدخل وأترك الباب مفتوحاً حتى المنتصف، الآن أستطيع بشكل جيد أن أسمع صوتها الذي لم يعد غير مفهوم البتّة؛ يا له من صوت! هو الإشارة الوحيدة والنافذة المطلة على لقاء ومقابلة سماوية، وأنا بكل حماس وكما لو أنني أريد أن أطلع على أسرار حياتي أودع أذني لذلك الصوت الذي يمكنه أن يرضي روحي.

"عندما عشقها، أصابني اليأس...ذهب، لكنه عاد سريعاً جدّاً"، لا أعلم عما تتكلمين...، لا يوجد أحد أبداً، قلقت كثيراً، يجب أن أؤدي ذلك العمل..، فارقته السكينة، أمي تتأسف لحاله، أنا أدعو كثيراً...، في الأساس لا أستطيع أن أتحمل فراقه...لكني أقسمت، لا، لا يجب أن أتكلم أبداً لكني أريد فعل شيء ما، لا أستطيع النسيان أبداً... نعم، يجب أن أؤدي هذا العمل...كنت أستمتع برؤيته، كان قد غرق، وأنا ما أزال أطمح إليه، كان قد ذهب إلى مكان كبير، مكان جميل، إلى الآن لم يره أحد... نعم، يا لها من سعادة! الله اختاره، ماذا سيحدث؟ أنا لن أفشي بسرك، أرجوك، سر سماوي، لا أصدق. كنت أعلم أن قلبه طاهر، لكن لم أكن أتصور أن هذا سيحدث... نعم. حكايته غريبة جدّاً! أريد أن أكتب حتى لا أتخيل أنني

كنت أرى مناماً، يجب أن ينجز هذا العمل. أليس كذلك؟ سفر سماوي... حقّاً تقولين؟ متى؟ إذن علي أن أؤدي هذا العمل بسرعة... حسناً. بالتأكيد. صعب جدّاً. في الحقيقة إذا انفصلت عنه أحزن...، هو لا يتكلم معي أبداً ولا مع أي أحد، فقط مع الله... يا لهما من عينين! ليتك رأيتِ كيف كان يتأمل! شعرت بالخوف مرة، كان قد أخذ بالله تماماً، لكن الجميع كان يعتقد أنهم قد سحروه، كان قد أصبح مقدساً، كان يستطيع أن يفعل معجزة... نعم كنت أؤمن به. لكن للأسف، لكن للأسف... يجب أن أستعين بالله. أنتِ أيضاً ساعديني.. سأفعل هذا العمل نفسه. لا يجب أن يفهم أحد. خطير. الآن حان وقته... لا. لا أصدق. كرري مرة أخرى!... لكن كيف من الممكن! يعني قد استغرق آلاف السنين! لا أفهم. لكن فقط منذ عدة أيام كان قد ذهب من عندنا... يا له من كلام غريب...هناك كم هو جميل. لنذهب إلى هناك، خذيني إلى هناك، أرغب أن أكون هناك...، إذا مت يوماً ما أرغب أن أكون في قربك. حقا تقولين؟ لا أصدق. للأبد... يا إلهي! ماذا أسمع؟ الملائكة لا تكذب. أعلم...لكن ماذا أفعل؟ لا أصدق... انظري... انظري هناك. يونس! يونس! يا له من وجه! يعني هذا يونس! إذا رأته أمي فلن تصاب بالصدع أبداً من السعادة، في ذلك الوقت وللأبد سيرتاح بالها...أمي العزيزة... أمي العزيزة... يونس حي، تعالي أنظري، لا تخافي، لا تبكي. يا إلهي! لم يمت... هو حي...أمي العزيزة، لا تستائي، أنا وجدته، يونس هناك، انظري إليه.."

فجأة تحرق عروقي رِعشَة مثيرة للجنون، احترقت! أتحرك مثل عاصفة، أعبر الممر مذهولاً خائفاً ومنكراً، حينئذٍ أسقط أرضاً تحت كومة

النجوم، تزحف من كف الأرض الباردة في منتصف الليل قوة غريبة كحية ضخمة إلى جسدي، كما لو أن روحي تخرج من جسدي، من شدة الإنكار يرتبط لساني، كلام سميرة يتلألأ مثل نجمة الصباح في رأسي، يا له من كلام! كان كالسحر.

الآن سحر الصباح المثير للجنون قد هيمن على روحي وأجلسني في سحره المدمر، قد ألقى حزن من السماء ظله على رأسي، وكنت أوشك أن أصرخ بسبب هذا السحر الليلي، وهذا الحوار الملكوتي، وكأن تياراً من النار قد اخترق صدري وجرى نحو قلبي، وبينما كنت غير مصدق للذي سمعته، أسحب نفسي بهدوء ودون أن أشعر بوجودي الجسدي نحو الجدار البارد خلف رأسي.

أجلس متكئاً عليه وأحدق بالنجوم التي منحت السماء القداسة والهيبة الإلهية من خلال سطوعها الساحر، وأدرك في هذه اللحظات أن هذه الأنوار الكونية المشرقة تتلألأ فقط من أجل هذا السر الخفي وهذا الشعور والوعي الكامن فيما وراء حواس وعقل الإنسان، كما لو أن الأسرار السماوية تمر من أمام عيني، وأنا ما أزال غير مصدق ذلك الذي سمعته في البرزخ المفعم بالاضطراب.

الآن أرغب بأن أتدحرج في هذا المكان وعلى سطح الرصيف الرمادي، كي أشعر بأنني حقاً موجود وأنني كنت أنا الذي سمع ذلك الخطاب السماوي، هذه المرة جاء الرجل المسحور بهيبة لا مثيل لها وقداسة تفوق التصور، لا يوجد أي ارتباط بين وجود وحقيقة ذلك الرجل المثير للحيرة وشر الأرض والناس المقيدين بسلاسل الشيطان، هذه المرة أوحي

لسميرة ذات القلب الصافي والكيان الطاهر النقي الذي لا يرضى بأقل من أن يجالس الملائكة.

كيف أريد أن أكتب حكاية هذا الموجود الإلهي الذي لا يمكن تصور أي مكان مناسب له على وجه هذه الأرض النتنة، هو ذات القداسة الواقعية، تجسيد مطلق للروح والنفس المسحورة بهيبة وعظمة خالق الكائنات. مسحور ويتأمل سحر السماء غير المتناهية وقدرة الله المذهلة.

سميرة! أعملي بهذا الوحي السماوي! الآن حان الوقت ليتحدث قلبك وروحك الطاهرة عن ذلك الرجل الغريب الحي في كل القرون، كنت أعلم أنه لم يكن يجب أن ألوث سلوكه وعاداته ونظرته العاشقة بأفكاري وتصوراتي الساعية للمتعة والمضللة.

دون أن أعلم أن مأموراً غيبياً أرشده بأمر من صاحب السماء إلى مكان آمن، وهو الآن يستمتع بالسكينة في زاوية من قلب فتاة طاهرة لا تُعنى بالرغبات والمتع الدنيوية، ليقرأ حينئذٍ في أذنها حكايته، وذلك بإشارة من جهة غير بادية.

قد قامت القيامة في رأسي، أسمع صوت الأذان ولا أعلم أي شخص قد ذهب في سفر سماوي وأنا بقيت على حالي، لا علم لي، وأي شخص الآن يحضر لسفر مثير للجنون كهذا، وبينما كنت أراجع هذه المفاهيم الغريبة في ذهني، تأملت هذا المشهد الأزلي للنجوم وأنا جالس في زاوية من هذه البقعة الأرضية الباردة والنتنة.

جسدي متعب ومرهق، حماسي في أوجِه، اضطرابي لا حد له، حيرتي شاسعة، وكياني السعيد وغير السعيد واقف على حافة الهاوية يرتجف، لكن

في أوج عجزي قادر على أن أجبر أفكاري وتصوراتي على التحليق المزيد للحيرة، حتى تتجلى في مفاهيم ومعاني الكلمات قدرة مدمرة ومدهشة ومشرقة جدّاً.

الآن في هذه الليلة التي يدعونني فيها حتى الموتى إلى الصبر القاتل، كما لو أنه يجب علي أن أستقبل ضيوف بيت الله التعساء وأتحمل بكل صبر تصريحاتهم السخيفة والخالية من الفكر.

الآن أفهم لماذا منذ مدة لا أشعر برغبة في كتابة هذه الحكاية؛ فالآن من الواضح أنه قد أمر شخص آخر بكتابة وشرح هذا العشق والفناء، وأنا ربما لا أكون في هذا الوسط أكثر من مشاهد وقارئ رخيص يعد اللحظات منذ الآن أيضاً لقراءة الحكاية التي هجرت مكانها الأصلي، ورحلت إلى ديار أخرى!

-٢١-

يحل صباح آخر، وحالما أفتح عيني أكتب رسالة قصيرة لصاحب عملي:

"طرأ سفر لذلك أستعفي من خدمتك، وأعتذر لأنني لم أستطع أن آتي لأودعك، على أمل اللقاء".

أوصل الرسالة إلى صاحب عملي، دون أن يراني أو أراه، لا أعلم لماذا فعلت هذا العمل؛ سوى أني شعرت بأنه ليس لدي ميل أو رغبة لأي نوع من العمل، في الحقيقة خطر على قلبي كإلهام. بالضبط أستطيع أن أقول: إن قوة ما مجهولة استفادت من ضجري ودفعتني لأكتب رسالة كهذه، لا أريد أن أفكر بأنه إذا قابل صاحب عملي أبي ماذا سيحدث؟ قد ارتحت تقريباً بشكل غير قابل للتفسير من هذا التصور المثير للاضطراب، ولأجل ألا أتعرض للسؤال أخرج نهاراً من المنزل وأعود عند الغروب.

في الظاهر لم يلاحظ أحد شيئاً؛ فلا أرى تغييراً في حالة وسلوك أقاربي سوى أني لم أعد ذلك الإنسان السابق، أشعر أن هناك ذكريات غريبة تحيي ضميري الخفي كالماء الحلو الذي يغلي في النافورة، هذا الإحساس يشبه النطفة التي تشكلت حديثاً دون أي هوية، أشعر فقط بوجوده.

أصبحت إنساناً آخر كما لو أن شخص اختارني لدور آخر؛ دور إنسان زهد الدنيا دون أي سبب مقنع ويعد اللحظات للعودة إلى أصله. لا أستطيع أن أقول بدقة ما الشيء الذي دفعني لأن أفكر بهذه الشكل، أو لماذا أغرق في

هذه الحالة؛ هل بتأثير من الرجل المسحور أو كلام سميرة؟ أو بتأثير غير مباشر من مأدبة الموت أو الرجل النتن؟ أو ربما العشق القصير الأمد لرُخساره الذي حملني على شيء يشبه الجنون؟

أبذل كل طاقتي لأقتل ما تبقى من رغباتي الدنيوية بداخلي، القرار الذي كما لو أنه قد اتخذ بشأني، وأنا أؤديه غير مصدق لكن أعي ما أفعل، وقد صدقت أن مصيراً غريباً يتقدم نحوي كالموت الذي يمكن أن يكون بالنسبة إلي بمنزلة سفر سماوي، والغريب أنني قد قبلت به، بل أنتظره**!** كما لو أنني سأسفر سفراً طويل الأمد لا عودة منه، سفراً باعثاً على نشوة الاكتفاء**.** وذلك الذي يظهر في هذا الجو المثير للدهشة هو الحوادث نفسها التي تساعدني وتعينني لأصل لمبتغاي الخفي هذا، كما لو أن مصيري يجلب عن تبصر حادثة أو صدام كي أنسى الدنيا أكثر من قبل وأفرغ لتأمل السماء الشاسعة أمام عيني**.**

مثلاً وقع في إحدى هذه الليالي حدث من هذا القبيل؛ زارنا أحد الجيران المعدمين ليلاً وطلب من أبي مبلغاً من المال من أجل زواج ابنته، اسمه إسماعيل، على وجهه الكثير من علامات الفقر والمشقة التي خطها الزمان، كان أبي يعلم أنه رجل فقير لا حيلة له، لكنه لم يلبّه، وحجته أنه هو أيضاً يعاني من ضائقةً ماديةً، ولو امتلك شيئاً لقدمه له، ليس بمنزلة دين بل كهدية، وكي يظهر حجته أكثر إقناعاً، يتطرق إلى موضوع زواجي، ومرة أخرى يتأسف لأنه لا يستطع أن يعينه، اقتنع جارنا بحجته وذهب**.**

في الغد أرحت بالي للأبد من الثروة التي ادخرتها، ذهبت خفاء لرؤيته وقدمت له بكل سرور ثروتي النقدية التي تبلغ ثلاثين ألف تومان تقريباً،

مقابل شرط واحد وافق عليه بلا تردد وعلى الفور؛ قلت له: "لا يجب أن يطلع أحد على فعلي هذا سوى الله ونحن، يجب ألا يطلع على هذا الموضوع أحد"، واختتمت الحكاية على هذا النحو.

الآن بعد هذا العمل أشعر بالبهجة، مفعماً بالنشاط، أستمتع بهذا العمل وروحي تحلق سعيدة كما لو أن فانوساً اشتعل في قلبي، ينتابني حماس وشوق غريب لا حد له، ولا أقدر على وصفه! الآن ليس لدي أي أمل آخر، سوى أن أسمع حكاية الرجل المسحور من فم سميرة. كم هو غريب هذا الانتظار وهذا المفهوم! الآن أنا مطمئن من أن أسرار حياتي كامنة في هذه الحكاية الغريبة، ولدت هذا الإحساس بداخلي نفس تلك القوة المجهولة وقد أغناني عن أي إحساس أرضي، فقط أحياناً أقلق من أن تكون سميرة قد نسيت بعد الاستيقاظ من تلك الرؤية المقدسة الوعد الذي قطعته على نفسها، تصور الموت القاسي أهون علي بكثير من هذا التفكير المقلق.

أراقبها من أجل أن أتأكد من أنها لم تنس وعدها ولم تعد عن قرارها، أدقق في كلامها، أراقب سلوكها، وإذ أقول: إنني حي فعلى أمل قراءة هذه الحكاية وعن لسانها أيضاً، ربما لا أقول كلاماً فارغاً، لكن لا أدرك أي شيء من ظاهر كلامها وسلوكها، حتى إنني أحياناً أمر بغرفتها، لكن أراها مشغولة بعمل عادي وأتركها دون أن أذكرها بقرارها.

امتهنت الصبر، صبر قاتل ومضنٍ. أنتظر بفارغ الصبر أن أقرأ الحكاية كما لو أنني قد قرأتها مراراً، لكن لا أتذكرها، وهذا هو الفارق!

-٢٢-

تحل شيئاً فشيئاً أيام الضجر والخدر، لم تقع أي حادثة ذات معنى خاص؛ في النهار أقضي وقتي في التجول في الأماكن البعيدة، دون أن يقع حدث ما، لا علم لي بحال صاحب عملي، وفي الأساس لا أقترب من تلك النواحي، أصبحت غير مكترث بأي شيء، في وقت العشاء أبلع مجبراً عدة لقيمات، وأتظاهر بأني سعيد حتى إنني أضحك، كي يرتاح بال أمي، لكن ليس لدي أي شهية، أكتفي بلقمة من الخبز اليابس أو حبة من التمر. في الظاهر أشبع، ولا أجد من بعدها رغبة في الطعام، آكل كشخص متقشف وزاهد، وأنتظر، في هذه الأيام، أيام الهجرة من هذه الدنيا إلى الآخرة، يمر يوم ما أو ليلة ما تأتي فيه إلى منزلنا بالمصادفة فتاة اسمها رُخساره، كنت أعرف تلك الفتاة، كنت قد رأيتها عدة مرات، إن لم أكن مخطئاً، كنت أحبها في وقت ما، كانت تنظر إلى كأنها كانت تريد أن تقول: "أحبك"، أفهمها بنظراتي أن وجودها أيضاً قد مات بداخلي! لكن لم أفهم لماذا كانت تلك الفتاة تبكي حين الذهاب، لا أعلم! ربما كانت قد عشقت أو كان لديها حزن يسكن صدرها ولم تكن قادرة على التعبير عنه، كانت أمها تقول: ستنتهي دراستها في القريب العاجل وستبدأ مراسم الزفاف وأنا أدعو لها بأن تسعد وتهنأ.

قلبي يحترق من أجل أمي فقط التي تحصي الأيام في انتظار ليلة الزفاف السعيد وسعادة ابنها، وأنا أسكب قطرات الدموع ليلاً من أجل انتظارها المقدس والصادق هذا، كي تسكن آلام جروح روحي المتعبة والعاجزة قليلاً فأنا أعلم أنني لا أستطيع أن أرد جميل سهرها كل تلك الليالي وآلامها المهلكة، أنا أكثر تعباً من أن أكون قادراً على القيام بعمل يليق بمقامها، ولهذا يتلوع قلبي، وأسكب الدموع من أجلها جزاء لكل تلك التضحيات.

على أي حال، ذلك النهار أو تلك الليلة التي قابلت فيها تلك الفتاة مع أمها، جاء وانقضى، دون أن أسأل أحداً لماذا جاءت تلك الفتاة إلى منزلنا؟ وأي شخص ينبغي أن يتزوجها؟ ولماذا حين ذهابها كانت تبكي؟ لكن لم أرَ من الضروري أن أسأل عن أي شيء، ما الفرق؟ أرجو الله أن تكون من السعداء الذين يعيشون بسعادة ويحققون آمالهم وأمنياتهم الواحدة تلو الأخرى. لكن أمي كانت تود أن تتكلم معي حول هذه الأم وابنتها اللتين كانتا قد أتيتا إلى منزلنا، لكن الصداع منعها، حينئذٍ تجلس في زاوية وتضع وسادة فوق قدميها وتنزل رأسها إليها، وبعد قليل يبدأ أنينها، حتى سميرة وأبي لم يقولا شيئاً حول الفتاة وأمها، كلتاهما ذهبت وصارت في ذاكرة النسيان سريعاً جدّاً.

في النهاية تحل ليلة مدهشة. منتصف الليل، تئن أمي من شدة الألم، سميرة ليست بجانبها على خلاف العادة، تشتد ضربات قلبي دون أن أعلم لماذا، أبي في زاوية الغرفة يقضي حالة انتقال بين النوم واليقظة؛ فأنين أمي

لا يسمح لملاك النوم بأن يأخذه معه إلى أعماق النسيان، وقبل أن أشرع بالكلام أستأذن لأخرج من الغرفة.

يسود الصمت داخل الممر وأنطلق نحو فناء المنزل، وألقي بنظرة على السماء، ثم أتفحص بعيني كل أرجاء الفناء، لا أجد أي سبب لفعلي هذا، ربما أبحث عن سبب لهذا الاندفاع المفاجئ الذي ما يزال ينتابني، وأمام غرفة سميرة يبدو أن هناك شيئاً يثير الشك، كأن ظلاً يُسحب على الأرض، أتقدم قليلاً وأنا مستغرب، ينبثق نور فاتح اللون من خلال الباب.

أقترب بهدوء ثم أقف أمام باب سميرة، أراها من خلال شق الباب، لكن ما أزال غير مصدق ما تراه عيني، سميرة مشغولة بالكتابة في صمت الغرفة الواهم، ثم يحل اضطراب مدمر ويُشعل الحماس ناراً في صدري.

أتقدم كما لو أن سميرة تعلم أنني أنظر إليها، لكن لا تظهر أي ردة فعل، ما تزال منشغلة بالكتابة، أو أنها تتظاهر بهذا، لكن حالما أفتح باب الغرفة فجأة تنهض مرعبة، وعندما تراني تجمع كتاباتها وتجد لهم مكاناً أصبحت الآن أعرفه داخل الخزانة الجدارية، كما لو أنها لا تهتم بها أبداً.

تترك الخزانة وتأتي صوب الباب على الفور مندفعة وقلقة قليلاً، لكن عندما تتأكد أن لا أحد برفقتي تتنفس الصعداء، تمسكني بيدي وتسحبني إلى داخل الغرفة، ثم تغلق الباب.

- اعتقدت أمي، لم يهدأ ألم رأسها؟

- لا، إنها تئن. لكن كما لو أنها ليست بحاجة لك.

- يجب أن أذهب إليها.

- ماذا كنت تفعلين؟

تنظر إلى بعد هذا الكلام، ثم تذهب نحو الخزانة الجدارية كما لو أنها قلقت على كتاباتها، لكنها تبتعد عنها بصمت وتذهب نحو النافذة، تراني من خلال زجاج النافذة، تخاف من الإجابة، تفتح النافذة وتقول: "تعال اجلس، يجب أن أعود إلى أمي."

مسار الحديث تغير، وأنا لا أصر عليه، فشعرت بالاطمئنان من أنها لم تنسَ وعدها، وهذا كافٍ بالنسبة إليّ، لكن لدي حماس شديد لدرجة أنني أريد أن أفتح باب الخزانة أمام عينيها، وأبدأ بقراءة كتاباتها. ألقي نظرة على الخزانة مع هذا التصور، ثم أعود نحو سميرة، كأنها تدعوني للصبر بصمتها ولمعة نظرتها تلك، تقول: "إذا اشتد ألمها يجب أن نأخذها إلى المستوصف."

أذهب نحو الباب، تنظر إليّ، أريح بالها:

- إذا لم تتحسن تعالي وأخبريني.

لا تقول شيئاً، وأخرج من غرفتها، أمكث قرب الباب قليلاً، وتخرج سميرة على عجلة، تغلق الباب، وتذهب نحو الغرفة التي تجلس أمي فيها، إنها تتأوه من ألمها، على عتبة الباب تنظر إليّ قليلاً.

- اذهب ونم، إذا لزم الأمر آتي وأناديك.

تفتح الباب، أسمع صوت أمي تخاطب سميرة قائلة: "مع من تتحدثين؟".

تغلق سميرة الباب وفي صمت الرواق ودون أن أنوي مسبقاً الذهاب إلى غرفتها أسرع نحو الخزانة، أفتحها وأحمل دفتر المذكرات الصغير وأتصفحه، فجأة يسيطر علي وهم أنني سمعت صوتاً، فأندفع متوتراً لأعيد الدفتر إلى مكانه الأول، وأخرج من الغرفة مضطرباً.

داخل الرّواق تسير روحي المتوترة والمتنقلة نحوي وتحل مرة أخرى داخل جسدي الخالي من الروح، يضايقني القلق والخجل من فعلي هذا، وأدخل على عجلة غرفتي، وأحاول أن أكبت في داخلي هوس الذهاب نحو الخزانة. أبدل ملابسي ودون توقف أذهب إلى سريري في جو مظلم نسبياً وأتمدد على السرير، يجب أن أصبر حتى تفرغ من كتابة هذه القصة الغريبة. مطمئن من أن سميرة ترغب في أن أقرأ كتاباتها، كل الدقائق الماضية تزيد هذا الاحتمال قوة؛ تتكلم نظرات سميرة معي عن ذلك الرجل المقدس، وأنا ليس لدي أي شك بإحساسي هذا، نعم، هي كانت بلا شك تريد أن أراها وهي تكتب، ذلك الظل أليس ظل سميرة؟ ألم تكن قد رأتني في بداية الرواق بينما كنت أتأمل السماء؟ لماذا كان باب غرفتها مفتوحاً؟ بالرغم من أن سميرة ارتعبت بشدة خوفاً من أن تراها أمي على ذلك الحال، لا أعلم! ربما كان بالها مطمئناً لأن أمي كانت مصابة بالصداع، ولهذا كانت متأكدة من أنها لن تأتي إليها.

على أي حال -إذا لم أكن مخطئاً- هي مشغولة بكتابة حكاية الرجل المسحور نفسها، بلا أي شك هذا أغرب حوادث حياتي وأروعها، وأعتقد

أن هذا الحدث هو مفتاح كل الأسرار المثيرة للوهم والمفعمة بالغموض في حياتي. هو لغز صعب معقد سيحل بمساعدة سميرة التي ستفتح من وسط عتمته وظلمته نافذة لتشرق الشمس الذهبية من خلالها.

أغلق أجفاني كي يأتي ملاك النوم ويسحبني نحو أعماق عالم النسيان والرؤية الحالمة، لكن لا أعلم أي شيء أدى إلى أن يشغلني حاكم الأرض والسموات القادر المقتدر بنفسه، هل وجوده وحضوره في هذا الوقت من الليل يكون بناءاً على رغبتي القلبية - دون أن أكون واعياً لها – أو يشغلني بنفسه ويهب روحي القوة بإرادة منه؟! أدقق في صمت الليل وسكونه كما لو أن الملائكة يأخذون ذلك الرجل المقدس جولة في السموات.

-٢٣-

منذ ليالي عدة وأنا أرى سميرة في حال الكتابة، لكن لم أسألها حتى الآن ماذا تكتب، وعلى العكس أفضل أن تلاحظ انتباهي وفطنتي، كي تنهي عملها ببال مرتاح، لكن في كل ليلة تنشغل بها في هذا العمل ينقص صبري بنفس المقدار أيضاً، الصبر تحت القبة الملأى بالنجوم الذي يوحي بإحساس الازدراء لم يعد قابلاً للتحمل، ثم إنني متعطش لسماع أو قراءة هذه الحكاية. الحكاية التي لا يجب أن أسمعها أو أقرأها في البداية، بل وفقاً لحساب دقيق، أصل هذه الرواية مخبأ في فكري وخيالي، ولكني متوتر لأنني أريد أن أقرأها من قلم وفكر شخص آخر.

الآن وقد جلست تحت مئذنة مسجد قديم أمام الشمس القادرة، أقول لنفسي: " يا له من خيال واهم!" يبدو لي أنه خيالي جدّاً ولا يمس الواقع بصلة أن أقرر أن أصل إلى هذه الكتابات بأي طريقة كانت وأقرأها في هذه الليلة، في الأساس كيف يمكن أن تجري هذه الحكاية من قلم شخص آخر وقد حُضرت خميرتها الأصلية في فكري ولم أروِها لأي أحد؟! هل تصديق هذا المعنى الغريب عمل سهل؟!

ما يزال هناك طريق طويل حتى الليل، وأنا أحاول أن أطرد من نفسي هذا التفكير البعيد الذي يهاجمني من كل حدب وصوب. يا له من خيال غريب! ألم تكن تلك الليلة التي سمعت فيها صوت سميرة وهي تنوي

كتابة حكاية الرجل المسحور مجرد خيال ورؤية؟ هل حقاً في ليلة ما وأنا مستيقظ كنت قد سمعت ذلك الصوت المدمر؟ ذلك الصوت الأرضي - السماوي الذي يعلن عن هجرة الرجل المقدس؟

أخيراً يحين ذلك الوقت المثير للدهشة، يسيطر علي الجنون، قد جلست في انتظار فرصة كي تخلو غرفة سميرة، تجولت كل اليوم في الأزقة والمناطق القديمة في المدينة مثل إنسان مشوش ومترنح قد طار العقل من رأسه، وكنت قد نمت قرب أعتاب مئذنة مسجد قديم على بساط قديم مهترئ ذي لون باهت. كان قد تركني هذا النوم الشبيه بالنشوة على حدود الفطنة والنسيان، وجدت نفسي وحيداً تحت السماء غير المتناهية في هذا الحد الفاصل الذي لا زمان له.

لا أتذكر أي ليلة نام فيها أبي أو أمي في غرفة سميرة، لكن في هذه الليلة التي قد قصدت بها تلك الكتابات أمي هناك وأبي أيضاً، أمي ترعد كالسماء وتلتف حول نفسها من شدة الألم، أنا في حالة تنقل دائم بين غرفتي وغرفة سميرة، لا يسأل أحد عن حالي وأحوالي، لون سميرة كلون أمي مصفر أيضاً، لا يمكن فهم شيء من وجه أبي كتمثال لا تبدو عليه لا حالة السرور ولا حالة الهم والحزن، كلما أحضرت له سميرة الشاي يشربه فقط دون أن ينطق بحرف، ويبقى ينتظر أيضاً.

بالرغم من أن أمي تعلم أنه من الخطر عليها، تبتلع ثلاث حبات من الدواء في أقل من ساعة، وفي النهاية يحدث الشيء الذي لم يكن في انتظاره أي أحد: يفارقها الألم القاتل وأبي بلا تريث يترك غرفة سميرة ببال مرتاح، أما أنا فقد جلست قرب النافذة متيقظاً لأرى ما الذي سيحدث، لأنني

أعلم لماذا قد جلست منتظراً أي لحظة، وإلا فأنا في حالة بين اليقظة والنسيان، النشوة والجنون، النوم والاستيقاظ، الحيرة والفناء، غاية الشوق والحماس غير القابل للوصف، حقاً غريب. كانت أمي مصممة على النوم في مكانها، لكنها انصرفت فجأة عن قرار النوم في تلك الغرفة، تذهب سميرة معها أيضاً، وأبقى وحيداً، بينما قد حانت الفرصة، الآن أحدق بالخزانة ساكناً دون أي حراك.

ربما أبقى ربع ساعة تحت رعد السماء محدقاً بالخزانة ساكناً، حتى إنني أمر من قربها دون أن أعطيها أي أهمية وأخرج من الغرفة. أنظر إلى داخل الغرفة الأخرى من وسط الفناء ومن خلف النافذة؛ أبي نائم في مكانه المعتاد على فراشه، وسميرة تتحضر أيضاً كي تنام قرب أمي.

من المكان نفسه أتأمل الغيوم، كأن السماء مستيقظة وتتأملني، الرعد قوي جدّاً، وأحياناً يضيء برق مخيف السماء، في هذه اللحظات يفارق الازدراء روحي ونفسي، وأشعر أن هناك صلة قوية تربطني بكل الكائنات، أحيى في سكر مثير للجنون كأنهم سقوني من شراب سماوي، وأنا في حيرة من الذي أشاهده وأرغب بأن أصيح، حتى يزلزل صوتي قبة السماء، أشعر بأني قد اتصلت ثانية بزمان آخر ومرحلة مفقودة أخرى، كأني وجدت نفسي دون أن أتذكر شيئاً من ذكرياتي الضائعة.

فجأة أذهب بسرعة نحو غرفة سميرة كأني تذكرت شيئاً، أمر من الرواق وأدخل غرفتها، أذهب صوب الخزانة وأفتح بابها، أرفع الدفتر الصغير الأخضر اللون الذي كان تحت طاسة زجاجية زرقاء اللون وأغلق باب الخزانة مرة ثانية، وأخرج من الغرفة ثم أدخل غرفتي دون توقف،

أقفل الباب من الداخل، أشعل الضوء وأذهب مندفعاً والعرق يتصبب من وجهي صوب النافذة بقصد سحب الستارة، أتجمد على عتبة النافذة؛ النمل الطائر يطير ويهبط حول عش النمل وكل أنحاء الحافة العريضة للنافذة.

ابتسم لاإرادياً وتماماً عقب البرق الذي يضيء أرض النمل للحظة بنوره السماوي، أسحب الستارة وأجلس على سريري، حينئذٍ، تحت رعد السماء أحدق بصفحة لا عنوان لها، وتبدأ على النحو الآتي:

"يا ربي الأعلى والغني! يا من يصطفي ويرسل إلى الأرض! سعيدة جدّاً لأنك قد اصطفيته مرة أخرى. تلك الملاك التي تحلق في الملكوت، أبلغتني رسالة مفرحة."

الآن سعيدة أكثر لأنه قد سمح لي بأن أكتب تلك الحكاية المعجزة، ملاكي المؤنسة قالت: " لا تخف! لن يفهم أحد".

تقول: "أريحي بالك واكتبي".

والآن أنا أكتب...

"وقع حدث غريب في منزلنا منذ ثلاث سنوات؛ في صباح يوم ما ملأ صوت أمي المنزل، لم يكن أبي في المنزل، كان قد ذهب إلى عمله في الصباح الباكر، فقط كان يوسف ويونس في المنزل، ركضنا أنا ويوسف نحو أمي، ثم انتبهنا ليونس، كنا قد يبسنا في مكاننا من شدة الذهول؛ كأنه كان فاقداً للوعي، في الظاهر لم يكن يشعر بشيء، وشرعت أمي مرة ثانية بالصراخ والعويل، أنا ويوسف أنهضنا يونس وأجلسناه، كان نظره ثابتاً باتجاهنا كما لو أنه لم يكن يرى أي مكان، كان يحدق بمكان بعيد، بالرغم من أن ذلك المكان كان مجرد غرفة صغيرة، لكن كما لو أنه كان يرى الأفق البعيد.

حالما أجلسناه، قال: "أنا"، كرر هذه الكلمة مرة أخرى، كان العرق يتصبب من وجهه وعلى الأخص جبهته، كان لون وجهه قد ابيضّ كثيراً، كانت أمي خائفة جدّاً، أما أنا فلم أخف، يوسف ارتبك أيضاً.

أحضر يوسف الماء له، لكن يونس لم يشربه، جاءت الجارات سريعاً إلى منزلنا لتواسين أمي، كانت ما تزال تبكي وأحياناً كانت تصرخ، وتئن بشكل دائم، أراد يوسف أن يطلع أبي لكن أمي قالت: "لا، لنأخذه إلى الطبيب".

ثم أوصلناه إلى المستشفى بمساعدة الجارات ورجل من الجيران كان يمتلك سيارة.

حيثما كانوا يأخذون يونس كنت في قربه، آخر طبيب عاينه أمر بأن يحقن بإبرتين، ثم أعطوه حبة دواء أيضاً ثم شراباً.

بعد عدة ساعات أحضرنا يونس إلى المنزل، كأنه لم يكن يسمع كلامنا، ذلك اليوم كان من أيام الصيف وكان الطقس حاراً، وضعت أمي فراش نومها على مقربة من الجدار تحت شجرة السرو أمام الحوض كي تستريح قليلاً، كانت النساء المجاورات تأتين لزيارتها واحدة واحدة أو مجتمعات، وكن يتحدثن مع أمي في الغرفة أو في نفس الفناء لكن بعيداً قليلاً عن يونس، وكن يحاولن أن يواسينها، لكن عندما يسألنها "ماذا قال الطبيب؟" لم تكن تعلم بماذا تجيبهن؛ لأنها نفسها لم تكن تعلم أي مرض كان قد أصاب يونس، ليست هي فقط، بل على ما أعتقد حتى الأطباء لم يفهموا لماذا أصبح على هذا الحال؟

كان من الواضح أن أمي ما تزال قلقة، كنت أقرأ هذا القلق في عينيها، كان لونهما مثل الطباشير، ثم يتحول شيئاً فشيئاً إلى الأصفر ويبقي هكذا. ما

يزال لون وجهها أصفر حتى الساعة بعد كل هذه السنوات، حتى ذلك اليوم لم تصب بالصداع إلى هذه الدرجة القوية إلا حالما رأت يونس على ذلك الحال فاشتد صداعها، هي تقول هذا وأعتقد أنها تقول الحق؛ فهي لم تكن تئن من الصداع قطّ، وكلما أصابها كان يزول بعد ساعتين أو ثلاث ساعات، ولهذا السبب لم يكن يزعجها كثيراً.

في النهاية جاء أبي إلى المنزل، وسقط على الأرض باكياً هناك داخل الفناء، أمي حالما رأت أبي شرعت بالبكاء، وقبل أن يسأل حتى ماذا حدث كانت تبكي بشكل وكأن يونس كان قد مات لا سمح الله، ولم يكن لديها أي جواب تجيب به عن أسئلة أبي.

جلس أبي باكياً قرب يونس، وقبله، سأله: "ماذا حدث؟" لكن كأنه لم يسمع أي شيء، كانت عيناه مفتوحتين فقط، ربما لم يكن يرانا أيضاً، كان ينظر إلى مكان كالسماء، لكن نظره كان معلقاً بالحائط المقابل له أو بشجرة العنب، كان ينظر إلى السماء أحياناً فقط ويتمتم بكلام ما.

انهار أبي، وأحضرت له أمي ماءً محلّى بالسكر وسقته إياه، لم يتغير حال أبي، ولا سيّما حينما عرف أننا قد أخذناه إلى الطبيب، ليس طبيباً واحداً بل عدة أطباء كانوا قد فحصوه وعاينوه، لم يكن أبي من الناس الذين يمكن أن يسيطر عليهم اليأس، لكنه تأسف كثيراً، وقرر أن يأخذه هو بنفسه إلى الطبيب الذي كان يعرفه مسبقاً، لم تقل أمي شيئاً، كان هذا ما تريده وترجوه من الله على أمل أن يتحسن.

عندما أتى أبي إلى المنزل جاء الرجال من الجيران أيضاً لرؤية يونس، وكالنساء اللواتي كنّ يتحدثن مع أمي حول هذا الشأن هم أيضاً تحدثوا معه،

أمي وأنا كنا نحضر لهم الشاي، لكن يوسف لم يكن يفعل أي شيء؛ كان متضايقاً ومنعزلاً، لم يكن يستطيع التصديق بأن يونس أصيب بهذا الحال، لم يكن قادراً على فعل أي شيء، فقط كان يشاهد.

في الخلاصة كل واحدة من النساء قالت شيئاً ما كالرجال، قال أكثرهن: "يونس مسحور".

كانت أمي تُعدُّ هذا الكلام هراءً وخرافةً، لكن لم تقل شيئاً أمام النساء حتى لا يأخذن على خاطرهن، كانت تستمع لأحاديثهن، وكان أبي يستمع لكلام الرجال أيضاً، بعضهم يقول: "ماذا يعني السحر والحسد؟! ما هذا الكلام الذي تتحدثون به!؟"

الرجال من الجيران كانوا يعتقدون بأن يونس قد أصابته سكتة دماغية خفيفة، وهنت قوة أبي ثانية حين تذكر الكلام عن السكتة دون أن يغمى عليه، بينت له أمي أن الأطباء قد قالوا ليست سكتة، كل الأطباء قالوا هذا الكلام.

استعاد أبي قوته مرة أخرى، وسرّ بذلك خصوصاً بعد أن عرف أن يديه وقدميه سالمة.

حين الذهاب أوحى بعض الرجال والنساء لأمي وأبي بأنه لا يمكن الاطمئنان للأطباء على الإطلاق، قال بعضهم مرة أخرى: "من المؤكد أنه أصيب بالسكتة" وقال بعضهم: "إنه مسحور"، قالوا هذا الكلام وغادروا منزلنا.

في آخر الليل جلسنا أنا ويوسف وأبي وأمي قرب الحوض حول يونس وحيدين حائرين، قال أبي: "لنتكلم معه"، وافقنا، قد تكرر ذلك مراراً.

بدأت أمي، سألته وهي تبكي: "يونس، بني! قل ماذا حدث؟ بالله عليك تكلم"، ولكن يونس لم يتكلم.

ثم جاء دور يوسف. هو قال أيضاً: "يونس! لماذا لا تتكلم؟"

جاء دور أبي، لكن أمي شرعت بالكلام وهي تبكي مرة أخرى، وكررت سؤالها، خاف أبي من أن يكون قد أصبح أبكمَ، لكن ثلاثتنا أرحنا باله بأنه ليس كذلك؛ لأنه كان قد قال عدة كلمات.

غرق أبي في التفكير بدلاً من أن يكلمه، كان يريد أن يبكي مرة أخرى، نظر إلى يونس فقط، ثم هز رأسه متأسفاً وقال: " يعني ماذا حصل؟ كان على ما يرام، بالتأكيد قد حسدوه".

ثم أشعلت أمي بخوراً بتوصية منه، خافت جارتنا من أنه ربما قد اشتعل حريق في منزلنا، لكن عندما وصلت رائحة البخور إلى أنفها صلت على النبي، ودعت بأن يتحسن يونس في أسرع وقت ممكن.

جاء دوري ودور أبي لكننا لم نتحدث معه، تكلّم بعضنا مع بعضٍ حول سفرة العشاء، بدلاً من أن نتناول العشاء كنا نروي لأبي ماذا حدث في صباح ذلك اليوم، سكب أبي الدموع بدلاً من أن يتناول العشاء، وفي النهاية شرب كأساً من الماء، وذهب ليجلس قرب يونس، ثم شرع بالتدخين.

عندما يتضايق أبي أو يغضب أو يشوش شيء ما تفكيره يدخن، تلك الليلة دخن قرب يونس خمس سجائر.

لم تنم أمي، أما أنا فقد أخذني النوم من شدة التعب، عندما استيقظت في منتصف الليل لأشرب الماء، رأيت أبي وأمي جالسين قرب يونس

ويتحدثُ بعضهما مع بعضٍ بهدوء، بقيت ساعة لم يسيطر علي النوم فيها، تظاهرت بأنني قد نمت، لكني كنت أراهما يتحدثان بهدوء ويجففان دموعهما أحياناً.

أمي أحضرت له الشاي في ذلك الوقت من منتصف الليل، كان يشرب الشاي ويدخن أيضاً، في النهاية لم أفهم ماذا حدث، لكن في الصباح عندما استيقظت لم يكن أبي موجوداً ولا أمي ولا يونس، يوسف أيضاً لم يكن موجوداً؛ كنت وحيدة.

كنت أفكر في نفسي؛ أيهما صحيح؟ كلام تلك المجموعة من النساء اللاتي قلن بأن يونس قد سحر أو كلام تلك المجموعة الأخرى؟ لكني أعتقد أن الذين سحروه لم يكونوا الشياطين، بل كان الله من سحره، يونس كان سحر ومُسّ بواسطة يد الله، فهو مثل شخص لا يستطيع السيطرة على يديه وقدميه.

كان إنساناً غريب الأطوار، لكن لم يكن أبي أو أمي يريدان أن يربطا بين حالته هذه وسلوكه السابق، لم يكونا يفكران بأنه من المحتمل أن يكون سلوكه السابق سبب حالته هذه.

قبل أن يقع هذا الحدث الغريب كان يونس مثل سائر الناس، لكن الفرق أنه كان يخاف الله إلى حد كبير، كنت عاشقة لحالته هذه، وكنت أتمنى أن يأتي يوم ما وأصل إلى هذا المقام الروحاني، عندما يصلي كان يسكب الدموع دون توقف، كان أبي يفتخر به، لكن أمي لم تكن تكترث لسلوكه هذا، كانت تفضل أكثر بأن يصلي صلاة ظاهرية، وأن يذهب لعمله.

كان يونس يذهب لمكان خالٍ، وكان يصلي وكأنه يرى الله أمام عينيه.

استمر الوضع على هذا النحو، وكان سلوك يونس يصبح أكثر غرابة يوماً بعد يوم، وصل الأمر لدرجة أن أمي أصبحت قلقة عليه؛ كانت تقول: " لا تبكِ كل هذا البكاء، مضرّ لعينيك".

لكنّ عيني يونس كانتا أكثر حدة من الجميع، ويوماً ما قال لي كلاماً واشترط ألا أتحدث للآخرين عنه، وكان مطمئناً من أنني سأحفظ سره، ولهذا وقف وسط الغرفة وجعلني أقف قربه، وقال: "انظري إلى هذه الخريطة".

كنا نبعد عن هذه الخريطة التي كانت قد علقت على الجدار خمس أقدام، لا يمكن أن تقرأ أياً من الكلمات والأسماء التي خُطت عليها، لكن يونس قال: "أنا أستطيع أن أقرأها"، ثم قال لي: "اذهبي قرب الخريطة واختاري نقطة ما"، اخترت، وبعد لحظات من وضعي إصبعي على اسم ما قال يونس بهدوء: "سميرة، ارفعي أصبعك"، سحبت إصبعي جانباً، ثم قال: "جبل منار".

اخترت وأنا متعجبة نقطة صغيرة أخرى، صغيرة جدّاً، لا يمكن قراءتها ولا حتى عن بعد قدمين، لكنه على بعد خمس أقدام ومن هذه المسافة التي كانت تبدو منها كل الأسماء متداخلة قرأها: "مورت. شورابله. كراب. سراب. ريكا".

ثم جاء نحوي، وقال: "لا تتحدثي عن هذا الأمر أبداً"، وأنا أعده مرة ثانية بأنني لن أفشي سره على الإطلاق.

في بعض الأحيان كان يونس يقول كلاماً كان الجميع يصاب بالحيرة بسببه؛ قال في صباح يوم ما: " ابقوا في المنزل غداً، عمي قادم إلينا".

وفعلاً كان قادماً إلينا؛ غداة ذلك اليوم أتى إلى منزلنا، كان أبي وأمي ويوسف يعدون توقعاته الصائبة مجرد مصادفة ليس أكثر، أحياناً أمي فقط كانت تقول: "يونس جميل القلب، ليس من أهل الكذب والنفاق"، لكنها لم توافق أبداً على أنه يستطيع أن يخبر عن المستقبل، لهذا السبب كانت تتفق مع أبي ويوسف، وكانت تقول: "يحدث بمحض المصادفة".

لكن عندما تكرر ذلك منه، وكان كل ما يقوله يحدث بعينه، ارتعبت أمي، وكان أبي يقول: "يونس! لا تتدخل في عمل الله! لا تقل مثل هذا الكلام!"

ثم يدعو الله بأن يسامح يونس.

كانت تصرفات يونس تزداد غرابة يوماً بعد يوم، كل ما كان يملكه كان يهبه للفقراء والمعدومين، وكان يصر على هذا العمل إلى درجة ارتفع بسببها صوت أمي.

كان قد تجاوز عمله الخوف، حين الصلاة لم يعد يبكي فقط؛ كان يرتجف أيضاً كما لو أن أسداً أو فهداً جائعاً وغاضباً يقف أمامه، ويرصد حركاته، ولا مفر له من قبضته.

حينما كان يراه أبي في تلك الحالة كان بدنه يقشعر، وكان يقول: "هذا العمل ليس صحيحاً ومخالفٌ للدين".

ذهبت أمي إلى أمام المسجد وحدثته عن أحوال يونس، كنت معها، قال إمام المسجد: " ليته كان ولدي!"

ثم وضح لأمي أن عباد الله المميزين فقط يعيشون هذه الحالات، وقرر أن يأتي لرؤيته، لكن يونس لم يكن حاضراً لرؤية أحد، على الرغم من

هذا اهتم لطلبه وقابل ذلك الرجل الروحاني، وقال: " لو لم تكن إمام المسجد ورجلاً روحانياً لكان من غير الممكن أن أسمح لك بمقابلتي".

في تلك الساعة تحدثا مع بعض لفترة، وكان أبي أيضاً، قال يونس في ذلك الجمع كلاماً هز فقرات العمود الفقري للرجل الروحاني؛ قال: "اغسل يديك من ابنك للأبد"، علماً أنه لا صلة تربط بين يونس وابن ذلك الرجل الروحاني، حتى لم يكن قد سمع باسمه، هذا الرجل الروحاني اختير حديثاً ليكون أمام مسجد منطقتنا، نحن لم نكن قد رأيناه مع ابنه ولا حتى مرة واحدة، خُطِف لون أمام المسجد عند سماعه هذا الكلام، اعترض أبي على كلام يونس قائلاً: "ما هذا الكلام الذي قلته!؟"

عضت أمي على شفتيها أيضاً، لكن يونس قال ذلك الكلام مرة ثانية، وزاد: "لا تفكر به، لا أمل منه، إذا أقمت له عزاء ستكون من المكروهين عند الله"، عارض أبي يونس بشدة وتشاجر معه، يعتذر يونس ويذهب.

الرجل الروحاني الذي بدا وكأنه قد آمن بكلام يونس، طلب من أمي وأبي أن يضبطا نفسيهما، ثم قال حين الذهاب: "لست مستاء أبداً من يونس، ابنكم".

بعد ثلاثة أيام توفي ابن إمام مسجدنا في حادث سير مؤلم، من بعدها لم تطأ قدم أبي ذلك المسجد، وتتوسل أمي يونس بأن ينتبه لكلامه.

كان يونس يسكت دائماً أمام أمي، وكان يجيبها بالابتسامة وكان يطيعها، لكنه أحياناً كان يفقد السيطرة على نفسه، كان يغرق في حالة

نشوة، وكأنه كان يوحى إليه أن يعيد قول ما كان يراه من أشياء أو ما كان يسمعه.

بالرغم من أن يونس كان قد قال لإمام المسجد هذا الكلام، رأيته يوماً ما يصادف يونس في الشارع، وبدلاً من أن يكون متضايقاً منه، يأخذه في الأحضان ويقبله، يونس أيضاً يقبل يده، ويقول له كلاماً لم أسمع شيئاً منه من تلك المسافة.

كان يونس يتغير يوماً بعد يوم، كان قد أنهى دراسته، لكنه لم يكن يذهب للعمل، كان يريد أن يتابع دراسته، لم يكن يُرى بالقرب منه سوى القرآن وكتب الأدعية، كان ينهض في منتصف الليل من النوم ويختلي في زاوية ما ويعبد الله بشكل كان يدفعني للتحسر.

في بعض الليالي وبعيداً عن عيني أمي كنت أبقى يقظة أتأمل تصرفاته، وأحياناً كنت أقلده وأعبد الله مثله، لكن أين هو وأين أنا!؟ عندما كان يصلي كان يرتجف وكأن أسلاك الكهرباء وضعت على جسده، وعلى الرغم من أنني أحببت سلوكه هذا كنت أصاب بالخوف والهلع أيضاً! حتى إني ارتعبت مرة أو مرتين لدرجة أني أردت أن أذهب وأنادي أبي لأضبطه بالتعاون معه!

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل في تلك الليلة التي ارتعبت فيها إلى هذه الدرجة، كان يرتجف بشدة وكان يسكب الدموع حتى إن صوته كان قد تغيّر لهذا السبب؛ كأنه كان يئن، لم أكن قادرة على فهم أي كلمة، كانت الكلمات تخرج من حلقه بخوف ورعشة وأنين، كان يئن على

نحو كأنه كان يتعرض للتعذيب الشديد، يا لها من أنات! كأنه كان يرتجى، لم يكن مسيطراً على نفسه، كان يلهث، بؤبؤ عينه يتسع، يتأوه، ويرتجف ثانية لدرجة أني هربت، خفت أكثر من استيقاظ أبي وأمي، أغلقت باب غرفته، وذهبت كي لا أراه، فنفَسي كاد ينقطع، وحالما رفعت نظري عنه وأبعدت اليد التي كانت تسد طريق نفسي، وتضغط على صدري تحررت ونجوت.

منذ ذلك اليوم الذي وقعت فيه هذه الحادثة، أصبح أخذه إلى الأطباء عمل أبي وأمي، لم يبق طبيب لم يفحصه، لم يدرك أحد ما حل به، ولاسيّما أنه لم يكن يأكل سوى حبة أو حبتين من التمر وكمية قليلة من الماء التي كانت أمي تضعها في فمه أيضاً، لكنه لم يكن يطلب أكثر من ذلك، لم يكن يضع أي نوع من الطعام في فمه، خلال اليوم كله فقط حبة حبتان من التمر، أصبح هذا كل طعامه، حتى إنه لم يعد يسمح لأمي بأن تعطيه الدواء.

لم يكن يتكلم أبداً في الأيام الأولى، لكنه بعدها لم يعد يفتح فمه أيضاً ولا حتى بالقوة، لهذا السبب كان يزداد حزن أمي أكثر، كانت تعتقد أنه إذا أخذ دواءه فسيتحسن أسرع.

استمر هذا الوضع على المنوال نفسه، كان لدينا كل ليلة ضيوف وزائرون، وفي آخر الليل بكاء وأنين أبي أو أمي، يوسف لم يكن يبالي؛ كان مشغولاً بعمله، هو أيضاً كان قد تعب، لم يكن قادراً على فعل شيء، لهذا السبب انشغل بعمله.

أتذكر الليلة السابقة لتلك الحادثة؛ كنا جميعاً قد جلسنا حول سفرة العشاء وكان يونس ينظر إلينا وكأنه -لا قدر الله- يموت ويتركنا، كان ينظر

إلينا بحنان، لا أستطيع وصف آخر نظرة؛ كانت نظرة وداع، كان الغبار يتساقط أمام ستار عينيه.

كنت أراه وكان يعلم أنني أفهمه أكثر من الجميع، تلك الليلة تناول عشاء خفيفاً، لكن لم يتركنا، وعلى خلاف الليالي الماضية بقي معنا حتى حان وقت النوم، انفصل عنا حينما حل وقت النوم المعتاد، كنت أراقبه، لكني أتظاهر أنني منشغلة بعملي، بالرغم من أنني لم أكن أرغب بأن أخدع يونس لكن كنت قد أصبحت فضولية وأريد أن أفهم مغزى عمله ونظراته، حينما تأكدت من أن أمي قد غرقت في النوم، نهضت بهدوء وانطلقت نحو غرفة يونس الصغيرة، الجميع كان نائماً، لكني كنت أعلم بأن يونس مستيقظ. كانت غرف منزلنا تتوزع على قسمي فناء المنزل، غرفتا يونس ويوسف على ذلك الطرف من الفناء، كنت أذهب بهدوء خشية أن ينتبه أحد، دخلت الرواق، كان باب غرفة يوسف مغلقاً وضوء غرفته أيضاً، في غرفة يونس بدلاً من الضوء كان الفانوس مضيئاً، كان هذا من عادات يونس، وكل ليلة كان يناجي الله ساعات على ضوء ذلك الفانوس، حالما دخلت الرواق سمعت صوت تمتمة، وقفت هناك، لم أكن أريد حتى أن أتنفس في صمت ذلك الوقت من الليل، قلقت دون أن أعلم سبب ذلك بشكل جيد؛ قلت لنفسي: "بالتأكيد بسبب نظرات يونس الغريبة حينما كنا على سفرة العشاء"، كان قلبي يتألم، كنت مندفعة أيضاً.

فجأة تبدل أنين يونس إلى بكاء، في هذه الحال يغرق في نفسه لدرجة أنه لا يكترث لما يدور حوله أبداً، كأنه لا يستطيع تمييز أي صوت وهو في

هذه الحالة؛ حتى لو كانوا يتكلمون قربه بصوت مرتفع. لهذا كان بالي مرتاحاً، فتحت الباب بهدوء ودخلت، وذهبت لزاوية، جلست خلف رأسه، قلت: "من الأفضل ألا يراني"، ربما تشتت انتباهه. كنت أعلم أنه إذا رآني لن يتضايق، لكن أنا أحببت ألا أظهر أمامه، كي يشعر بالراحة، قلت لنفسي عدة مرات: " يا إلهي! هل من المحتمل أن يحل به بلاء الليلة؟ لا سمح الله هل حان وقت موته!"

عندما كنت أفكر على هذا النحو كنت أضطرب أكثر، بعد قليل اشتد بكاء وأنين يونس وكأنه قد غاص في أعماق بحر عظيم، ولم يكترث على الإطلاق لما يدور حوله، كنت أشاهده بحسرة وأستعين بالله كي لا يحدث أي شيء.

شرعت رعشة جسده قليلاً قليلاً؛ كان يرتعش بشدة وهو يبكي، لو وضعت أسلاك الكهرباء على جسده لما ارتجف أو اهتز بهذا الشكل!

سجد بعد الركوع، بقي ما يقارب نصف ساعة ساجداً، لم يكن يرتجف في سجوده، لا دموع فقط يدعو الله أن يغفر له! كان يبكي بشكل يحترق قلبي من أجله، حينما رفع جبهته من السجود، جلس، وسجد مرة أخرى.

نهض سريعاً هذه المرة وجلس، بدأ بكاءه وشرعت رعشة جسده الشديدة مرة ثانية، وفجأة سمعته يقول: "يا ألله! ارحمني، ارحمني! أين أنا؟ آه! أنجدني! لا تتركني وحيداً، أخاف، آه آه من هذه الأرض! كم هي عظيمة! لا أصدق. كم أنت جبار! أحبك. تسمعني. يا حسرتي على نفسي!

ارحمني. يا معشوقي يا إلهي انظر إلى يدي! انظر إلى دموعي! انظر كيف يرتعش جسدي، أخاف. يا إلهي! يا إلهي! يا ربي! سامحني. آه! دعني آتي إلى السماء، آتي إليك. آه...أحبك. يا إلهي! انظر كيف حالي! آه من هذه السماء! يا حسرتي على نفسي! يا حسرتي على نفسي!..."

قد سجلت أغلب مناجاته في رأسي، كان يبكي ويرتعش وكذلك يتحدث مع الله، تأثرت كثيراً، بكيت، كنت دائمة الخوف من أن يصل أحد ما ويراني في غرفته في هذا الوقت المتأخر من الليل أيضاً، ثم من أجل أن يطمئن بالي تقدمت قليلاً صوب النافذة، وألقيت نظرة إلى الفناء ونافذة غرفة أمي.

كانت الغرفة مظلمة، والصمت يخيم على المكان، جلست ثانية في مكاني، لكن هذه المرة وقع حدث غريب؛ كان يونس يرتعش بشدة، لدرجة أني كنت أريد أن أصرخ، ثم أنَّ أنةً جعلت جسدي يقشعر؛ أصابته رعشة أشد مرة أخرى، وفي الوقت نفسه تأوه كأن روحه فارقت جسده، ثم ارتمى على الأرض.

خفت وارتعبت، وقبلَ أَن أصيح سددت فمي بكف يدي، وخرجت من غرفته.

مررت من الرواق بسرعة، ومن المكان نفسه الذي كنت قد توقفت فيه وكنت ألهث وأحترق من شدة الخوف والهلع، ألقيت نظرة على غرفة يونس، وفجأة فارقني الخوف والهلع؛ ذهلت بالنور الأخضر الذي أحاط بغرفة يونس.

سحرت ولم أستطع أن أغض نظري عن ذلك النور القوي؛ يا له من نور! منحني السكنية، لكن ذلك النور لم يكترث لأمري، أضاء الغرفة فقط؛ كأن مئة مصباح قوي النور اشتعلت داخل غرفته الصغيرة.

لم تمر إلا عدة لحظات على هذا النحو وما لبثت أعود إلى نفسي، حتى اختفى ذلك النور كلياً مرة واحدة، أتريث مرة ثانية كأنما غافلني الخوف حتى لا أتقدم نحو الأمام، ثم عدت وتمددت في مكاني قرب أمي.

بقيت مستيقظة لساعتين أو ثلاث أفكر بذلك النور الساحر، حتى استيقظت في الصباح على صوت صياح وعويل أمي.

كان قد مُسّ يونس بعد هذه الحادثة؛ سُحر، لم يكن يتكلم مع أي شخص، كان يرانا ولا يرانا، كأنه جالس في الصحراء لا يوجد أي شخص قربه، أما أمي فكانت في معاناة من ألم الصداع، تتناول أقراص الدواء، في بعض الأيام كان الصداع لا يفارقها ويستمر على النحو نفسه، ومن شدة تفكيرها بيونس لم تكن تعي في أي وقت كان يتركها.

كان الأطباء يعاينون يونس، كانوا يتكلمون معه وكانوا يذهلون من ردة فعله، وقد أصيبوا بالدوخة أيضاً، كانوا يحاولون أن يجعلوه يتكلم بأي وسيلة كانت، لكنهم يفشلون؛ كانوا يسألون عن ماضيه وكانت أمي تجيبهم.

كل يوم يأتي طبيب إلى منزلنا، في النهاية أمر طبيب من أطباء العصبية بأن لا نعطيه دواءً على الإطلاق، ولهذا لم تتجرأ أمي مطلقاً من بعدها على

منحه ولا حتى حبة دواء واحدة. هذا الطبيب نفسه كان شعره يغزوه الشيب، وكان يضع نظارة، قال لأبي وأمي: يونس متأثر كثيراً بشيء ما، لكنه لا يعلم ما هو مع أنه منذ وقت طويل يحاول أن يعرفه، ذلك الشيء المجهول ما يزال يسيطر عليه ولا يتركه.

لم تجرؤ أمي أن تقول: "هل ذلك الشيء هو الشيطان أو جني أو شبح أو أحد أشباه هذه الكائنات؟" لأنها كانت تعلم بأن الطبيب سيسخر منها.

الطبيب أكد طلبه مراراً خشية أن نجعله يتناول دواءً أو خلطةً ما بتوصية من النساء المؤمنات بالخرافات، وتابع كلامه بالقول: "يجب أن نصبر، الصبر هو الطريق الوحيد لعلاجه، يجب أن ننتظر حتى تتركه تلك القوة المجهولة ويخرج من مجال جاذبيتها وقدرتها، عندها سيعود مرة أخرى إلى وضعه العادي والطبيعي".

تأسف الطبيب كثيراً لما مر به يونس قبل هذه الحادثة، حتى إنه عدَّ خوفه غير العادي أحد الأسباب الأساسية لهذا الوضع، وقال: "كان يجب ألا تتخطى عبادته حدها الطبيعي، هو يعتقد أنه عاشق الله، والله معشوقه، ولهذا أصيب بالتوهم؛ يظن بكل حواسه أن الله مطلع عليه، فيخاف منه إلى درجة الهلاك، يسكب الدموع ويرتعش حتى ينال الخلاص".

ولدى مغادرته قال: "اتركوه وشأنه، لكن إذا عاد إلى وضعه الطبيعي يجب ألا تسمحوا بتكرار الأخطاء السابقة مرة ثانية، هناك احتمال ضعيف أن يصاب بفقدان الذاكرة فيما أعتقد، وعندها يكون على الأرجح علاجه أبسط بكثير، شرط أن تراقبوه خشية أن يتذكر شيئاً من ذكرياته، لا قدر الله.

يجب أن يتغير محيطه؛ يجب ألا يعلم أنه في يوم من الأيام وقع في حياته حدث كهذا، لكن إذا لم يخرج من حالته هذه ولم يصب بفقدان الذاكرة أعلموني على الفور، على أي حال من الأفضل أن تخبروني إذا حدث أي تغير في حالته".

كان لكلام ذلك الطبيب تأثير في أبي وأمي؛ ومنذ ذلك الزمن لم يأت أي طبيب لرؤيته، لم تهتم أمي بكلام الجارات والعائلة، كانت تصغي لتوصياتهم وتأخذ الوصفات التي كانوا يوزعونها، ثم كانت ترميها بعيداً دون أن ينتبه أحد. أولئك الذين أوصوا بمزيج أو خليط ما، كانوا يتعجبون حينما كانوا يرون أن يونس لم يتحسن حاله حتى الساعة، حتى إن بعضهم لم تعد تطأ أقدامه منزلنا.

أمي كانت قد تعبت من ذلك الوضع، وأبي كان يحاول أن يقبل به على وضعه الراهن، يوسف أحياناً كان ينظر إليه فقط ويهز برأسه تأسفاً على حاله ثم ينشغل بعمله مرة أخرى.

كان يونس وحيداً جدّاً؛ لم يكن يشعر بوجودنا قربه، لم يكن أي صوت يمكن أن يزعجه، كأنه لا يرى ولا يسمع، كان يشبه الناس الحائرين المذهولين المضطربين المسحورين، لم يحدث أي تغيير على حالته، كانت تسيطر عليه هذه الحالة نهاراً وليلاً، لم يكن ينام أصلاً، وأثناء النوم أيضاً كانت تسيطر عليه هذه الحالات، لكن كأنه كان راضياً عن حاله؛ كان سعيداً، وعامراً بالأمل، كان مثل شخص أمامه نبع ماء بارد وهو في أوج عطشه وقد شرب منه فارتاح باله.

حقاً كأنما قد نسي وجودنا برمته، ونسي كل شيء أيضاً، إذا لم يكن هكذا، فمن المؤكد حين كان يرى أمي تبكي كان سيتأثر كثيراً، ويفعل ما بوسعه لإرضائها، لكنه لم يكن يسمع صوت بكائها، كأنه كان في صمت مطلق، يتجول في سماء صافية ورائعة، في الأصل لم يكن في هذه الدنيا.

لهذا السبب سيطر اليأس منه رويداً رويداً على أبي ويوسف بشكل كامل، بعدها كانا لا ينظران إليه على أنه حيّ، لكن أمي كانت ما تزال متفائلة. كنت أنا الوحيدة في المنزل التي لا تتصوره مريضاً نفسياً وعصبياً.

أنا كنت أراه في أوج حالة روحانية، لكن لم أتجرأ أن أتكلم مع أحد في هذا الشأن، لم أستطع أن أقول لأمي أنه في تلك الليلة ظهر نور سماوي في غرفته، لا لم أستطع أن أتكلم، لكني تأكدت أن يونس من بين عباد الله المقربين، وكأنه كان مشغول بالاستراحة فقط، كنت أعتقد بأن هذه المرحلة ستمضي سريعاً، وستتكرر مرة أخرى تلك الصلوات العاشقة، سيبدأ مرة ثانية ذلك البكاء، وستشرع من جديد تلك الرعشة وتلك المناجاة.

كان انتظاري يختلف كثيراً عن انتظار سائر أهل المنزل؛ كنت أنتظر أن أرى في أي مقام سيحل يونس بعد هذه الحالة، لكنهم كانوا ينتظرون أن يشفى في القريب العاجل، وأن يعود إلى الوضع الطبيعي، أنا كنت أعلم أنه ليس مريضاً، هو فقط في حالة غير قابلة للفهم بالنسبة إلينا؛ فلم نكن نستطيع أن ندرك هذا الوضع، كنت أشعر أنه واعٍ لحالته الروحية بشكل كامل، لكن كيفية هذا الوضع الغريب كانت مخفية عني أيضاً، كنت أرغب

بشدة بأن أعلم بماذا يفكر في ذلك الجو الغريب، وأي منظر بدا أمام عينيه المذهولتين حتى تلاشى أمامه هكذا؟

بذلنا قصارى جهدنا كي ننجح في التكلم معه ولو لمدّةً قصيرة جدّاً، ولا سيّما أمي فقد حاولت أكثر من الجميع، لكن لم ننجح، كل ما قلناه كان عبثاً بلا فائدة، كأن بيننا وبينه مسافة ما بين الأرض والسماء، فصوتنا لا يصل إليه، ولم يكن يبادر بأي ردة فعل، وهذا هو الأمر الذي كان يخيف أمي، وكاد يسري يأس أبي ويوسف إليها أيضاً.

-٢٤-

مضى شهران كاملان على هذه الحال، وأخيراً وفجأة سمعنا صوت يونس، كنا جالسين في الغرفة نتأمل بكل شيء إلا يونس، نادى أبي، اعتقدنا أننا مخطئون، نظر بعضنا إلى بعض بذهول، ذهبنا نحوه، ثم ذكر اسمي، ثم نظر إلى أمي.

وفجأة ينهار أبي بالبكاء، تقدم أكثر ووضع رأسه على قدمي يونس، وشرعنا كلنا بالبكاء، أمي تبكي من الفرحة، تقبل وجه يونس، ويوسف يقول: "يونس، تكلم".

كان يونس ينظر إلى تصرفاتنا مستغرباً، ثم سألنا وهو على الحال نفسها: "لماذا تبكون؟ ماذا حدث؟"

ضبطنا أنفسنا، فهمنا أنه وفقاً لما قاله الطبيب، قد أصيب بفقدان الذاكرة. لحسن الحظ كان يعرفنا وهذا هو سبب سعادة أمي، على الفور أحضرت له أمي شيئاً يشربه فشربه بكل سرور، وكي لا يفكر بتصرفنا السابق، وضحت له أمي: "كنت قد أصبت بوهن، وضغط الدم قد انخفض كثيراً".

لم يكن يتناسب هذا الشرح بالرغم من تأكيده من طرف كل أهل المنزل مع لحظات التأثر الشديد الماضية، كأنه كان يجب أن نقدم توضيحاً

آخر لتلك الدموع التي ذرفت أمام عينيه، توضيح قابل للتصديق، لكن يونس لم يكن يريد أن يفكر بهذا الأمر، كأنه نسي سريعاً جدّاً بكاءنا.

على الفور أشعلت أمي البخور، وأدى أبي صلاة الشكر، ثم أحضرت أمي الطعام له فأكله بشراهة ونهم! بقي مستيقظاً لمدة قربنا دون أن يشعر بالإزعاج.

آخر الليل نمنا جميعاً قربه في تلك الغرفة مخافة أن يحدث له شيء، أمي فقط بقيت ساهرة، النوم لم يكن يقترب من عينيها، في المقابل كان قد نام يونس بسهولة.

جاء الطبيب الذي كان قد قال: "إذا تغير حاله فأخبروني" مرة ثانية إلى منزلنا في صباح تلك الليلة، وفحص يونس جيداً وتحدث معه قليلاً، ثم تحدث مع أبي وأمي، لم أسمع كلامه، لا يهم، فقد ارتاح بالهما.

بعد عدة أيام، ودون إضاعة للوقت جهز أبي وسائل سفرنا إلى مدينة بروجن، وفي غروب اليوم الرابع لعودة يونس إلى حاله الطبيعي انطلقنا نحو بروجن، بقي يوسف وحده في المنزل، وصلنا ليلاً إلى منزل عمي، تفاجأ كثيراً برؤيته لنا، يونس لا يعلم لماذا جئنا إلى بروجن، لكن حينما شعر عمي أن هذا ليس مجرد لقاء عادي، اضطر أبي أن يشرح له بعيداً عن عيون يونس في مكان خالٍ عن سبب سفرنا هذا، لكنه اشترط عليه أن يحفظ هذا السّر حتى عن زوجته.

وجد عمي في الغد منزلا كاملاً لأبي، أبي وأمي ويوسف كانوا قد وضعوا معاً أثاث منزلنا في شاحنة، كل شيء سار على ما يرام حتى الظهر، وتناولنا الغداء في منزل عمنا، ثم انطلقنا بعد الظهر نحو منزلنا الجديد.

لم يسأل يونس حتى لماذا قد أتينا إلى هذه المدينة، كما لو أنه حفظ ذكرياته ونسيها في آن واحد، الغريب أنه كان قد نسي منزلنا السابق بشكل كامل، كان أحياناً فطناً واعياً وأحياناً بلا وعي وإدراك، لكنه كان قد نسي تماما أي إنسان كان في السابق، والشيء المؤثر كثيراً بالنسبة إليّ هو أن يونس كان قد نسي وجود الله تماماً! هكذا كان يبدو؛ أصبح غير محب للصلاة، وليس لديه أي ميل إلى الدين! أصبح غير مكترث بذلك، كان يبدو مثل طفل في السابعة أو الثامنة من عمره ولم يبلغ رشده حتى الساعة ولا يعلم حتى الساعة ماذا يعني الله، وما واجبه تجاه خالقه.

كنت أقول لنفسي: "هل هذه نهاية كل تلك العبادة والمناجاة والنحيب؟! هذا جزاء كل ذلك الخوف والارتعاش وسهر الليالي؟!"

شيئاً فشيئاً يكاد يؤثر فيّ كلام ذلك الطبيب الذي قال: "قد أصيب بالوهم". أكاد أصدق أنه كان مريضاً، لكن لم أكن أريد أن أصدق، كان هناك شيء في قلبي يقول: " لا؛ كان عاشقاً، ليس مريضاً!"

كان وضع يونس وكما لو أنه قد تناسى كل شيء: الله وأعماله الدينية وحالاته الروحية السابقة، وكان هذا ما طلبه أبي وأمي من الله، وقد وهبهم الله إياه!

في الليلة التي كان من المقرر أن ننام فيها لأول مرة في منزلنا الجديد، وبعد أن حضّرت أمي مكاناً له في غرفته نام بعد ساعة، جاءت أمي إلينا بعدها، وأخذت منا وعداً بأن لا نتكلم أبداً مع يونس حول ما قد حدث،

لم يرضِ أمي وعدنا لها؛ فاضطررنا أن نقسم أمامها بأننا لن نتكلم معه على الإطلاق حول ذلك الحدث، كان عليه أن ينسى ذلك الحدث الغريب إلى الأبد.

أصبح يونس مهتماً بالكتابة بعد تلك الحادثة، لم تكن لديه تجربة في هذا الأمر من قبل، رأيته يوماً منكباً على الكتابة، ورأته أمي أيضاً، وتوترت كثيراً، ثم طلبت مني أن أقرأ لها كتابات يونس، وفي يوم لم يكن يونس فيه في المنزل قرأت لأمي ما كتبه يونس؛ كانت الكتابات حول حكاية رجل فقد كل عائلته في حادثة فيضان، وكان يحاول أن ينتشل جثثهم من بين الوحل والطين، لكن بالرغم من كل سعيه لم ينجح، كانت الصحراء شاسعة مثل البحر، ولم يكن واضحاً في أي نقطة من هذه الصحراء كانوا قد غرقوا في الأرض.

حينما فهمت أمي أن هذا الموضوع لا صلة له بذكرياته ارتاح بالها قليلاً، لكنها كلما كانت ترى يونس منهمكاً في الكتابة كانت تقلق قليلاً، ودون أن تضايقه كانت تشير إلى أنه ليس لديها ميل لعمله هذا، لكن لم تكن تقول ذلك بطريقة يتأذى منها يونس؛ على العكس كانت أمي ترغب بأن يتسلى يونس بأي طريقة مهما كانت، حتى لا تتاح له أي فرصة ولو حتى للحظة للتفكير بذكرياته.

كان يونس يتكلم ويتصرف، وكأن كل يوم يمضي يودعه في ذاكرة النسيان، لم يكن يتطرق في الحديث عن اليوم الماضي وحوادثه، مال بشدة إلى الحياة، كان يريد أن يغرق في الدنيا، ودون أن يبدي كان يسعى بأي وسيلة للحصول عليها، كان يوسف يشجعه أيضاً. ثم اختار له فتاة بتوصية من أبي، كان اسم تلك الفتاة رُخساره، وكان أبوها من أصدقاء عمي.

أبي على الفور وبمساعدة من عمي ربط يديه بعمل في مكتبة، حتى يقولوا لوالد رُخساره أنه يعمل، وبمصطلح الناس "ابن بار ويريد أن يشكل عائلة".

لم يكن والد رُخساره يعرفنا، كان يعرف عمي جيداً، وتوصيته كانت كافية، وهذه المعرفة أدت إلى أن يرتبط اسم كل من رُخساره ويونس بعضهما ببعضٍ.

قُرر أن يتزوجا بعد أن تنتهي دراسة رُخساره، كان لدى يونس فرصة سنة أو سنتين كي ينظم وضع حياته، وأن يدخر مبلغاً من المال من أجل الزواج، لكن العمل في المكتبة والانشغال بالحياة لم يبعداه عن الكتابة؛ كان يكتب شيئاً بين الحين والآخر.

في يوم ما عندما سألته: "كيف تكتب هذه القصص؟" قال: "يوحى إلى في اليقظة وفي المنام".

لم يمض كثير على فراق عمي لنا؛ توفي بعد مدّة بعد معاناة من الألم والعذاب، تعطلت كليتاه عن العمل في غضون عدة أشهر، في النتيجة فقدت زوجة عمي زوجها وشريك حياتها بعد أن فقدت كل أبنائها.

بعد عدة أشهر تزوج يوسف أيضاً، وتركَنا، أما رُخساره فلم تكن قد انتهت دراستها حتى ذلك الوقت كي يتزوجها يونس.

كم كان صعباً بالنسبة إلي أن أشعر بأن يونس مفقود، أشعر بالأسف أكثر بسبب المعرفة التي كونتها عنه، كنت أعتقد أنه قد مات للأبد، كان قد نسي الله بشكل كامل، رغم أنه يعلم أن فرض الصلاة على عاتقه فلم يكن يكترث كثيراً له، كان يتصرف بشكل عادي حتى صلاته اليومية كان يؤديها

على عجلة، ثم ينشغل مجدداً بعمله اليومي، وأمي لولا أنها تخاف على يونس، لكانت فعلت فعلةً جعلته يودع الصلاة وذكر الله إلى الأبد! كانت تخاف أن يهب مرة أخرى كل ما يملكه للفقراء، ويتكرر ذلك الحدث مرة أخرى، لهذا السبب لم تكن توقظه صباحاً لأداء الصلاة، لكنه إذا استيقظ بنفسه بالمصادفة لم تكن تمنع صلاته.

كان يونس ميتاً! نعم، كم كان من المحزن أنه لم يبق أحد في منزلنا يناجي الله في الليل، يرتعش من الخوف ويسكب الدموع ويطلب المغفرة.

رغم أني أرغب دائماً أن أذكر الله، وألا أغفل لحظة عن الصلاة والدعاء، لكن لا أستطيع أن أقوم بهذه الأعمال في كل ساعة؛ المانع الأساسي أمي التي تخاف من أن تؤدي هذه الأعمال إلى أن يتذكر يونس ماضيه، لكني في الخفاء وبعيداً عن عيني أمي أدعو الله، وأناجيه لساعات كي يعشق يونس الله مجدداً، أرغب في أن يتذكر ماضيه، لكن لا أريد أن تتضايق أمي، أحب أن أراه مرة أخرى وجسده يرتعش من الخوف من الله أثناء الصلاة إلى تلك الدرجة التي تجعلني أخاف، وأريد أن أصرخ، أو يقشعر جسدي من كثرة بكائه وأنا أبكي أيضا بعيداً عن عينيه. نعم! يونس ميت.

لكن تصور أن يونس ميت ألهمني فكرة غريبة كأنني ألهمت هذه الفكرة فجأة في الصباح الباكر لليوم الذي كنت قد ذهبت مع أبي لزيارة قبر عمي. حتى أرى هل يمكنني أن أطبق فكرتي أو لا، ذهبت وحيدة في يوم آخر إلى قبر عمي، وبعد زيارتي لقبر عمي تجولت هناك، بالمصادفة رأيت قرب قبر عمي قطعة من الأرض خالية، لفت انتباهي مكان قرب قبر

مهجور، قلبت تراب ذلك المكان بقطعة من الخشب، أفكر هل من فائدة لهذا العمل الذي أريد أن أفعله أم لا؟ ورغم أني لم أفهم هل مفيد أم لا، وكي أكون قد أرضيت نفسي، أنفذ قراري في النهاية.

اشتريت قطعة قديمة من الحجر من البائع، قطعة الحجر كانت في زمن ما على قبر شاب، لكنها أصبحت غير لازمة، كان اسمه قد محي، ولم يعد واضحاً لماذا ولأي سبب كان الشاب قد مات؟

اخترت شاهدة القبر ذلك، وأحضره عامل إلى المكان المعين، ثم اخترت إحدى صور يونس التي كان قد تصورها منذ سنتين أو ثلاث سنوات وطبعت صورة كبيرة لوجهه، ثم وضعتها في إطار صورة قديم وجعلتها فوق ذلك القبر الخالي، ثبتت شاهدة القبر القديم بقليل من الإسمنت والماء، ولم يمض وقت طويل حتى بُدلت قطعة الأرض تلك إلى قبرٍ قديمٍ ومهجورٍ، على أمل أن يمر يونس من هذا الطرف، وتحيى أفكاره الميتة.

كنت أفكر أحياناً بهذا العمل العبثي، لكن حالما يقع نظري على ذلك القبر وعلى وجه يونس، كنت أهدأ، كنت أفكر بأن هذا هو الوجه الذي كان عاشقا لله والآن مات، ذلك الفتى الذي في منزلنا ليس هو يونس الذي كنت أعرفه، كم من اللحظات كنت أبكي قرب قبره وأتحسر!

مضت مدة على هذا النحو، أصبحت ملاك ما أنيسة لي في النوم ورفيقة وحدتي وحزني، وهي التي أفشت لي سر يونس؛ في ليلة ما كانت قد قدمت إلى منامي، وقالت لي: "يونس من عباد الله المقربين، والله الرحيم

مهتم لأمره، كان نوره يتلألأ في الأرض كنجمة في السماء، كان ذكره لله وتقواه وقيامه الليل يفقد الملائكة وعيها، كان متعجباً من أولئك الذين يملكون منزلنا في السماء، قد وصل إلى مقام لم يصل إليه إلا القليل من أبناء آدم، لكنه في ذلك الزمن الذي كان يسير أثناءه في السماء كان جسده الذي كان مثل جسد المسحورين موجوداً عندكم، علق فجأة بسحر الشيطان، ومال قلبه لأقل من لحظة إلى الدنيا، فلم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى هبط من مقامه الذي لا يمكن شرحه ووصفه.

حتى الساعة ما يزال منكبّاً على كسب الحياة، لكني أبشرك كي لا تحزني، نحن نعرفه أكثر مما يعرف هو نفسه أيضاً، يدور حديث في السماء بين الملائكة حول عودته، هذا حقيقي، تلطف الله بحاله، نحن جميعاً مسرورون لأنه سيترك الأرض وكنوزها، وسيحلق نحو سموات وملكوت الله...".

حذرتني الملاك خشية من أن يسمع يونس بهذا الكلام؛ كانت تقول: "لم يحن وقته حتى الساعة، وإلى ذلك الوقت الذي يكون فيه يونس منهمكاً في النوم والنسيان ومنكبّاً على كسب ملذات الحياة، لا ينبغي أن يعلم شيئاً حول هذا الشأن إلى أن يحين الزمن المحدد".

أنا أدعو دائماً كي يبطل سحر الشيطان، ويطير يونس مرة ثانية نحو السموات، هذه أمنيتي الوحيدة.

يا إلهي! لا تدعه يهلك بين مخالب الشيطان الذي تكون كل هذه الحياة وكل ألوانها وملذاتها وسيلة وأداة في يده، هو ليس جديراً بالفناء، اغفر ذنب

يونس، كما أخرجت النبي يونس من بطن الحوت وأجلسته على شاطئ النجاة أخرج أخي أيضاً من عتمة الأرض وظلمات الحياة وأوصله إلى النور والضياء! يا إلهي الرحيم! اقضِ على سحر الشيطان وحطم قيوده، ليحل يونس مرة ثانية في السماء المقدسة. يا أيتها السماء! افتحي ذراعيك أيضاً، فيونس الذي ينبض قلبه بذكر الله فقط سيحلق إليك في القريب العاجل. أحضرت ملاكي الأنيسة لي هذا الخبر السماوي، سيتحرر يونس المسحور سريعاً، أنا أعلم وأومن بهذه الحقيقة.

-٢٥-

يا لها من ليلة غريبة، كم كان حلماً غريباً! كما لو أنهم جالوا بي في دنيا من نار ونور وسط مدينة الملائكة. هذه الليلة لم أحظ بلقاء الملاك السماوية رغم أني أشعر بحاجة ماسة للقائها، أواخر الليل أدخل بهدوء إلى الغرفة التي تتلوى فيها أمي على نفسها من شدة الألم.

لا! لا أظن أنني استيقظت بسبب صوت أنينها.

أتقدم وأجلس في صمت، ترفع أمي رأسها لكنها لا تتكلم، تنزل رأسها مرة ثانية على وسادتها الناعمة، أبي يستدير من هذا الطرف إلى ذلك الطرف، لا يستطيع النوم؛ فأنات أمي لا تسمح لأحد أن ينام ببال هانئ.

كم من الجيد لو أستطيع أن أنام نوماً عميقاً أو أن أموت، لكن لا أكون شاهداً على أنين أمي.

أعطيها حبة دوائها من على الرف، لكنها تعيدها، ثم أنهض خائبة من مكاني، أضع علبة الدواء الزجاجية مكانها، حالما أنظر إلى جهة النافذة يتلألأ فجأة نور غريب في الفناء، أتجمد في مكاني متحمسة؛ هذا النور! يا إلهي! يا له من نور غريب! فجأة تمر ببالي ذكرى تلك الليلة الغريبة، كم هو شبيه بذلك النور الذي كنت قد رأيته قبل الآن في غرفة يونس!

أنظر إلى أبي وأمي، لا خبر لديهما عما يجري، قد غاص كل منهما في قوقعته. لقد ذهلت؛ أنظر مرة ثانية باتجاه النافذة، لم يبق أي أثر لذلك النور المتلألئ.

أركض نحو ذلك الاتجاه بسرعة، أفتح النافذة بهدوء، يسطع فناء المنزل بأشعة القمر، يرتعش جسدي كله فجأة من شدة التوتر والاضطراب، يُبرد نوع من الشعور جلد جسدي، إلهي! هذا الصوت مألوف بالنسبة إليّ، يا له من أنين محزن!

أعود نحو أمي، وفجأة أغلق النافذة مرتعبةً، ألهث كما لو أن خطراً عظيماً يحدق بي ولا سبيل للفرار! أذهب نحو أمي بهدوء لكنني متوترة. تندمج الأصوات بعضها مع بعضٍ مثل موجتين حزينتين، أبتعد عنها وتمسك يدي المرتعشة قبضة الباب، أفتحه والعرق يبلل وجهي. يا ألله العظيم! ما الذي حدث؟!

أخرج من الغرفة وأغلق الباب خلفي، ما تزال أصوات الأنين تصل إلى مسامعي، وكلما ابتعدت عن أمي أكثر اتضح صوت الأنين أكثر، وعلى حين غرة يحترق قلبي وينقبض كما لو أني على حافة الهاوية.

بينما أتقدم نحو غرفة يونس، تحررني يد الغيب في أعماق وادٍ عميق لا نهاية له، كأن نور القمر قد أضاء كل أرجاء الرواق، يا له من شعور شوق غريب! يا له من خوف واضطراب! أيتها الملاك السماوية! ها أنت حاضرة هنا قربي؟ هل قد أخذتِ يونس -أخي- معك؟ لا، هل أتخيل بأنني أسمع صوت آهات وأنين أو أنه حقيقي؟ هل بإمكاني أن أضغط على قبضة باب

غرفة يونس لأفتحه؟ يا ألله العظيم! هذا صوت يونس، لكن كيف أستطيع أن أصدق؟! أخشى أن يصل صوت أنينه إلى مسامع أمي!

أعود إلى الخلف مع تصوري هذا، وفجأة يعبر شبح نوراني من أمام فتحة الرواق، نعم رأيته بأم عيني، لست مخطئة، تخطر الملاك السماوية على بالي، أخشى أن تنتبه أمي.

أعود على عجلة، أقف أمام باب غرفة يونس، ينبض قلبي بحماس كبير، أخاف أن يغمى علي من شدة التعجب والدهشة، ولهذا السبب أفتح الباب على الفور، يداعب وجهي نسيم عطر، وتشدني إلى الأمام جاذبية الشبح النوراني الذي يوجد بيني وبين يونس فيغمى علي.

أفتح عيني، هذه المرة أرى يونس وأنا في أوج حالة عدم التصديق والإنكار وهو يدعو الله مرتجفاً ومرتعشاً.

هل يمكنني أن أصدق ذلك الذي رأيته؟ يحل خوف غريب في روحي، أتكئ بهدوء على الحائط، أشعل مصباح الضوء وفجأة يقع نظري على وجه يونس، سجادة صلاته مبسوطة أمامه، وهو يرتعش خوفاً من الله لدرجة اقشعر جسدي من رؤيته، أقف أمامه، أريد أن أناديه؛ أن أقول: "انظر يونس! هذه أنا، سميرة!"، لكن كأنه لا يراني، كأنه واقف في مكان آخر، كأن أي صوت لا يمكنه أن يجذب انتباهه.

هذا هو يونس نفسه الذي أملت رؤيته! قد عاد ذلك الرجل المقدس إلى منزلنا، أرى ولا أصدق؛ هل هذا هو يونس الذي يناجي الله بعيون باكية في منتصف هذه الليلة المقمرة أيضاً؟ هل استعاد ذاكرته؟ لكن كيف؟

يا له من شعور واضطراب يختلج قلبي! وفجأة ومع رؤيتي لكتاباتي في زاوية النافذة، ينسكب خوف عظيم في روحي يجعلني أشعر للحظات عدة بوخزة قوية في جهة القلب.

أذهب نحو كتاباتي بلا إرادة، تفتح النافذة فجأة على مصراعيها ويتسلل نسيم بارد إلى الداخل، يخيم الخوف على جسدي كظل شبحٍ.

أمر قرب يونس بحذر وهدوء، وأنحني قرب النافذة، وأحمل الكتابات بيدين المرتعشتين، يتصفح النسيم الكتابات، وتمر أمام عيني جُمل بلا أي مفهوم أو معنى.

أدقق قليلاً كأن صوتاً آخر غير صوت يونس ينبعث من وسط الغرفة أيضاً، أدقق جيداً، لكنه غير مفهوم.

تسترعي أمي انتباهي على حين غرة مخافة أن تسمع صوت أنين يونس! هذا الخيال يجعلني أتوتر، أذهب سريعاً صوب الباب، ألقي بنظرة مرة أخرى على يونس، وحينئذٍ أطفئ مصباح الضوء، فتصبح الغرفة مظلمة وفقط ترى زاوية منها بفعل ضوء القمر.

أفتح الباب وأخرج، ألقي بنظرة جهة اليمين، الرواق خالٍ وأدخل بسرعة إلى غرفتي، وأخبئ الكتابات في مكانها، يتلاطم الهيجان والاضطراب في روحي وكياني، فقد ملأ صوت أنين يونس المنزل بأكمله.

أخرج من غرفتي، وفجأة أتجمد في مكاني؛ أمي تنظر إلى نظرتها المستفسرة وهي تلصق كلتا يديها بجبينها:

- سميرة، ما هذا الصوت؟

- نعم؟ أي صوت؟!

- هذا الصوت، اصغِ، كأنه من غرفة يونس... آخ رأسي، يا رب!

الآن أستطيع أن أسمع صوت نبض قلبي بكل وضوح، قوي لدرجة أخشى أن يصل إلى مسامع أمي.

أذهب نحوها وأحاول أن أشتت انتباهها:

- رأسك أفضل؟

- لا. لا فرق... يا إلهي! ما هذا؟ أظن أنه صوت يونس.

- لا.لا أظن، يونس نائم.

- لا، الصوت من هذا الناحية، تعالي لنرى.

أنطلق خلف أمي باضطراب وقلق، ينقطع صوت الأنين للحظات، لكنه يرتفع ثانية تماماً في اللحظة التي تتأكد فيها أمي أنها أخطأت بينما كانت تعود نحوي.

تنظر إلى أمي بعيون مذهولة وهي مضطربة ودائخة، كما لو أنها قد نسيت صداعها القاتل، وعقب توقف قصير استدارت نحو باب غرفة يونس، سحبت قبضة الباب إلى الأسفل ودخلت.

- يا إلهي ما هذا!؟

تشعل مصباح الضوء وتتجمد في مكانها؛ أمامها رجل مقدس كانوا يسمونه يونس قبل الآن، واقف أمام الله مثل مريد مسكين ومظلوم، يئن وهو يرتجف من الخوف من جبروت مالك الأرض والسموات.

أتقدم قليلاً كي أرى وجه أمي جيداً؛ تحدق بيونس، لا تصدق ما تراه، مذهولة ومصدومة، ليس لديها ما تقوله.

تنظر إليه بعينين دامعتين، وهو كما لو أنه يسير في السماء وقد ملأت الملائكة أطرافه، الآن يرتفع صوت أمي المرتعش:

- يونس، بني!

- أمي الحبيبة! صدقيني أنا لم أقل له شيئاً!

- إذن لماذا ساء حاله مجدداً؟!

تجلس أمي على ركبتيها قرب سجادة يونس وهي تبكي، لكن يونس في حالة نشوة وكما لو أنه يسير في مكان مقدس وعلى العرش، سقطت الرعشة على هيكله، وكذلك تدفق الدمع من عينيه.

أتجرأ قليلاً وأوصل نفسي بهدوء وبلا صوت إلى أمي، وأضع يدي على كتفها.

تمضي مدة على هذا الحال، حتى يرفع يونس رأسه عن سجادته، كدت أصيح من الدهشة، عاد وجه يونس النوراني والمقدس، هذا هو الوعد الذي كانت قد وعدتني إياه الملاك الغيبية، متأكدة أنها الآن في هذه اللحظة موجودة في هذه الغرفة تحدق بهذا المشهد المثير للدهشة.

ينقطع صوت أنين يونس شيئاً فشيئاً، حينئذٍ يخيم صمت عميق ومطبق على الغرفة، ما تزال النافذة مفتوحة والنسيم العليل يداعب وجوهنا، الآن لدي أمنيتان فقط، الأولى: ألا تقلق أمي على يونس. والثانية: أن يحدق بي يونس لعدة لحظات فقط إن أمكن.

هل سأرى هذه اللحظة العظيمة بأم عيني؟

تشرع أمي بالبكاء مرة ثانية، وبينما كان يونس يحدق بالأفق البعيد، دعته:

- يونس! بني هل أنت على ما يرام؟

يدير يونس رأسه فجأة نحوها، عادت إليه تلك الملامح المقدسة التي ليس فيها أي رغبة وطلب، رمى آماله وأمنياته بعيداً، وغدا من عباد الله المخلصين.

تتصور أمي أنها قد فقدت يونس مرة أخرى، لكن حالما يمسك يونس بيدها كأنها تهدأ، الآن ينظر بعضهما إلى بعضٍ.

كما لو أن أمي تنسى للحظات بكائها وأنينها تغرق في جاذبية هذه النظرة السماوية، حينئذٍ وبينما يداعب يونس رأس أمي بيده اليمين، يصل كلامه الباعث على السكينة إلى مسامعنا:

- أمي الحبيبة! لا تحزني، يجب ألا تعاني بعد الآن...

تفكر أمي صامتة بكلام يونس وحركاته، في هذا الوقت يغمض يونس عينيه المملوءتين باللمعان ويتمتم، يسحب يد أمي نحو شفاهه ويقبلها، ثم يمسح بيده على رأسها.

- أمي الحبيبة! شملك الله بلطفه، لا تحزني، لن تئني من شدة ألم الصداع بعد الآن.

هنا أشرع بالكلام لاإرادياً:

- صحيح ما تقوله، يونس! أشكرك يا أله!

ينظر يونس إلى وكأنه قد انتبه حديثاً إلى وجودي، يا أله العظيم! يا لها من نظرة! كما لو أن التحديق بعينيه يجول بي على سطح بحر هادئ، هل ذلك الذي سمعته حقيقي؟

- أمي الحبيبة، أنت شفيت.

أمي دائخة وقلقة وما تزال غير مؤمنة بكلامه، ترفع كلتا يديها وتمسح بيدها على رأسه.

يظهر أبي فجأة أمام باب الغرفة، أناديه:

- أبي الحبيب! أمي شفيت!

- ماذا يحدث في هذا الوقت من الليل؟! ماذا تفعلون؟!

يبقى أبي دون حراك مع رؤيته لحالة يونس، لكن وقبل أن يقلق وييأس، أنهض وأذهب نحوه وأمسك يده وأسحبه نحو يونس:

- تعال إلى هنا، إلى يونس، يونس دعا، أمي شفيت، ويسمع أبي صوت أمي المرتعش:

- لا. ليس حقيقياً!

يجلس أبي أمام يونس ويلقي نظرة عليه ثم نظرة على أمي:

- ماذا تقول هذه الفتاة؟ تحسن حالك؟

- لا. لا أعلم.

أنا لدي إيمان كامل بكلام يونس، أصيح مرة ثانية: "لماذا؟ لماذا؟ صدقيني؛ أنت تحسنت الآن".

أمي لا تعلم ماذا تقول، يتكلم معها أبي:

- كيف حالك؟ حالك كيف...؟ تحسنت؟

أمي التي لم تؤمن حتى الآن بكلام يونس، تقول بهدوء وهي تبدو دائخة: "لا أعلم، لكن ألم رأسي خف كثيراً، كما لو أن الألم توقف".

يشرع يونس بالكلام مرة ثانية:

- أمي! أنت تحسنت؛ لن يغافلك الصداع بعد الآن، ليهدأ بالك.

أمي -وهي غير مصدقة أن معجزة قد حدثت- تفتل رأسها يميناً ويساراً عدة مرات، وتحدق مجدداً بملامح يونس -ابنها- النورانية:

- كأن الصداع قد فارقني!

أبي الذي أصبح مسروراً، يشكر الله، وتشرع أمي بالبكاء، وتبدأ في الكلام، وهي على ذلك الحال:

- يا رب! سامحني! كان يونس أمانتك. يا رب! أنا أسأت التصرف. ويشرع يونس بالكلام مرة أخرى:

- كوني مسرورة، أنت تعافيت.

وكي لا يبكي أبي أمامنا، ينهض ويخرج من الغرفة، تمسح أمي دموعها، وتقبل جبين يونس:

- بني! حفظك الله، تحسن رأسي بفضل دعائك.

وتشرع مرة أخرى بالبكاء، يلقي يونس إلى بنظرة أخرى، أضع عيني في عين رجل منزلنا المقدس، وبينما كان يبتسم هذه المرة كأنه يريد أن يشكرني بهذه الطريقة، وبينما كنت أمسح دموعي، أجيبه بابتسامة.

حينما ينهض يونس، ثم بمساعدة بعضنا لبعضٍ نضع ذراعينا تحت إبطي أمي ونخرجها من الغرفة، كأن أمي تمشي على الغيم؛ لم تصدق حتى الساعة أن معجزة عظيمة قد حدثت، فتخلصت من شر ذلك الصداع اللعين.

أقف هناك، على عتبة الباب، أفتح الباب، وأرشد أمي نحو الداخل، يتقدم يونس نحو فتحة الرواق، ويشرع أبي مرة أخرى بالكلام داخل الغرفة:

- ماذا حدث أيضاً؟... فارقك؟

- نعم... أصبح رأسي خفيفاً، مثلما كان تلك السنين التي لم يكن يصيبني الصداع بها، خفيف جدّاً، الحمد الله!

- الحمد لله!

أنا أحاول أن أريح بال أبي:

- أبي الحبيب! حالما دعا يونس لها، فارقها الصداع، تصدق؟

- كما تقولين أنت، لا، لا أصدق.

- لماذا يا رجل! صدق! أنا سمعته بنفسي وهو يدعو من أجلي؛ قال: "يجب ألا تعاني بعد الآن الصداعَ، تلطف الله بك، تعافيت للأبد".

- لا إله إلا الله! إن شاء الله.

وأمي تدعو من أجل يونس:

- حياك الله يونس! ليحفظك الله!

يلقي أبي بنظرة إليّ، ويشرع بالكلام مجدداً:

اذهبي إلى يونس وقولي له أن يأتي إلى.

تناديه أمي:

- يونس!

لكن يونس لا يجيب، أخرج من الغرفة، أتوقف لحظة في الرواق.

لا يصل أي صوت من يونس إلى مسامعي، أذهب صوب غرفته، وأناديه وسط الطريق، لكن قلبي ينبئني بأنني لن أسمع جواباً لصوتي، من المؤكد أنه قد انشغل مرة ثانية بالصلاة والعبادة.

أفتح باب غرفته، لكن ليس هناك أحد.

أسمع صوت أبي هذه المرة:

- يونس الغالي! أين أنت؟

فجأة يضغط اضطراب على قلبي، في الرواق أنادي يونس بطريقة لا يسمع بها أبي صوتي، أخاف أن يقلق، مثلي أنا.

أذهب نحو فناء المنزل، ما يزال القمر البدر يتلألأ، حينما أصل إلى الفناء تضعف رِجلاي، وأكرر اسم يونس تمتمةً، أقف أمامه ومن ثم أجلس.

- يونس! ماذا تفعل هنا؟ أبي يناديك.

أوقع نور القمر السكينة على ملامحه، كأنه لا يسمع صوتي، ينظر إلى لحظة، ثم ينظر إلى السماء متأملاً، أناديه مرة ثانية، يبتسم لتصبح رسمة وجهه أبدية على هذا الحال. أفزع من مكاني خائفة وأتراجع إلى الخلف، أناديه مرة أخرى، لا يجيب، قد أسند رأسه إلى الحائط، وكأنه قد غرق في نوم وسكينة عميقة بعينين مفتوحتين لامعتين كثيراً.

أعود وأرى أبي وأمي على عتبة الرواق وهما ينظران إليه بعيون باكية، يسرعان باتجاهه، ويكرران اسمه باستمرار، يهز أبي كتفي يونس، لكن لا يصدر عن يونس أي ردة فعل، تصيح أمي، وأتراجع إلى الخلف خائفة وأنظر نحو السماء.

تبتلع قطعة من الغيم الأبيض القمر، أسمع صوت بكاء أبي، وأمي ترتجي يونس ليجيبها، وجد يونس العاشق معشوقه مرة أخرى، وهما لا يصدقان.

أقترب أكثر كي أرى لآخر مرة ملامح أخي النورانية، لست متأكدة حتى الساعة، لكن كما لو أن روحه المضطربة قد حلقت.

بعد عدة لحظات، كما لو أن كل شيء انتهى في منزلنا، يعلو صوت أمي إلى السماء، يبشرني قلبي بشيء لا أريد أن أصدقه، الشيء نفسه الذي كنت أتمناه منذ مدة.

في هذه الأثناء تمر قطعة من الغيم السابح أمام القمر، ويضيء وجه يونس. لا أعلم الآن هل يونس قد سحر مرة أخرى؟ أو أنه قد تركنا إلى الأبد...

حسن خادم (١٩٦٠-...)

- كاتب إيراني معاصر؛
- أبدع بكتابة القصة الطويلة؛

من أعماله:

- مقبرة الملائكة
- طاعون الأرض
- مشمول الموت
- الخنجر العاري

ميسم العلي

- مترجمة سورية.
- حاصلة على ماجستير في اللغة الفارسية وآدابها من جامعة شهيد بهشتي في طهران.
- حاصلة على شهادة دورة إعداد معلمي اللغة الفارسية (المرتبة الثانية) من مؤسسة / سعدي بطهران.
- لها مقالات مترجمة في مجلة جسور ثقافية.
- يعد هذا العمل باكورة أعمالها المترجمة.

م٢٠٢١